

روايات مصرية
سلسلة الأعداد الخاصة
26
عدد خاص جدًّا
خدعة القرن
Looloo
www.looloolibrary.com
د. نبيل فاروق

ملف المستقبل

فى مكان ما من أرض (مصر) ، وفى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجد القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسرّية مطلقة ؛ من أجل حماية التقدُّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدّم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدّى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحة من عالم الغد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل .

د . نبيل فاروق

وانتصـــــرنا



الخامس من يونيو ١٩٦٧م ، كان كارثة عسكرية بكل المقاييس ... كارثة على الجيش والشعب والمستقبل أيضًا ... وهى كارثة تعود إلى عدة أسباب ، لخصها البعض فى شخوص ، وليس فى أسباب ، فالكارهون للزعيم (عبد الناصر) نسبوها إليه ، ووجدوا فيها فرصة للنيل منه ومن تاريخه ووطنيته ، والمغرمون به حاولوا تبرئته بالكامل منها ، وألصقوا الهزيمة بصديقه ورفيق عمره (عبد الحكيم عامر) ، وحصروا الأمر أيضًا فى هذا ، وارتاحوا لما وصلوا إليه ...

ولكن الأمر يختلف مع من لا يقصرون الأمور على شخوص ، ومن عليهم دراسة أسباب النكسة بروية ودقة ودون انفعال ، حتى يتوصلوا إلى الحقيقة ، التى هى أساس مهنتهم ومعلوماتهم ... الخطة كانت لدى (عبد الناصر) ، من بدايات يونيو ١٩٦٧م ، ومن أجل هذا اجتمع بالفعل بالقادة ، وحذرهم من الضربة القادمة ، ولم يأخذ أحدهم الأمر بالجدية اللازمة ، وأكَّد له (عبد الحكيم عامر) أن كل شىء تمام على الجبهة ...

المدهش أن كل شىء كان تمامًا بالفعل ، وتسليح الجيش كان ممتازًا ، والخطة الدفاعية كانت مدروسة بدقة ، وعلى الرغم من هذا حدثت الكارثة ..

فكيف ؟!...

المشير (الجمسى) فى مذكراته ، أبدى اندهاشه من عدة نقاط ، كان لابد من التوقف عندها ، قبل كيل الاتهامات ، فشفرة الاتصالات اللاسلكية العسكرية تم تغييرها ، فى ليل ٥ أكتوبر ١٩٦٧م ، دون إبلاغ الفريق (عبد المنعم رياض) ، قائد القوات المشتركة - آنذاك - والذى

رصد الطائرات ، عند خروجها من (تل أبيب) ، وحاول عبثًا إبلاغ القيادة فى (مصر) ، ولكن تغيير الشفرة حال بينه وبين هذا ...

ودشم الطائرات ، التى لهث قادة الطيران لطلب إنشائها ، منذ حرب ١٩٥٦م ، لم تكن قد بنيت بعد ، حتى أنه عندما انقضت الطائرات الإسرائيلية ، كانت طائراتنا تقف على ممراتها جناح بجناح ، وكأنها فى انتظار ضربة تسقطها كصف من قطع الدمينو ...

والأعجب أن الطائرات الإسرائيلية ضربتها ، ثم اتجهت إلى الأردن ، لتجد الطائرات هناك على الأرض جناح بجناح ، وضربتها ، لتجد الطائرات فى سوريا على الحالة نفسها !!! ...

أما الحفل الذى أقيم للضباط فى الليلة السابقة للهجوم ، واستمر حتى الفجر ، فيحتاج إلى الكثير من الأسئلة والتساؤلات ...

والأدهى أن يتم تحديد صباح الخامس من يونيو ؛ ليتفقَّد القائد الأعلى (عبد الحكيم عامر) القوات فى (سيناء) ، مما حتَّم إيقاف كل وسائل الدفاع الجوى فى ذلك الصباح ؛ باعتبار أن طائرة القائد الأعلى فى الجو !! ...

الفريق (عبد المحسن مرتجى) قال فى مذكراته : إنهم كانوا فى انتظار القائد الأعلى ، وعندما رصدوا طائرات تقترب ، بدأ عزف الموسيقى العسكرية ؛ لاستقبال القائد الأعلى ، ولكنهم فوجئوا بأنها طائرات إسرائيلية تقصفهم !! ...

أمور عديدة ، طرحت حول مائدة البحث ، وتم من أجل كشفها الاتصال بكل عيوننا ؛ فى (إسرائيل) وخارجها ؛ لمعرفة كيف تم كل هذا ، وطرح الرجال كل المعلومات على مائدة البحث ، دون توتر أو عصبية ، أو إحباط الهزيمة ...

وكان عليهم أن يظلوا متماسكين عقلانيين ؛ لأن النتيجة الحتمية للانفعال ـ أيًا كان نوعه ـ هى الخسارة والهزيمة ، ولا شىء سوى هذا ...

وكان على الباحثين دراسة وجدولة كل الأسباب ، حتى الصغيرة منها ، من منطلق مبدأ الروائى الشهير (إرنست هيمنجواى) : إذا عرفنا كيف خسرنا ، نعرف كيف نربح ...

درسوا ودرسوا ودرسوا ، وأدركوا أن ثغرة المعلومات كانت وراء كل هذا ، حتى المعلومات الصغيرة ، والتى قد تبدو بلا قيمة ، مثل تلك المعلومة ، التى استمع إليها جاسوس إسرائيلى ، من عامل فى أحد مصانع الأغذية المحفوظة ، وهو يروى لصديق له ، وهما يلعبان الطاولة ، إنه يعمل وردية إضافية فى المصنع ؛ لأنهم طلبوا مضاعفة إنتاج علب الخضار المحفوظ ، ولما كانت هناك معلومة سابقة لدى الإسرائيليين ، تقول : إنه فى حالات الاستعداد للحرب ، يتم صرف علبتى خضار محفوظ لكل جندى ، بدلاً من واحدة ، أدرك الإسرائيليون أننا جادون فى فكرة الحرب ، ولهذا قرروا إحباط كل هذا بضربة استباقية مركَّزة عنيفة ، صنعت الكارثة ...

اللعبة إذن لعبة خداع ...

ومعلومات ...

المعلومات تمنحك كل ما تريد من تفاصيل عن العدو وقواته واستعداداته ، والخداع فى ألا يعلم أبدًا ما أنت مقدم عليه فعليًا ... ولهذا بدأت حرب جديدة ، تسعى للفوز بالنصر ، واستعادة ما خسرناه فى نكسة ١٩٦٧م ، وعلى عدة محاور ...

المحور الأوَّل كان الحصول على كل المعلومات الممكنة عن العدو ، من خلال عيوننا فى إسرائيل ، والتى جلبت إلينا الكثير ، عبر ست سنوات

كاملة ، من التغيرات فى الجيش الإسرائيلى ، وحتى خارطة أنابيب النابالم ، قبيل حرب أكتوبر مباشرة ...

والمحور الثانى كان منع العدو من الحصول على معلوماتنا ، بالحرص على سريتها ، وبنشاط جم فى مكافحة الجاسوسية الداخلية ، وحتى الخارجية منها ، مثل كشف الجاسوسة الأشهر ، (هبة سليم عامر) ، ومعاونها (فاروق الفقى) ، والنجاح فى جلبها من الخارج ، لتلقى جزاءها هنا ، بعد أن صار وجودها فى باريس بؤرة خطر ؛ لاتصالاتها بالسفارات العربية ، وعلاقتها بالكثير من المسئولين هناك ، ولانصياع (فاروق الفقى) لها ، بكل معلوماته العسكرية عن حائط الصواريخ ...

والسيطرة على جواسيس فى الداخل ، مثل (إبراهيم حسين شاهين) ، وزوجته (إنشراح على مرسى) وأبنائهما ، وبث معلومات مغلوطة لجواسيس لم يتم القبض عليهم ، على الرغم من كشفهم ؛ لتوصيل تلك المعلومات المغلوطة للعدو ؛ لتربك حساباته ، وتفسد تحليلاته ...

التعيينات الإضافية للجنود ، تم إنتاجها على مدى طويل ، وتخزين الفائض منها فى مخازن عسكرية ، تحت مسمى أنها فاسدة ، حتى تحين اللحظة المناسبة لساعة الصفر ، والتحركات على الجبهة كانت تتم على مستويين ، جزء منها معلن تمامًا ، وواضح لطائرات الاستطلاع الإسرائيلية ، والأقمار الصناعية الأمريكية ، وجزء آخر يتم سرًا ، وعبر وسائل تخف عديدة ...

وقبيل الحرب ، تم نشر شائعة عن فساد القمح فى صوامعه ، وسرعان ما صارت الشائعة فضيحة علنية ، تحدَّثت عنها الصحف ، وقرر بعدها المسئولون إعدام آلاف الأطنان من القمح الفاسد ، والذى تم إعدامه فى

حضور صحفيين ووسائل إعلام ، لم يدرك واحد منهم أن ما رآه وصوَّره كان أطنانًا من قش الأرز ، مغطاة بطبقة صغيرة من قمح فاسد بالفعل ، وأن القمح الفعلى السليم قد تم نقله سرًا ، إلى صوامع تخزين فى وادى النطرون ، فى نفس الوقت الذى تم فيه استيراد أطنان بديلة من القمح صارت مخزونًا استراتيجيًا ، عندما اندلعت الحرب ...

وفى نفس الفترة ، تحدَّثت الصحف عن فضيحة انتشار ميكروب التيتانوس فى المستشفيات ، مما اضطر وزارة الصحة لإخلائها ؛ من أجل تطهيرها علانية ؛ لتصير المستشفيات خالية ، ومستعدة لاستقبال الجرحى والمصابين ، عندما اندلعت الحرب ...

خدع رآها العدو ، ورصدها ، وصرخ شامتًا لإهمالنا ، الذى أدى إليها ، قبل أن يكتشف ، مع بداية المعركة ، أنها أكبر خدعة انطلت عليه فى تاريخه ...

وفى السادس من أكتوبر ١٩٧٣م ، اندلعت الحرب ، ومستشفياتنا خالية ، ولدينا مخزون كاف من القمح والسلع الأساسية ، وحتى من مصابيح الإضاءة اليدوية ...

والأهم ، كانت لدينا خريطة فتحات النابالم فى القناة ، والذى لو تم ضخه ، فى لحظة العبور ، لهلك تسعون فى المائة من قوة العبور الأولى ، وسبعون فى المائة من قوة العبور الثانية ، ولربما استحال العبور تمامًا ، مع وصول درجة حرارة سطح القناة إلى خمسة آلاف درجة مئوية ، كما أكَدت التجارب ، التى تم إجراؤها ، فى منطقة من النيل ، لها نفس عرض وعمق القناة !!...

ففى فجر السادس من أكتوبر ، انطلقت مجموعتان متتاليتان فى مهمة شديدة الأهمية والخطورة ، الأولى من رجال الصاعقة المصرية ، الذين قطعوا الخراطيم التى توصل النابالم إلى الفتحات ، مستعينين بما لديهم من خرائط ، أحضرها أهم عيوننا فى (تل أبيب) ، والثانية من رجال الضفادع البشرية ، الذين استعانوا بالخرائط نفسها ، لسد فتحات النابالم بمادة سريعة الشك تحت الماء ، وخسر الإسرائيليون أخطر سلاح يعوق العبور ، إلى الضفة الشرقية ...

عين أخرى لنا ، فى خط بارليف ، نقلت إلينا أدق تفاصيل دفاعاته ، وكيفية القضاء عليها ، مما ساعد الرجال فى اقتحام ذلك الخط الدفاعى ، الذى وصفته إسرائيل بأنه أقوى خط دفاعى عرفه التاريخ ، وأكثره مناعة وصلابة ...

المواجهة أثبتت لهم أننا أكثر صلابة وقوة من خطهم الدفاعى ، وحتى من النابالم الحارق ... وعبرنا ...

عبرنا فى الوقت الذى كانت فيه قوات من الصاعقة المصرية ، والتى تم إنزالها فى منطقة الممرات ، قبل الهجوم بيوم ونصف ، تقاتل كالوحوش ؛ لمنع إمدادات العدو من الوصول إلى الجبهة ، والتى ظل أسودها يقاتلون ، حتى بعد أن نفدت ذخيرتهم ، ولم يتبق لهم سوى السلاح الأبيض ، والذى واجهوا به مدرعات العدو وقواته ...

عبرنا ، وحطمنا أسطورة جيش (إسرائيل) الذى أشاعوا أنه لا يقهر ، وانبهر العالم كله بما فعلنا ، بعد أن تصوَّر لست سنوات أننا عاجزون ، لا يمكننا أبدًا الانتصار على الإسرائيليين ...

ثم كانت الثغرة ، التى نجح (إيريل شارون) فى صنعها ، وحاول عبرها تحويل الهزيمة الإسرائيلية إلى نصر ، لولا (السويس) ، التى قهرت برجالها ، مدعومين بالجيش ، دبابات (شارون) ، وجعلوه يدرك من هم المصريون ، وكيف أنهم خير أجناد الأرض ، عندما يدق النفير ، وتنادى (مصر) ...

ثم وضعت حرب أكتوبر أوزارها ، واحتفلنا كلنا بالنصر ، وارتفع علمنا على جزء من (سيناء) ، استرجعناه بدماء أبطالنا وأرواح شهدائنا ، مما مهَّد السبيل لعقد الاتفاقات والتفاوض المباشر على ما تبقى منها ، وسرعان ما استعدنا كامل (سيناء) ، التى يسعى المتأسلمون لاحتلالها ، متصورين أنه قد يمكنهم الفوز فى معركة بين حفنة منهم ، وشعب وشرطة وجيش (مصر) ... ولكن (إسرائيل) لم ترض بهذا ، وكان عليها أن تستغل آلتها الإعلامية الهائلة ؛ لإقناع العالم بأنها من انتصر فى حرب ١٩٧٣م ، وليس نحن ، حتى أن كل الموسوعات ، التى تصدرها دور نشر تابعة لهم ، قد تورَّطت فى تلك الخدعة ، وسجلت ذلك فى صفحاتها ... المؤسف أن بعض الأقلام العربية قد سارت على النهج نفسه ، ومن منطلق الشخصنة أيضًا ، وليس من منطلق الحقائق المجرَّدة ، فبدءوا فى إنكار حقيقة نصر أكتوبر ، فقط لأنهم يعادون (السادات) ، ولا يريدون أن يحوى تاريخه أية انتصارات ، واختصروا الحرب والتضحيات ، ودماء الشهداء ، التى روت تراب (مصر) ، فى شخص واحد ، ثم سرعان ما عكسوا كراهيتهم على شخص (مبارك) ، فأنكروا حتى أنه من قام بالإعداد للضربة الجوية الأولى ، التى جمعت كل المعلومات ، الواردة من عيوننا فى (سيناء) ؛ لتضرب دفاعات العدو كلها ضربة واحدة موجعة ، كان لها فضل كبير فى تحقيق النصر ...

غاب عنهم أن فضل الضربة الجوية قد نسب إلى (مبارك) ، قبل أن يكون رئيسًا لـ (مصر) ، أو حتى نائب رئيس ، ولم يكن هناك يومها من ينافقه ، أو يسعى لنيل رضاه أو عضوية حزبه ...

دومًا تتخذ الحقائق ثوب رجل واحد ، ما أن نرفضه حتى نرفض كل ما ينسب إليه ، غير متعظين بما فعلته ثورة يوليو ١٩٥٢م بالملك (فاروق) ، وكيف أساءت إليه وإلى شرفه وسمعته ، ثم جاء التاريخ ليلبسهم العار على ما فعلوه ، ويعيد الحق لأصحابه ...

فـ (مبارك) ، اتفقنا أو اختلفنا معه ، كان أحد الطيارين ، الذين حملوا أرواحهم على أكفهم ، خلال ثورة (الجزائر) ؛ لتوصيل الأسلحة للثوار ، محلقًا بطائرته على ارتفاع منخفض شديد الخطورة ؛ تفاديًا للرادارات الفرنسية آن ذلك ، وإنكار التاريخ عار على من ينكره ؛ لأن الحقائق ستظهر ، إن عاجلاً أو آجلاً ، ومن زيَّفها سيحكم على نفسه بالخزى ؛ ولو كان هذا من قبيل الغضب أو الانفعال ...

كنت فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى عام ٢٠٠٩م ، عندما هاجمنى صحفى أمريكى ؛ بأننا نكذب ، وندَّعى انتصارنا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م ، فى حين أن كل المراجع تقول : إن (إسرائيل) هزمتنا ، وضحك الحاضرون كلهم ، فسألته : ما مقياس الانتصار فى الحروب ؟!.. ، ولما لم يجب ، سألته : أين كنا ، قبيل توقيع اتفاقية (كامب ديفيد) ، وأين كان الإسرائيليون عندئذ ؟!... ولم يجب أيضًا ، فأجبته أنا بأننا ، بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م ، وقبل توقيع الاتفاقية كنا فى جزء من (سيناء) ، انتزعناه من الإسرائيليين ، ثم سألته : فى أية حرب فى التاريخ ، ربح الخاسر أرضًا

وخسرها المنتصر؟!... وساد الصمت بضع لحظات ، ثم صفق الحاضرون ،
وجلس الصحفى محمر الوجه ... وعلى كل من ينكرون انتصارنا فى حرب أكتوبر ، أن يطرحوا على أنفسهم السؤال نفسه ...
وليحسبوها هم ...
ففى حرب أكتوبر ١٩٧٣م ، وعلى الرغم من كل خداع وكذب آلة الإعلام الصهيونية ، وعينا أسباب الهزيمة ... واستفدنا من دروسها ...
وانتصرنا ...
وإن كره الحاقدون .

د . نبيل فاروق

ملف المستقبل
سرى جدًا !!

البقعــــة



١ ـ غموض ...

شعاع أزرق دقيق ، من ليـزر هادئ ، انبعث من جهـاز أمـن مركـز الأبحاث ، التابع للمخابرات العلمية المصريـة ، وراح يفحص قزحية عيـن ذلك الرجل الواقف أمامه ، قبل أن ينبعث صوت إليكترونى من الجهاز :

ـ ضع سبَّابتك على الدائرة الزرقاء من فضلك ..

وضع الرجل سبَّابته ، حيث طلب منه الجهاز ، وشعر بوخذة دقيقة فى منتصفها ، قبل أن ترتسم على الشاشة أمامه خارطة لحمضه النووى ، أعقبتها صورته وبياناته الكاملة ، مع ذلك الصوت الإليكترونى يقول فى آلية :

ـ مرحبًا بك فى مركز الأبحاث يا دكتور (توفيق) .

ابتسم الرجل فى هـدوء ، والباب ينفتح أمامه فى نعومة ، ويظهر خلفه الدكتور (مندور) ، مدير المركز ، وهو يستقبله فى ترحاب :

ـ أهلاً يا دكتـور (توفيق) ... أدهشتنى بحق أن أعلم أنك طلبت مقابلتى؛ فقد انقطعت كل أخبارك ، منذ ذلك المؤتمر فى (الإسكندرية) .

صافحه (توفيق) فى هدوء ، وسار إلى جواره ، وهو يتأمل ما حوله ، قائلاً :

ـ تذكر جيدًا كيف سخروا منى حينذاك .

هزَّ الدكتور (مندور) كتفيه ، قائلاً :

ـ كان عليك أن تصمد ، على الرغم من هذا ، ما دمت تؤمن بنظريتك .

ابتسم (توفيق) ابتسامة باهتة ، وهو يقول فى شىء من الشرود :

ـ تطويع الخلية البشرية كان يفوق إدراكهم .

قاده الدكتور (مندور) إلى معمله ، وهو يغمغم :

ـ ويفوق كل الدراسـات العلميـة أيضًا ... ولا تنس أنك لـم تقدِّم دليلاً واحدًا على نظريتك ، سوى ما كتبته فى دراستك .

لم يبد (توفيق) اهتمامًا بما قاله الدكتور (مندور) ، وهو يسأله :

ـ ولكننى علمت أنكم تقومون هنا بأبحاث حول الخلايا البشرية .

تردَّد (مندور) لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ ليست لها علاقة بدراستك .

لم ترق ابتسامته للدكتور (مندور) ، وهو يسمعه يقول ، فى لهجة شبه ساخرة :

ـ من أدراك ؟!

جلس الدكتـور (مندور) خلف مكتبه ، وهو يسأله فى لهجة ، تسللت إليها ، على الرغم منه ، لمحة من الصرامة :

ـ ما سر زيارتك لنا يا دكتور (توفيق) ؟!

أشار الدكتور (توفيق) إلى الكمبيوتر أمام الدكتور (مندور) ، متسائلاً فى اهتمام .

ـ هذا الكمبيوتر يتصل بكل معامل الأبحاث هنا ... أليس كذلك ؟!

غمغم الدكتور (مندور) بكل القلق ، وسبَّابته تتسلَّل إلى زر الأمن تحت سطح مكتبه :

ـ دكتـور (توفيـق) .. إن لم تعلـن السبب الفعلى لقـدومك إلـى هنـا ، وطلب مقابلتى ، فسأضطر إلى استدعاء الأمن .

قال (فائق) فى سخرية مخيفة :

ـ سيحتاجـون إلى سبـع ثوان ؛ للوصـول إلى هنا ، وهى فترة تكفينى كثيرًا .

وضع الدكتور (مندور) سبَّابته على زر الأمن ، وهو يقول فى صرامة محذرًا :

ـ ربما كان الدخول إلى هنا صعبًا ، ولكن الخروج أكثر صعوبة ، ما لم ...

قبل أن يتم عبارته ، هوى الدكتور (توفيق) على فكه بلكمة هائلة ، بدت له أشبـه بقنبلة انفجرت فى فكـه ، فـدارت عيناه فى محجـريهما ، وضغطت سبَّابته زر الأمن بحركة غريزية ، فانطلق إنذار الأمن فى المركز كله ، وتحرَّك رجال الأمن على الفور ...

ودون أن يبدى (توفيق) أدنى اهتمام ، أخرج من جيبه قطعة مستديرة من البلاستيك ، ألصقها على جانب كمبيوتر الدكتور (مندور) ، فتحوَّل لونها من الأبيض إلى الأزرق ، ثم إلى الأحمر ، فى غضون ثانية واحدة ...

وبكل قوتهم ، اقتحم رجال أمن مركز الأبحاث ، وهم يشهرون مدافعهم الليزرية ، و ...

ولكن المكان كان خاليًا ، إلا من بقعة وردية على أرضية الحجرة ، حيث كان يقف الدكتور (توفيق) ...

أما الدكتور (توفيق) نفسه ، فقد اختفى كل أثر له ...

تمامًا ...

★ ★ ★

« وهل قام رجال الأمن بتفتيش المكان ؟!... »

ألقى (نور) السؤال ، وهو يقف أمام القائد الأعلى للمخابرات العلمية ، والذى حمل صوته الكثير من التوتر ، وهو يجيب :

ـ لقد فتشوا كل شبر فى مركز الأبحاث كله ، بل كل سنتيمتر ، ولم يعثروا له على أدنى أثر ، وكل آلات المراقبة فى المكان ، لم ترصد تجواله فى المكان ، أو خروجه منه ... الرجل تلاشى تمامًا أيها المقدم (نور) ، وكأنه لم يكن .

غمغم (نور) فى تفكير عميق :

ـ البشر لا يتبخرون على هذا النحو يا سيدى .

هزَّ القائد الأعلى كتفيه ، قائلاً :

ـ كل ما تركـه خلفه هـو بقعة جيلاتينيـة وردية اللـون ، وقطعة من البلاستيك ، تحوى دوائر ميكروسكوبية رقمية دقيقة للغاية ، يعكف خبراؤنا على دراستهـا الآن ، فقـد كانت ملصقـة بالكمبيوتر المركـزى ، فى مكتب الدكتور (مندور) ، الذى نجا من الحادث بأعجوبة .

تساءل (نور) فى اهتمام :

ـ ألم تكن هناك كاميرا فى حجرة الدكتور (مندور) ؟!

أجابه القائد الأعلى ، وهو يعود إلى مكتبه :

ـ رصد ما يحدث فى حجرة مدير مركز الأبحاث ، يتعارض مع إجراءات الأمن أيها المقدم .

تساءل (نور) مرة أخرى :

ـ وماذا عن تلك البقعة الجيلاتينية ؟!

أشار القائد الأعلى بيده ، مجيبًا :

ـ علماؤنا يدرسونها أيضًا .

صمت (نور) بضع لحظات مفكرًا ، ثم مال ليستند براحتيه على سطح مكتب القائد الأعلى ، وهو يقول فى حزم :

ـ سيدى القائد الأعلى ، تجاربى السابقة علمتنى ، أن كل لغز غامض لابد له من تفسير ، حتى ولو بدا مذهلاً أو مستحيلاً ، وسأجمع فريقى فورًا للبحث عن هذا التفسير ، ولكن لى طلب واحد ضرورى .

واستمع إليه القائد الأعلى بكل الاهتمام ...

ووافق على مطلبه ...

فورًا ...

★ ★ ★

رفعت (نشوى) ، ابنة (نور) و(سلوى) عينيها ، عن عدسة ذلك الميكروسكوب النانورقمى الفائق ، وهى تقول فى دهشة :

ـ هذه القطعة أشبه بكمبيوتر فائق ، يحوى ذاكرة هائلة ، على الرغم من صغرها ، وهى مزوَّدة أيضًا بجهاز اتصال لاسلكى شديد التطور ... كيف أمكنك إقناعهم بمنحك إياها يا أبى ؟! .

أجابها (نور) فى اهتمام :

ـ كلنا نعمل فى فريق واحد يا (نشوى) ، وتعاملنا مع الأدلة المتوافرة مباشرة ، يجعل الأمور أسهل وأسرع .

غمغمت (سلوى) :

ـ ولكن هذه القطعة المدهشة ، تحتاج إلى إمكانيات تفوق ما لدينا ؛ لفحصها وفهم طريقة عملها يا (نور) .

بدا (أكرم) متبرمًا ، وهو يعبث بمسدسه التقليدى ، قائلاً :

ـ ولماذا لا نراجع كل ما لدينا ، عن ذلك المدعو (فائق) ؛ لنعرف بمن كان يتصل ، ولحساب من كان يعمل ؟!

أجابه (نور) فى حزم :

ـ لقد أوكلت هذه المهمة لـ (رمزى) ، وهو يجمع كل المعلومات الآن عن الرجل ... الشخصية والنفسية .

تساءلت (سلوى) :

ـ وماذا عن تلك البقعة الجيلاتينية ؟!

بدا (نور) مرهقًا ، وهو يجيب :

ـ الدكتور (محمد حجـازى) انضم إلى فريـق العلمـاء ، الذى يقـوم بفحصها ، وسيوافينا بالنتائج بعد قليل .

ران الصمت على القاعـة بضع لحظـات ، قبل أن يقـول (أكـرم) فى ضيق :

ـ يبدو أنها مهمة أخرى ، لا مكان لى فيها .

غمغم (نور) ، دون أن يلتفت إليه :

ـ من يدرى ؟!

ارتفع رنين ساعة الاتصال حول معصمه ، فى هذه اللحظة ، فرفعهـا بسرعـة إليـه ، وضغط زر الاتصال ؛ ليسمـع الجميـع صوت الدكتور (حجازى) ، وهو يقول :

ـ النتائج مخيفة يا (نور) .

العبارة أثارت توتر الجميع ، وتساءل (نور) فى حزم :

ـ ماذا لديك يا دكتور (حجازى) ؟!

أجابه كبير الأطباء الشرعيين ، فى صوت لا يقل عنه توترًا :

ـ تلك البقعة عبارة عن خلايا بشرية ذائبة يا نور ... ليست محترقة ، ولكن ذائبة ، وكأن شيئًا ما قد طحنها فى خلاط هائل ، حتى تحوَّلت إلى سائل جيلاتينى مندمج .

نظر الكل إلى بعضهم البعض فى دهشة ، قبل أن يتساءل (نور) :

ـ هل تعنى أن الدكتور (توفيـق) قد ذاب تمامًا ، بعد أن اعتـدى على الدكتور (مندور) فى مكتبه ؟!

قال الدكتور (حجازى) ، فى توتر أكثر :

ـ وماذا عن ملابسه وحذائـه ، وحتى حـزام سرواله ... البقعة تحـوى الخلايا البشرية الذائبة فحسب .

مرة أخرى ساد الصمت داخل القاعة لثوان ، قبل أن يتساءل (نور) ، فى صوت مبحوح قليلاً ، من فرط الانفعال :

ـ وهل هنـاك وسيـلة لاستخـلاص الحمض النـووى ، من تلك الخـلايا الذائبة ؟!

صمت الدكتور (حجازى) هذه المرة لثانية أو ثانيتين ، قبل أن يجيب :

ـ لم يكن هذا ممكنًا فى البداية ، ولكن العلماء هنا عباقرة بحق ... لقد وجدوا وسيلة شديدة التعقيد ، ولكنها أسفرت عن نتيجة إيجابية إلى حد كبير .

هتف (أكرم) ، وقد فاض صبره ؛ مع كثرة المعلومات العلمية المتداولة :

ـ وما هى ؟!

أجابه الدكتور (حجازى) فى سرعة :

ـ وفقًا للسجلات الرسميـة ، فالحمض النـووى ، يعـود إلى الدكتـور (توفيق) ، دون أدنى مجال للشك .

التقط (نور) نفسًا عميقًا ، فى محاولة لتهدئة أعصابه ، قبل أن يقول :

ـ فليكن يا دكتور (حجـازى) ... أبلغنا أية إضافة جديـدة ، يمكـن أن تتوصلوا إليها .

أنهى الاتصال ، والتفت إلى رفاقه ، قائلاً :

ـ يبدو أن اللغز يزداد تعقيدًا يا رفاق .

غمغم (أكرم) ، وهو يتلاعب بمسدسه فى توتر :

ـ الرجل ذاب داخل مكتب مغلق ، دون أن يترك خلفه سوى بقعة ، من خلاياه الذائبة .

قالت (سلوى) :

ـ الأعجب أنـه ليست هنـاك أية علامات ، لاستخـدام طاقة ما ، داخـل المكتب المغلق ، تسمح بذوبان كائن بشرى كامل .

قالت (نشوى) وهى تعيد عينيها إلى عدسة الميكروسكوب النانورقمى :

ـ ربما يكمن السر فى تلك الدائرة شديدة الدقة ، التى تركها خلفه .

حمل صوت (نور) تفكيره العميق ، وهو يقول ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ لقد ألصقها فى كمبيوتر الدكتور (منـدور) ، وربما هذا ما منحه الطاقة اللازمة للانتحار .

اعتدل (أكرم) بحركة حادة ، وهو يقول :

ـ هل تشير إلى أنها حالة انتحار يا (نور) ؟!

قال (نور) ، مواصلاً أسلوبه ، الشبيه بالحديث إلى نفسه :

ـ الرجل لم يربح شيئًا مما فعله . . . طلب مقابلة الدكتور (مندور) ، بعد اختفاء دام عدة أشهر ، وتحدَّث عن سخرية المجتمع العلمى منه ، ثم ألصق تلك القطعة المدهشة بكمبيوتر الدكتور (مندور) ، وذاب بعدها تمامًا .

اعتدلت (نشوى) ، وهى تقول :

ـ لدى نظرية مختلفة تمامًا يا أبى ... تلك القطعة لديها قدرة مدهشة ، على الاتصال بأى جسم رقمى تلتصق به ، وهى قادرة ، من خلال سرعتها الفائقة ، وقدرتها التخزينية الجبارة ، على سحب كل المعلومات ، حتى بالغة السرية منها ، من كمبيوتر الدكتور (مندور) ، المتصل بكل معامل مركز الأبحاث .

سألها (نور) فى اهتمام وتفكير :

ـ وبم سيفيد منها ، ما دام سينهى حياته ؟!

ثم رفع سبَّابته ، مستطردًا فى حماس :

ـ مهلاً ... (نشوى) أشارت إلى أن تلك القطعة لديها نظام اتصال لاسلكى شديد التطور .

قال (أكرم) ، وقد انتقل إليه الحماس :

ـ كان إذن ينقل تلك المعلومات إلى جهة أخرى .

هتف (نور) فى صرامة :

ـ هذا ، لو صح ، ينقل الأمور إلى مستوى شديد الخطورة يا رفاق .

قالت (سلوى) فى حيرة :

ـ ولكنه انتحر بعدها يا (نور) ، فبم يفيد من نقله للمعلومات ؟!

أجابها (أكرم) فى حزم :

ـ الانتقام .

قبل أن يعلق أحدهم ، دخل (رمزى) القاعة ، وهو يقول :

ـ سبب منطقى للغاية يا (أكرم) .

التفت إليه (أكرم) فى انفعال :

ـ حقًّا ؟!

أشار (رمزى) بيده ، قائلاً :

ـ لقد راجعت كل ما يتعلَّق بالرجـل ، طوال أشهر اختفائـه ، ورأيـى المهنى هو أنه قد فقد توازنه النفسى ، منذ سخر منه المجتمع العلمى ، فى مؤتمر (الإسكندرية) ، وصارت لديه نزعة سادية للانتقام ، من المجتمع العلمى كله ، وربمـا لهذا اختـار مركز الأبحاث العلمية ، أكبر صرح علمى فى (مصر) .

هتف (أكرم) ، وقد تضاعف حماسه :

ـ كنت أعلم هذا .

أجابه (نور) فى حزم :

ـ هذا لم يحل لغز ذوبان الدكتور (فائق) ، على هذا النحو العجيب .

تنهد (رمزى) ، وهو يقول :

ـ الواقع أن هذا اللغز يحوى أكبر قدر من الغموض ، الذى يتزايد مع كل مرحلة يا (نور) ، حتى أننى أتسـاءل ، أى غموض آخـر ، يمكـن أن يحمله لنا .

« مساء الخير أيها السادة ... »

انطلقت العبـارة ، فـور انتهاء (رمزى) من قـوله ، فالتفت الكل إلـى صاحبها على نحو غريـزى ، ثم اتسعت العيون كلها فى ذهول ، فما يرونه أمامهم كان حقًّا مذهلاً ...

وإلى أقصى درجات الذهول .

★ ★ ★



٢ ـ ولكــن كيف ؟!...

حملت نظـرات القائد الأعلـى كل التـوتر ، وهـو يحدق فى الجالس أمامـه طويلاً ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ لا أستطيع فهم هذا يا دكتور (توفيق) !!!.

ابتسم الرجل ابتسامة رصينة شاحبة ، وهو يقول :

ـ أشترك معك فى هذا ، يا سيادة القائد الأعلى ، فأنا نفسى أعجـز عن فهم ما حدث .

تراجع القائد الأعلى فى مقعده ، وهو يقول بنفس الحذر :

ـ لابد وأنك لاحظت أننا قد ضاعفنا إجراءات الأمن هذه المرة ، وزدناها بإجراءات إضافية ، فى حالتك بالذات ، فليس من السهل أن أستقبل إنسانًا ، أثبتت كل الأبحاث أنه قد لقى مصرعه .

أشار (توفيق) بسبابته ، قائلاً :

ـ بل ذاب ، لو شئنا الدقة يا سيادة القائد الأعلى .

قال القائد الأعلى ، ومازال الحذر يسيطر على مشاعره :

ـ والخلايا الذائبة حملت كلها بصمتك الجينية .

حك الرجل ذقنه ، وهو يقول فى تفكير :

ـ وهذا ما يستوجب التفكير العميق ، فالحمض النووى لا يمكن اصطناعه أو تركيبه .

اعتدل القائد الأعلى ، وهو يقول :

بالضبط ، ولهذا كان استقبالك بمثابة مغامرة .

انعقد حاجبا الرجل ونهض يميل على مكتب القائد الأعلى ، قائلاً فى حدة :

ـ ولكنكم تيقنتم من هويتى بمنتهى الدقة .

قال القائد الأعلى فى صرامة :

ـ اجلس يا دكتـور (توفيق) ... اجلس ... وإياك أن يعلو صوتك هنـا مرة أخرى .

تراجع الرجل ، وهو يقول فى هدوء عجيب :

ـ لن أحتاج إلى هذا .

هم القائد الأعلى بقـول شـىء ما ، عندما ارتفع رنـين جهـاز اتصـاله الخاص ، فضغط زر الاتصـال الخـاص ، وسمـع (نور) يقول فى انفعال ، عبر السماعة الدقيقة داخل أذنه :

ـ سيدى القائد ، لن يمكنك أن تتصوَّر من ظهر هنا .

أجابه القائد الأعلى فى هدوء حازم :

ـ أنت تقصد الدكتور (توفيق) ... أليس كذلك ؟!

هتف (نور) فى دهشة :

ـ كيف علمت يا سيدى ؟!



كان الدكتور (توفيق) يبتسم ، عندما أجاب القائد الأعلى :

ـ لأنه يجلس هنا أمامى أيها المقدم .

فوجئ بـ (نور) يصرخ :

ـ مستحيل !! ... اطلب الأمن فورًا يا سيادة القائد ... أخرجه من مكتبك الآن .

نهض القائد الأعلى فى توتر شديد ، وهو يهتف بدوره :

ـ لماذا يا (نور) ؟

صاح (نور) بكل انفعاله :

ـ لأنه يقف أمامى هنا الآن ، فى مقر الفريق .

وفى نفس اللحظة ، أصابت ضربة قوية فك القائد الأعلى ، وأحاط به الظلام ...

فى سرعة مخيفة ...

★ ★ ★

« أمر مذهل يا (نور) !!! ... »

قالها الدكتور (حجازى) ، وهو يقلب كفيه فى حيرة ، قبل أن يستطرد ، وكل أفراد الفريق يتابعونه فى صمت :

ـ رجال الأمن اقتحموا حجرة القائد الأعلى ، بعد ثانيتين فحسب من فقدانه الوعى ، وعلى الرغم من هذا لم يكن هناك أثر للدكتور (توفيق) الثانى !! ... فقط بقعة جيلاتينية ، مثلما حدث فى السابق .

غمغمت (نشوى) ، والتوتر يملأ صوتها :

ـ يمكننا أن نشرح لك كيف حدث هذا .

وأضافت (سلوى) فى انفعال :

ـ فلقد رأيناه يحدث أمامنا .

لوَّح (أكرم) بمسدسه التقليدى ، وكأنه يتوق لإطلاقه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ فى نفس اللحظة ، التى علم فيها (نور) بوجود نسخة أخرى من الرجل ، فى مكتب القائد الأعلى .

اكتفى (رمزى) بقلب كفيه فى حيرة ، فرفع الدكتور (حجازى) عينيه إلى (نور) ، قائلاً ، فيما يشبه الضراعة :

ـ أخبرنى أنت ماذا حدث يا نور ؟

التقط (نور) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول ، محاولاً السيطرة على توتره :

ـ عندما أخبرنى القائد الأعلى أن الدكتور (توفيق) فى مكتبه ، أدركت ما نحن بصدده ، وخصوصًا عندما بدأ الواقف هناك يطلق ضحكة ساخرة ، جعلت (أكرم) يصوب نحوه مسدسه .

غمغم (أكرم) فى عصبية :

ـ لقد أطلقت النار عليه بالفعل .

قال (رمزى) فى خفوت :

ـ ولكن هذا لم يوقفه ... لقد اندفع نحو كمبيوتر (نشوى) ، وألصق به قطعة بلاستيك مستديرة ، ثم بدأ فى الذوبان .

قالت (سلوى) فيما يشبه الاندفاع :

ـ بل ذاب دفعة واحدة ، أمام أعيننا جميعًا .

أشار (نور) إلى بقعة جيلاتينية وردية ، بالقرب من مكتب (نشوى) ، وهو يقول :

ـ ولم يترك سوى هذه .

حدَّق الدكتور (حجازى) فى البقعة ، وكأنه لم يرها من قبل ، وغمغم فى توتر :

ـ ولكن ماذا يريد منا ؟!... الانتقام ؟!

أجابته (نشوى) فى سرعة :

ـ المعلومات أوَّلاً يا دكتور (حجازى) .

أكمل (نور) فى حزم :

ـ هذا صحيح ... فى البداية مركز الأبحاث العلمية ، ثم مكتب القائد الأعلى ، ومعه مقر الفريق ... ربما كان هدفه فى النهاية هـو الانتقـام بالفعل ، ولكنه يجمع المعلومات أوَّلاً ، التى تساعده على هذا .

غمغم دكتور (حجازى) فى يأس :

ـ ونحن نجلس هنا عاجزين .

شدَّ (نور) قامته ، وهو يقول فى حزم :

ـ على العكس يا دكتور (حجازى) ... هجومـه على مقرنا ، كان أكبر خطأ ارتكبه فى خطته .

رفع الدكتور (حجازى) عينيه إليه فى دهشة :

ـ وكيف هذا ؟!

أشار (رمزى) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ أوَّلاً : لقد رأينا جميعًا كيف يحدث هذا بأعيننا ، مما سيساعدنا كثيرًا على فهم وتحليل وإدراك الأمر .

رفعت (نشوى) يدها بتلك القطعة البلاستيكية المستديـرة ، وهى تضيف :

ـ وأنا انتزعت تلك القطعة من الكمبيوتر فى سرعـة ، وقبل أن تكمل عملها ، وهذا سيساعدنى على فهمها .

ضغطت (سلوى) زر جهاز التعقب الخاص بها ، وهى تقول :

ـ وجهازى التقط الإشارة الفائقة ، التى ترسلها تلك القطعة الصغيرة ، وقام باستنساخها وتسجيلها ، وهو يعمل الآن على تحليلها وتتبعها .

التفت الدكتور (حجازى) إلى (أكرم) ، مغمغمًا :

ـ أليس لديك ما تضيفه ؟!

نهض (أكرم) فى بطء ، واتجه نحو تلك البقعة الجيلاتينية ، ودس فيها سبَّابته وإبهامه ، ثم رفعهما يحملان مقذوف رصاصته ، وهو يقول :

ـ الشىء الذى يذيبه ، لا يذيب ما يضاف إليه ، من مواد خارجية .

بدا الدكتور (حجازى) مبهورًا ، وهو يدير عينيه فيهم ، قائلاً :

ـ عباقرة . . . أنتم حقًّا أفضل فريق علمى فى مصر ... بل فى العالـم أجمع .

تبادلوا نظرة صامتة ، دون أن ينبس أحدهم بحرف ، وكل منهم يتساءل فى أعماقه :

هل يستحقون هذا اللقب بالفعل ؟!

هل ؟!..

★ ★ ★

أمام شاشـة الكمبيوتـر العملاقـة ، فى مقره السـرى ، وقف الدكتـور (توفيق) ، معقود الكفين خلف ظهره ، يلقى نظرة على آلاف المعلومات ، التى تزوَّدت بها ذاكرة الكمبيوتـر ، عبر الأقـراص الناقلة النانورقميـة ، وغمغم فى مقت بلا حدود :

ـ سيدفعون الثمن ... جميعهم سيدفعون الثمن .

وجلس خلف مكتب فاخـر ، يشبه طرازات القـرن السابـع عشـر ، مع فارق الأزرار المضيئة ، والشاشات العديدة الصغيرة على سطحه ، وضغط زر جهاز تسجيل رقمى خاص ، وهو يتراجع فى مقعده الوثير ، قائلاً :

ـ اليوم التاسـع والخمسـون ، بعد المـائة السادسـة ... لحظـة الانتقـام صارت قاب قوسين أو أدنـى ... المعلـومات شبه مكتملة ، وتكفـى لبسط السيطرة على العالم أجمع ... والأهم أنها تكفى لصنع جيشى الخاص ... هرمـون النمـو الفائـق غيـر المستقـر ، سيصل ؛ بفضل معلـومات مركـز الأبحـاث ، إلى حـالة الاستقرار الخلـوى ، وعندئذ سأصير فى كل مكان ... كل خلية فى جسدى ستصبح نسخة قاتلة منتقمة ، وسأغـزو العالـم بجيش من رجل واحد ... جيش لم يعرف الكون مثله ، منذ بدء الخليقة ...

ضغط زر إنهاء التسجيل ، والتقط نفسًا عميقًا ، ثم نهض يسير عبر معمله الكبيـر ، متأملاً عـدة أسطـوانات شفافة ، تسبح فى ذلك السائل الوردى داخلها أجساد بشرية ...

أجساد كلها نسخة طبق الأصل من شخص واحد ...

منه ...

★ ★ ★

« الأمر أخطر مما نتصوَّر أيها القائد الأعلى ... »

قالها رئيس الجمهورية فى صرامة ، وهو يواجه القائد الأعلى ، فى القصر الجمهورى ، قبل أن يستطرد ، فى صوت يحمل كل انفعالاته :

ـ بعد الاختراق المهين للمخابرات العلمية ، ارتفعت بعض الأصوات ، فى لجنة الأمن القومى بالبرلمان ، تطالب بحل هذا الفرع من المخابرات ، ونقل اختصاصاته إلى مجلس الدفاع القومى .

بدا القائد الأعلى منزعجًا ، وهو يقول :

ـ ولكن تاريخ المخابرات العلمية مشرف للغايـة يا سيـادة الرئيس ، ويكفى أنها كانت وراء تحرير الأرض كلها ، من غزاة الفضاء[1] .

قال الرئيس فى صرامة ، حملت معها لمحة من التوتر :

ـ هذا ما حـاولت إقناعهم به ، ولكن الأصوات المعارضة قوية ، وكل ما نجحت فى فعله ، هو تأجيل اتخاذ القرار ، لمدة ثمان وأربعين ساعة فقط ، إما أن تربح المخابرات العلمية معركتها خلالها ، أو ...

لم يكن الرئيس بحاجة لقول ما هو أكثر ...

فلقد أدرك القائد الأعلى للمخابرات العلمية ما يعنيه ...

وما لم يقله ...

أدرك ، وشعر فى أعماقه بقلق كبير ...

قلق بلا حدود ...

★ ★ ★

(١) من سلسلة ملف المستقبل راجع قصة (الاحتلال) ... المغامرة رقم (٧٦) .

رفعت (نشوى) تلك القطعة البلاستيكية على راحتها ، وهى تقول لـ (نور) :

ـ هذا ليس اختراعًا جديدًا أبى ، ولا هو لمحة من عالم آخر ... إنه سلاح تجسس أمريكى ، كان من المفترض أنه سـرى للغايـة ، ولكـن الدكتـور (توفيق) نجح فى الحصول عليه بوسيلة ما .

غمغم (أكرم) :

ـ وما دام اختراعًا سريًا للغاية ، فكيف تمكنت من كشفه ؟!

التفتت إليه (نشوى) بنظرة ، جعلته يشيح بوجهه مغمغمًا فى توتر :

ـ آه ... لا داعى للسخرية .

قال (نور) فى حزم :

ـ لا وقت للسخرية يا (أكرم) ... أخبرينى يا (نشوى) عن طبيعة تلك القطعة الدقيقة .

أجابته (نشوى) فى اهتمام :

ـ فى البداية تصوَّرت أن سعة التخزين الكبيرة ، تعود إلى أنها تستخدم كبنك معلومات ، ولكن بالفحص المجهرى الدقيق ، كشفت أن سعة التخزين الكبيرة ، ما هى إلا جزء من برنامج لضغط المعلومات فى سرعة فائقة ، ثم إطلاقها لاسلكيًا دفعة واحدة ، مثل الرصاصة .

غمغم (أكرم) فى عصبية :

ـ هل يمكنك ترجمة هذا ، إلى حوار يمكن استيعابه ؟!

أجابت (سلوى) بدلاً منها :

ـ باختصار ، فور إلصاق هذه القطعة ، بجهاز يحوى معلومات رقمية ، تقوم بسحب كل المعلومات ، مهما كان حجمها ، وضغطها فى ثانية واحدة ، ثم إطلاقها فى الثانية التالية ، إلى نقطة استقبال محدَّدة سلفًا .

قال (نور) فى اهتمام :

ـ إذن فهناك نقطة استقبال .

قالت (نشوى) فى سرعة :

ـ كانت مشفرة على نحـو شـديد التعقيـد ، ولكننى استخـدمت برنامـج التشفير الفائق غير المحدود ، الذى اعتمده مركز الأبحاث منذ أسبوعين ، وأمكننى التقاطها .

أضافت (سلوى) فى حماس :

ـ وأنا أقوم بتحديدها الآن يا نور .

أومأ (نور) برأسه ، ثم التفت إلى (رمزى) ، متسائلاً :

ـ هل أمكنك تحليل شخصية الرجل يا (رمزى) ؟!

أشار (رمزى) بيده ، مجيبًا :

ـ الرجل عالم عبقرى ، واسـع المعرفة والاتصالات ، وشديد الثقة فى نفسه وعلمه ، إلى حد دفعـه لطـرح نظـرية جديـدة ، حول الاستنســاخ ، والنمو الفائق للخلايا ، بحيث يمكن استنساخ كائن ، بنفس حجمه وعمره ، ويحمل نفس ذاكرته ، خلال أسبوع واحد ، وهذا يتعارض مع كل النظريات العلميـة ، ومع علـم الخـلايا نفسه ، فالاستنسـاخ يعتمد علـى زرع خليـة بشرية ، فى بويضة أنثوية منزوعة الكروموسومـات ، بواسطــة الأشعـة فوق البنفسجية ؛ لتكوين جنين جديد ، ينمو نموًا طبيعيًا ، ويولد كرضيع ، ليصير مع الوقت نسخة طبق الأصل ، من صاحب الخلية الأصلية[1] .

هتف (أكرم) فى حنق :

ـ أهناك ضرورة لهذه المحاضرة العلمية ، مع كل إجابة ؟!!

تجاهل (رمزى) تعليقه تمامًا ، وهو يتابع :

ـ ولما كانت نظرية الدكتور (توفيق) تتعارض مع هذا ، ودون تقديم دليل واضح ، سوى حسابات علمية ، لم تثبت بعد ، فقد سخر منه العلمــاء فى مؤتمر الإسكندرية ، فأصابه انهيار عصبى ، وغادر المؤتمر غاضبًا ، واختفى طويلاً ، ثم عاد مصابًا بحالة البارانويا العميقة هذه ، حيث يشعـر بالغضب من المجتمـع كلـه ، والمقت على فئـة العلماء بالذات ، ويسعى للانتقام من الجميع ، على نحـو يثبت لهم عبقريته ، والأهـم أن يثبت لهم صحة نظريته ، التى سخروا منها .

قال (نور) ، مفكرًا فى عمق :

ـ هذا يعنى أننا نواجه عدوًا شديد الخطورة .

(١) النظرية العملية للاستنساخ حقيقة .

أجابه (رمزى) فى حسم :

ـ إلى أقصى درجة يمكنك تصـورها يا (نـور) ... الرجل ، فى حالته هذه ، يمكنه أن يسعى لتدمير الأرض كلها ، دون حتى أن يدرك فظاعة ما يفعله .

تساءل (أكرم) فى حيرة :

ـ ولكن ألن يموت مع الجميع ؟!

أجابه (رمزى) :

ـ هذا لن يعنيه ، ولست أظنه حتى وضعه فى الاعتبار .

هم (نور) بطرح سؤال آخر ، عندما هتفت (سلوى) :

ـ (نور) ... لقد حددت نقطة الاستقبال .

تألقت عينا (أكرم) ، وهو يرفع مسدسه ، هاتفًا :

ـ إذن فقد حانت ساعة العمل ....

وكان على حق .

★ ★ ★

٣ـ الفـــخ ...

« لماذا أنا هنا ؟!.. »

هتف بها المستنسخ فى حدة ، وهو يمسك قضبان القفص الفولاذى ، الذى استيقظ ليجد نفسه داخله ، فتطلع إليه الدكتـور (توفيق) بنظرة غير مبالية ، وهو يقول فى هدوء :

ـ هل تشعر أنك بخير ؟!

لم يجب المستنسخ سؤاله ، وإنما صاح فى غضب عصبى :

ـ لماذا تضعنى فى قفص ؟!... أنا نسخة منك ، فكيف تعامل نفسك على هذا النحو الفظ ؟!

تجاهله (توفيق) تمامًا ، وهو يسأله بنفس الهدوء :

ـ كل شىء يقول : إن خلاياك أكثر استقرارًا من سابقك ، ويمكنك أن تبقى لوقت أطول .

تراجع المستنسخ فى دهشة ، وهو يقول فى عصبية :

ـ لهذا تضعنى فى قفص كالحيوانات ؟!

هزَّ الدكتور (توفيق) رأسه فى هدوء ، وهو يقول :

ـ القفص من أجل الإجراء النهائى .

انقض المستنسخ على قضبان القفص مرة أخرى ، هاتفًا فى غضب :

ـ أى إجراء نهائى ؟!... هل نسيت أن لنا ذاكرة واحدة يا رجل ؟!... وتلك الذاكرة ، التى أحملها فى رأسى ، لا تحوى أية إجراءات نهائية ، بعد أن تستقر الخلايا .

ابتسم (توفيق) ابتسامة مخيفة ، وهو يقول :

ـ هذا لأن ذاكرتنا المشتركة تنتهى ، عند اللحظة التى اقتطعت فيها الخلايا من بشرتى ؛ لتولد أنت ، وبعدها صار لكل منا أو منكم ذاكرة منفصلة .

تراجع المستنسخ مرة أخرى ، وهو يسأل فى قلق شديد :

ـ ما الذى فعلته ، بعد أن بدأت إنتاجنا ؟!

هزَّ (توفيق) كتفيه ، مجيبًا :

ـ إجراء أمنى لا أكثر .

ثم أخرج من جيبه شيئًا أشبه بقلم عادى ، وهو يتابع :

ـ لقد سألت نفسى ، ماذا بعد أن تصيـر لكم ذاكـرة خاصـة ، وإرادة منفصلة ؟!... هل ستظلـون عندئذ مطيعين لى ، أم أنه هناك احتمال وارد لتمردكم ؟!

قال المستنسخ فى حذر :

ـ لن أخدعك بقول : إننا لن نفعل ؛ لأنك ستدرك على الفور أننى كاذب .

تألقت عينا الدكتور (توفيق) ، وهو يشير إليه بسبَّابته ، هاتفًا :

ـ بالضبط .

ثم خفض يده إلى جواره ، قبل أن يستطرد :

ـ ولهذا أضفت إليكم شيئًا بسيطًا ، يضمن ولاءكم وطاعتكم .

حمل صوت المستنسخ كل توتره ، وهو يقول :

ـ شىء مثل ماذا ؟!

رفع (توفيق) ذلك الشىء الشبيه بالقلم أمام وجهه ، وتألقت عيناه أكثر ، وهو يجيب :

ـ شىء مثل هذا .

قالها ، وضغط طرف القلم ، فاتسعت عينـا المستنسخ ، وراح جسده يرتجف فى قوة ، وهو يصرخ فى ألم :

ـ أيها الـ ...

قبل أن يتم عبارته ، انهار جسده دفعة واحـدة ، وسقط أرضًا ، وتحوَّل فى ثانية واحدة ، إلى مجرَّد بقعة ...

بقعة جيلاتينية وردية ...

واتسعت ابتسامـة (توفيق) الظافرة ، وهو يتجـه إلى جهـاز الكمبيوتـر العملاق ، ويضغط أزراره ، قائلاً :

ـ هذا المشهد سيتم زرعه فى ذاكرة كل المستنسخين ... سيدركون أنه لدى وسيلة للسيطرة عليهم ، ولكنهم لن يدركوا أبدًا ما هى

أطلق ضحكة جنونية ظافرة ، وهو يواصل عمله على أزرار الكمبيوتر ، قبل أن يضغط زرًا أخيرًا ، ويتراجع هاتفًا :

ـ الآن .

وعبر مئات من أسطوانات الاستنساخ ، تألق ضوء وردى لبضع ثوان ، قبل أن يتحوّل إلى اللون الأخضر ، معلنًا إتمام عملية الزرع ، فتراجع الدكتور (توفيق) فى مقعده ، وتألقت عيناه فى شدة ، وهو يقول :

ـ استعد أيها العالم ، فقبل عشرين ساعة فقط ، ستضطر للركوع أمام إمبراطورك الجديد .

أطلق ضحكته الجنونية مرة أخرى ، قبل أن يقطعها رنين جهاز إنذار خاص ، ويتبدّل المشهد على شاشة الكمبيوتر العملاق ...

وانعقد حاجبا (توفيق) فى شدة ، وهو يطالع الشاشة العملاقة ، قبل أن يهتف فى حماس :

ـ عظيم ... عظيم .

وعاد يطلق ضحكة عالية ...

ضحكة أكثر جنونًا ...

وشرًا ...



فى عصبية واضحة ، لوّح (أكرم) بمسدسه ، هاتفًا ، وهم يهبطون فى تلك البقعة النائية ، فى المنطقة الجبلية ، بالقرب من مدينة (السويس) :

ـ لست أفهم ... حقيقة لست أفهم !!

تبادلت (نشوى) ابتسامة ونظرة صامتة مع أمها ، فى حين سأله (نور) فى هدوء :

ـ ما الذى تعجز عن فهمه بالضبط يا (أكرم) ؟! .

أجابه (أكرم) بنفس العصبية :

ـ ما دمنا قد حددنا موقعه ، فلماذا نأتى إليه وحدنا ؟!... كان ينبغى أن تكون هنا الآن خمس فرق مسلحة ، تحاصر مقره من كل صوب ، و ...

ابتسم (رمزى) ، وهو يكمل :

ـ ويملأ دوى الرصاصات المنطقة ... أليس هذا ما يريح أعصابك يا (أكرم) ؟!...

التفت إليه (أكرم) فى حدة :

ـ ما يريح أعصابى ، هو أن تتوقف عن تحليل شخصيتى ، كلما تفوّهت بجملة مفيدة .

هزّ (رمزى) كتفيه ، قائلاً فى هدوء :

ـ ولكن هذا عملى .

هم (أكرم) بقول شيء آخر ، عندما قال (نور) فى حزم :

ـ لا نريدها مذبحة هنا يا (أكرم) ... ربما كان هذا هو مقر الدكتور (توفيق) ، الذى يدير منه حربه الانتقامية الخاصة ، ولكننا لا ندرى كيف يحميه ، ولا كم من مستنسخيه فى الجوار ، وكم يبلغ تسليحهم ، واستعداداتهم للقتل دون تردد .

تراجع (أكرم) ، مغمغمًا :

ـ هذا يمكننى فهمه .

ابتسم (رمزى) ، قائلاً :

ـ أعد مسدسك إلى غمده إذن .

انعقد حاجباه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ محال .

كانت (سلوى) و(نشوى) قد انتهيتا من إعداد أجهزتهما ، فقالت (سلوى) ، وهى تتابع الرسم الثلاثى الأبعاد على شاشة جهازها :

ـ يبدو أننا فى الموقع الصحيح يا (نور) ... هناك تجويف صناعى كبير أسفلنا .

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، جعلت (رمزى) يسأله فى قلق :

ـ أليس من المفترض أن تبتهج يا (نور) ؟!

غمغم (نور) ، وهو يتلفت حوله :

ـ بل أشعر بقلق شديد .

سأله فى حيرة :

ـ ولكن لماذا ؟!

تنهَّد (نور) ، وهو يقول متحاشيًا أن يصل صوته للآخرين :

ـ مع خطة عبقرية منمَّقة ، كتلك التى وضعها دكتور (توفيق) ، ومكَّنته من بلوغ أكثر المناطق سرية فى (مصر) ، وربما فى العالم أجمع ، يدهشنى أن يكون الوصول إلى وكره بهذه السهولة .

اعتدل (رمزى) ، وراح يتلفت حوله بدوره ، وهو يغمغم ، وقد انتقل إليه قلق (نور) :

ـ أتفق معك فى هذا ... وهو رأى مهنى ، وليس شخصيًا .

هتفت (نشوى) تقاطعهما :

ـ هناك شخص يقترب .

أسرع (نور) و(رمزى) إليها ، واعتدل (أكرم) فى تحفز ، فأشارت هى إلى شاشة الكمبيوتر ، قائلة :

ـ موجة الهواء تتقاطع معها موجة أخرى متحركة ، كما تريان هنا .

غمغم (أكرم) فى توتر :

ـ موجة هواء ؟!... أهذا كل ما هناك ؟!

أشارت (سلوى) إلى شاشة جهازها بدورها ، وهى تقول :

ـ المجسات الفائقة ، التى زرعتها فى الأرض هنا ، تلتقط صوت حركة حذرة ... هناك بالفعل شخص ... بل ثلاثة أشخاص يقتربون .

ثم استدارت إلى يسارها ، مضيفة فى توتر :

ـ من هذا الاتجاه .

مع إشارتها ، انطلق شعاع ليزر من حيث أشارت ؛ ليصيب جهـازها مباشرة ، وينسفه بدوى كبيـر ، أطاح بها مترين إلى الخلف ، فى نفس اللحظة التى سحب فيها (نور) مسدسه الليزرى ، وأطلقه نحو النقطة ، التى جاء منها شعاع الليزر ، فى حين دار (أكرم) على عقبيه ، فى سرعة مدهشة ، وأطلق رصاصات مسدسه ، نحو ما بدا له كجسم متحرك ...

وفى اللحظة نفسها ، انطلق شعاع ليزرى آخر ، من بين الصخور ، نسف جهاز (نشوى) ، التى صرخت ، وهى تسقط أرضًا :

ـ أبى ... إنهم يهاجموننا .

كان (نور) يحاول التصويب على المهاجمين ، إلا أن كل ما بدا له مجرَّد صخور ، ككل الصخور التى تحيط بهما ، وسمع (أكرم) يصرخ :

ـ من أين يأتى هذا ؟!

كان يدور حول نفسه كالمجنون ، ويطلق رصاصاته فى كل الاتجاهات ، حتى نفدت ذخيرة مسدسه ، وهو يهتف :

ـ من أين ؟!

لمح حركة بين الصخور ، فدار حول نفسه فى سرعة ، وضغط زناد مسدسه بحركة غريزية ، على الرغم من علمه بخلوه من الرصاصات ، فى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها شعاع من الليزر نحوه ، من بين الصخور ..

ومن حسن حظه أن دار حول نفسه بهذه السرعة ...

وفى اللحظة المناسبة ...

فاستدارته هذه جعلت شعاع الليـزر يتجاوزه ، بسنتيمتر واحـد ، وإن مس طرف أذنه ، فانطلقت منها الدماء تلوث كتف سترته ، وهو يلقى نفسه أرضًا ، هاتفًا :

ـ بين الصخور يا (نور) ... يختفون بين الصخور .

أجابه (نور) فى انفعال ، وهو يصوب مسدسه ، صائحًا :

ـ بل هم الصخور نفسها يا (أكرم) . . . ملابسهم تشبـه ما حولهم من صخور .

كان (أكرم) يفرغ ساقية مسدسه ، من أظرف الرصاصات ، ويعيد حشوها بأقصى سرعة ، قبل أن يقفز واقفًا على قدميه ، وهو يهتف :

ـ يرتدون ما يشبه الصخور ؟!... يا لهم من ثعالب !!

راح يطلق رصاصات مسدسه نحو الصخور ، ورأى بعضها يتحرك ، فصاح :

ـ ليس بعد أيها الأوغاد .

سمع صرخة ألم ، وشاهد بعض الصخور تبتعد ، وقد فرغت ساقية مسدسه مرة ثانية ، فوثب فوق الصخور ، هاتفًا :

ـ ليس بهذه السهولة .

وثب بكل قوته ، ليطير فى الهواء لحظات ، ويهبط فوق أحد المتنكرين ، فى ثياب شبيهة بالصخور المحيطة ، وهو يسمع (نور) يهتف :

ـ أحدهم فى قبضتى يا (أكرم) .

لكم (أكرم) المتنكر بكل قوته ، وهو يهتف :

ـ وأنا أيضًا .

انتزع (أكرم) الثوب المموّه عن أسيره ، وهو يدفعه أمامه ، قائلاً فى حدة :

ـ نسخة أخرى من الدكتور (توفيق) !! ... لا تتصوَّر أن الأمر سيدهشنى يا هذا ، فلقد توقعته منذ بدأت المواجهة .

التقى بـ (نور) مع أسيره ، وقالت (سلوى) فى توتر :

ـ مازال هناك ثالث ... جهازى رصد حركة ثلاثة أشخاص .

قال (أكرم) ، وهو يدفع أسيره أمامه :

ـ الثالث سيظل بين الصخور ... إلى الأبد .

التفت إليه (نور) بنظرة غاضبة ، فاستطرد فى توتر :

ـ أعلم أنك ترفض إراقة الدم يا (نور) ، ولكن الثالث لقى مصرعه بالرصاصات العشوائية ، قبل أن تدرك أنهم فى هيئة صخور .

كان ينتظر رد فعل من (نور) ، ولكن أحد شبيهى الدكتور (توفيق) أطلق ضحكة ساخرة عالية ، وقال :

ـ لن يصنع هذا فارقًا .

انعقد حاجبا (أكرم) فى توتر ، فى حين سأل (نور) الشبيه :

ـ متى سيذوب كيانك ؟!

هزَّ الشبيه رأسه ، قائلاً :

ـ عندما يقرر القائد .

دفع (أكرم) الشبيه الآخر أمامه ، وهو يقول فى حدة :

ـ تخاطرون بحياتكم من أجله إذن .

أجابه فى تحد :

ـ كلنا كيان واحد .

قال (نور) فى حزم :

ـ خطأ .

التفت إليه الشبيهان ، فتابع بنفس الحزم :

ـ ربما نشأتم جميعكم من كيان واحد ، ولكن لكل منكم كيان مستقل الآن ، ويمكنكم اتخاذ قرارتكم الحرة .

تبادل الشبيهان نظرة بائسة صامتة ، قبل أن يقول أحدهما :

ـ هذا ما تتصوَّره ... لقد تم إنتاجنا لهدف واحد ، وهو ...

قبل أن يتم عبارته ، اتسعت عيناه عن آخرهما ، وراح جسده ينتفض فى قوة ، فتراجع زميله ، هاتفًا ، وهو يتلفَّت حوله فى ذعر :

ـ أنا لم أقل شيئًا .

ولكنه ، وأمام عيون الكل ، راح يرتجف بدوره ، واحتقن وجهه فى شدة ، فهتف (أكرم) فى غيظ ، وهو يصوب إليهما مسدسه :

ـ يا إلهى !! ... سيفعلها مرة أخرى .

ومع نهاية عبارته ، ذاب الشبيهان دفعة واحـدة ، وكل منهم يطلق صرخـة قصيـرة ، تختلف عما بـدر عمـن سبقهم ، وهتفت (نشوى) فـى انفعال :

ـ يا للبشاعة !!

احتواها زوجها (رمزى) بين ذراعيه ، وكأنه يحميها من خطر وهمى ، وهو يقول فى اشمئزاز وامتعاض :

ـ إنه سيكوباتى أيضًا .

هتف (أكرم) ، وهو يواصل التلويح بمسدسه ، دون هدف واضح :

ـ ألا تملون هذه المصطلحات المعقَّدة أبدًا ؟!

وصرخت (سلوى) :

ـ (نور) ... الأرض تهتز تحت أقدامنا .

كان الكل يشعر بتلك الاهتزازات التى تزداد قوة تدريجيًا ، فهتف (رمزى) :

ـ هذه ليست منطقة زلازل .

صاح (نور) :

ـ هذا يعنى أنه ...

أكمل (أكرم) صائحًا :

ـ فخ .

مع آخر حروف كلمته ، انهارت الأرض تحت أقدامهم دفعة واحدة ، ووجدوا أنفسهم يسقطون فى حفرة عميقة ...

بلا قرار .

★ ★ ★

٤ ـ القبضـــــة ...

حمل صوت القائد الأعلى كل توتره ، وهو يقول لرئيس فريق البحث ، عبر جهاز اتصال خاص مؤمن :

ـ مستحيل !! ... لا يمكن أن يختفى (نور) وفريقه على هذا النحو ، دون أن يتركوا خلفهم أى أثر ... أين قراءات أجهزة التتبع ؟!... أين صور الأقمار الصناعية ؟!

أجابه رئيس فريق البحث فى توتر مكتوم :

ـ هناك موجة شوشرة قوية ، سبقت اختفاء الفريق يا سيادة القائـد ، أدّت إلى تعتيم كامل ، على إشـارات أجهـزة التتبـع ، وصـور الأقمـار الصناعية ، ولسنا نجد هنا سوى صخور ، وبقايا قليلة لأجهزة محطمة .

هتف القائد الأعلى :

ـ استخدموا كل الوسائل الممكنة ... استعينوا بأحدث مبتكرات مركز الأبحاث ... المهم أن تجدوا (نور) وفريقه ... بأى ثمن .

فى نفس اللحظة التى نطق فيها عبارته ، كانت (سلوى) تستعيد وعيها ، مع صداع شديد يكتنف رأسها ، وهى تغمغم فى صعوبة :

ـ أين نحن ؟!... ماذا حدث ؟!

أجابها صوت زوجها (نور) ، والذى بدا لها ، وكأنه يأتى من أعماق سحيقة :

ـ لست أدرى أين نحن يا (سلوى) ، ولكننا حتمًا لسنا فى نفس المكان ، الذى سقطنا فيه .

فتحت عينيهـا فى صعوبـة ، ورأت (نور) مستندًا إلى جـدار حجـرى رطب ، على قيد عدة خطوات منها ، و(أكرم) جالسًا على مقربة منـه ، معتمدًا بساعديه على ركبتيه ، وهو يدفن وجهه بينهما ، مغمغمًا فى مقت :

ـ ولقد سرقوا مسدسى .

نهضت فى صعوبة ، وألصقت ظهرها إلى الجدار ، وشعرت برطوبته ، فابتعدت عنه قليلاً ، وهى تسأل :

ـ و (نشوى) ... أين (نشوى) ؟!

أتاها صوت (رمزى) ، من ركن المكان ، وهو يغمغم :

ـ إنها بخير ... ستستعيد وعيها بعد قليل ، إن شاء الله .

استدارت إلى مصدر الصوت ، ورأت (رمزى) يحتوى ابنتها فاقدة الوعى بين ذراعيه ، وسمعت (نور) يقول :

ـ إننا أسفل مستوى مياه قناة السويس ، وهذا سر رطوبة الجدران .

قالت فى توتر :

ـ كنا بعيدين كثيرًا عن القناة ، عندما هوت بنا الأرض .

غمغم (نور) :

ـ كان كل شىء مدبرًا منذ البداية ... تعقبنا لنقطة الإرسال كان فخًا ، تم إعداده بعبقرية فائقة ، جذبنا به الدكتور (توفيق) إلى هنا ؛ لنصبح فى قبضته .

غمغمت فى صعوبة :

ـ ولكن لماذا ؟!... كان يمكنه أن يتم خطته ، بدون الإيقاع بنا .

قال (نور) فى تفكير :

ـ كان يحتاج حتمًا إلى وسيلة إلهاء للأمن ، الذى سينشغل حتمًا بالبحث عما حدث لنا .

تساءل (رمزى) ، وهو يواصل محاولة إفاقة (نشوى) :

ـ مازلت أتساءل : كيف وصلنا إلى هنا يا (نور) ؟!

أتاه الجواب مترددًا فى المكان ، عبر مكبر صوتى خفى :

ـ عبر أنبوب شفط هوائى فائق ، أشبه بذلك الذى كانت تستخدمه طائرات القرن العشرين النفاثة ، ولكنه أكثر قوة بعشر مرات .

تلفَّت الكل حولهم ، محاولين تحديد مصدر الصوت ، وغمغم (أكرم) فى عصبية ، وهو يتحسَّس الموضع الفارغ لمسدسه :

ـ إنه هو .

لم يكد ينطقها ، حتى انزاح أحد جدران المكان ، ليكشف عن قضبان فولاذية قوية ، يقف خلفها الدكتور (توفيق) ، عاقدًا كفيه خلف ظهره ،

وعلى شفتيه ابتسامة عجيبة ، اشتركت مع ملامحه ، لتصنع صورة لمزيج من العبقرية والجنون والشراسة ، وهو يقول :

ـ نعم ... هو أنا يا سيد (أكرم) .

قال (أكرم) فى مقت :

ـ إذن فأنت تعرفنى .

حملت ابتسامة الرجل لمحة ساخرة ، وهو يجيب :

ـ أعرف كل شىء ، عن كل واحد منكم أيها الهمجى المنفعل ، شديد العداء للتكنولوجيا ، على الرغم من وجودك ضمن أشهر فريق علمى فى العالم أجمع .

غمغمت (سلوى) :

ـ وأنت أكثر أهل الأرض شرًا ، وأكبر عارًا على فئة العلماء كلهم .

انعقد حاجباه بضع لحظات ، قبل أن يقول فى غضب صارم :

ـ العلماء الذين تتحدثين عنهم ، سخروا من نظرية عجزوا عن فهمها .

قال (نور) فى حزم :

ـ نظرية تخالف كل القواعد العلمية المعروفة .

تألقت عينا الرجل فى جنون ، وهو يقول :

ـ بالضبط ، ولهذا عجزوا عن فهمها ... إنها نظرية تضع قواعد علمية جديدة للمستقبل .

قالت (نشوى) فى صرامة :

ـ كل مجنون يتصوَّر أنه قادر على تغيير العالم ، بلمسة من أصابعه .

بدت ابتسامته وحشية مجنونة ، وهو يقول :

ـ ولكن نظرية المجنون صنعت هذا .

ضغط زر جهاز فى يده ، فأضيئت خلفه قاعة واسعة ، تمتد منها ممرات طويلة ، وتتراص على جوانب القاعة والممرات مئات الأسطوانات الزجاجية السميكة الشفافة ، وداخل كل منها سائل وردى باهت ، تسبح فيه نسخة مستنسخة كاملة النمو ، من الدكتور (توفيق) ، الذى أطلق ضحكة ظافرة جنونية ، قائلاً :

ـ جيش من رجل واحد ... جيش من كيان واحد ... بعد ساعتين فحسب ، سينهض جيشى من سباته ، وسينطلق ليغزو العالم ... سيستخدمون أحدث الأسلحة السرية ، التى تم ابتكارها ، بوساطة عقول علماء مركز الأبحاث ، وكل المعلومات السرية للغاية ، التى اختزنتها ذاكرة المخابرات العلمية .

قالت (نشوى) :

ـ ولكنك لن تحصل على ذاكرة مقرنا .

هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ ما حصلت عليه يكفينى .

ثم عادت عيناه تتألقان ، وهو يستطرد :

ـ ويكفى أننى انتصرت على أعظم فريق علمى فى العالم .

قال (نور) فى صرامة :

ـ لم تصل المباراة إلى نهايتها بعد .

أطلق (توفيق) ضحكة ساخرة ، ولوَّح بيده ، قائلاً :

ـ وعندما تصل إلى نهايتها ، ستكونون مازلتم هنا ، داخل قفص كبير فى قبضتى ... وسأحرص على أن تشهدوا النهاية بأنفسكم ، قبل أن أسحقكم سحقًا .

ثم ضغط زرًا آخر ، مع إضافته :

ـ وحتى ذلك الحين ، استمتعوا بإقامتكم معًا .

عاد ذلك الجزء من الجدار يُغلق ، فران على أفراد الفريق صمت مهيب ، استغرق نصف دقيقة ، قبل أن يقول (نور) :

ـ إنك لم تنطق بحرف واحد يا (رمزى) .

قالها ، دون أن يلتفت إلى (رمزى) ، الذى غمغم :

ـ كنت أدرس الرجل يا (نور) .

هتف (أكرم) :

ـ إنه مجنون .

وافقه (رمزى) بإيماءة من رأسه ، قبل أن يقول :

ـ هذا يبدو واضحًا ، ولكننى كنت أدرس عنه ما يمكن الاستفادة منـه ، فى موقفنا هذا .

كانت (نشوى) قد استعادت وعيها ، منذ لحظات مضت ، فاعتـدلت جالسة ، وهى تمسك رأسها ، قائلة :

ـ لقد حطَّم كل أجهزتنا .

قال (أكرم) فى مقت :

ـ وسرق مسدسى .

أضاف (نور) :

ـ ومسدسى أيضًا ... إنه يجرد الفريق العلمى من كل أسلحته .

غمغم (أكرم) فى ضيق متوتر :

ـ صرنا أسرى ، وعزل من السلاح أيضًا .

قال (نور) فى حزم :

ـ فيما عدا سلاح واحد .

تساءلت (سلوى) :

ـ وما هو ؟!

أجاب بكل الحزم :

ـ (رمزى) .

وعاد الصمت يلفهم مرة أخرى ...

وبمنتهى العمق ...

★ ★ ★

لم يكد جهاز الاتصال الفائق ، على مكتب القائد الأعلى ، يصـدر ذلك الأزيز المميَّز ، حتى أسرع القائد يضغط زر الاتصال ، سائلاً رئيس فريـق البحث فى لهفة :

ـ ما الجديد لديك ؟!

أجابه رئيس فريق البحث ، عبر جهاز الاتصال :

ـ لقد عثرنا على فجوة كبيرة ، أسفل المنطقة التى اختفـى فيها المقـدم (نور) وفريقه ، وهى تحوى البقايا المهشَّمة لأجهزة الفريق ، ولسنا ندرى كيف تم إغلاقها عقب اختفاء الفريق والأجهزة فيها .

غمغم القائد الأعلى :

ـ مانع الجاذبية البريتونى .

تساءل رئيس فريق البحث فى دهشة :

ـ ماذا يا سيادة القائد ؟!

أجابه القائد فى صرامة :



ـ لا عليك يا رجل . . . من الواضح أن الدكتـور (توفيق) قـد استفـاد كثيرًا ، من كل ما حصل عليه ... المهم الآن ، هل عثرتم على أحد من أفراد الفريق ، أو ...

تردَّد لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ أو بقاياهم .

أجابه رئيس الفريق على الفور :

ـ لا توجد أية بقايا بشرية أو عضوية هنا يا سيدى .

شعر القائد الأعلى بارتياح نسبى ، وهو يسأله :

ـ أين ذهبوا إذن ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ تلك الفجوة أشبه بشبكة عنكبوت ، تمتد منها عدة أنفاق ، تبلـغ قرابـة العشرين ، وكلها مسدودة بانهيـارات صخرية ، وطبقًا لأجهزة التـرددات الفائقة ، يذهب كل نفق منها فى اتجاه مختلف .

غمغم القائد الأعلى :

ـ الرجل شديد الحرص والذكاء ، على الرغم من جنونه !!

ثم استعاد صرامته ، وهو يردف :

ـ عليكم فحص كل تلك الأنفاق .

أجابه الرجل ، فى لهجة لا تحمل الكثير من الحماس :

ـ إننا نفعل الآن يا سيدى ، ولكن حتى مع الاستعانة بأحدث ما لدينا ، سيحتاج هذا منا إلى ست ساعات على الأقل .

قال القائد الأعلى فى صرامة :

ـ اعملوا بسرعة أكبر إذن .

قالها ، دون أن يدرى أنهم ، حتى وإن اختصروا الزمن إلى النصف ، فلن يكون هذا مجديًا ..

فالدكتور (توفيق) سيطلق جيشه ، المسلح بما لا طاقة للعالم به ، فى غضون أقل من ساعتين ...

على أكثر تقدير ...

★ ★ ★

« لن نقف عاجزين ، ونسمح له بتدمير العالم يا رفاق ... »

قالها (نور) فى حزم ، فقلبت (سلوى) كفيها ، وهى تقول :

ـ لقد جرَّدنا من كل أدوات قوتنا يا (نور) .

أشار إلى رأسه ، قائلاً :

ـ أهم أدوات قوتنا هنا ، داخل عقولنا ، أما ما دمَّره هو ، فمجرد أدوات معاونة .

قال (أكرم) مستنكرًا :

ـ هل تقترح أن نهزمه بعقولنا فقط يا (نور) ؟!

أجابه (نور) فى حزم :

ـ وأن نسحقه سحقًا أيضًا .

سألته (نشوى) فى شغف :

ـ ماذا تقترح يا أبى ؟!

التفت (نور) إلى (رمزى) ، متسائلاً :

ـ ما الذى توصلت إليه يا (رمزى) ؟!

أجابه (رمزى) فى اهتمام :

ـ الرجل تسيطر عليه فكرة الانتقام والتشفى إلى حد سيطر على كل مشاعره وكيانه ، ونحن بالنسبة إليه لسنا مجرد فريق علمى شهير ، ولكننا الشهود على عبقريته وقسوة انتقامه .

تساءلت (سلوى) :

ـ هل سيرينا ما سيفعله ؟!

أجابها فى ثقة :

ـ على الفور ... وخطوة بخطوة ... إننا العينة التى يزهو أمامها بعبقريته ، ويثق فى أن عقولنا العلمية يمكنها استيعابها .

غمغم (نور) مفكرًا :

ـ هو يحتاج إلى وجودنا إذن !!

أجابه (رمزى) مشيرًا بيده :

ـ حتى يتم انتقامه ، ويعلن لنا هذا .

استغرق (نور) فى التفكير بضع لحظات ، ثم هم بقول شىء ما ، عندما عاد ذلك الجزء من الجدار ينزاح ثانية ، كاشفًا تلك القضبان الفولاذية ، التى يقف خلفها الدكتور (توفيق) ، الذى بدا أشبه بزعماء النازية[1] ، وهو يلوّح بذراعيه فى جنون ، هاتفًا :

ـ جيشى بلغ مرحلة الاستقرار الخلوى الكامل ، وبات مستعدًا للقتال ... والروبوتات العبقرية العملاقة نفذت كل رسوم الأسلحة الحديثة ، التى حصلت على تصميماتها ، من مركز الأبحاث العلمية ... جيشى صار مستعدًا لغزو العالم .

وعلى الشاشة العملاقة خلفه ، شاهد أفراد الفريق جيش المستنسخين ، وهو يتراص فى صفوف منتظمة ، فى حين تقوم الروبوتات العملاقة بتوزيع الأسلحة المتطورة الحديثة عليهم ، والدكتور (توفيق) يطلق ضحكة جنونية عالية ، هاتفًا على نحو مخيف :

ـ الآن أيها العالم ... الآن ستتعلمون أن من يضحك أخيرًا ، هو من يضحك كثيرًا ، وكثيرًا جدًا .

وعاد يطلق ضحكاته الجنونية المخيفة ، دون أن ينبس أحد من أفراد الفريق بحرف ...

حرف واحد .

★ ★ ★

(١) النازية : حركة سياسية ، تأسست فى ألمانيا ، عقب الحرب العالمية الأولى ، حيث تمكّن أعضاء الحزب القومى الاشتراكى العمالى الألمانى ، تحت زعامة (أدولف هتلر) ، من الهيمنة على السلطة فى ألمانيا ، عام ١٩٣٣م ، وأنشأ ما يسمى بالرايخ الثالث ، الذى أشعل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) والتى انتهت بهزيمة ألمانيا ، وسقوط النازية .

٥ ـ الهجـــــوم ...

انهمك رئيس فريق البحث بكل مشاعره ، فى متابعة آلات الحفر ، التى تعمل على إزالة كتل الصخور ، من مداخل الأنفاق ، عندما ارتفع أزيز جهاز اتصاله الخاص فجأة ، فدفع إلى جسده رجفة سريعة ، قبل أن يضغط زره هاتفًا :

ـ أوامرك يا سيادة القائد .

سأله القائد الأعلى فى اهتمام مشوب بالتوتر ، عبر جهاز الاتصال :

ـ هل توصلتم إلى شىء ؟!

شعر الرجل بالتوتر ، وهو يجيب :

ـ ليس بعد يا سيادة القائد ، ولكن آلات الحفر تعمل بكامل طاقتها ، و ...

قاطعه هدير قوى ، ينبعث من أعماق أحد الأنفاق ، فتوقف لحظة ، قبل أن يقول فى توتر شديد :

ـ سيدى ... هناك ...

لم يستطع إكمال عبارته ، فهتف به القائد الأعلى فى صرامة :

ـ هناك ماذا يا رجل ؟!

ارتج عليه لحظات ، وهو يتابع ذلك الهدير ، الذى يتصاعد فى كل ثانية ، ثم لم يلبث أن غمغم فى توتر :

ـ هدير .

لم يستوعب القائد الأعلى المضمون فى البداية ، فكرَّر فى حيرة متوترة :

ـ هدير ؟!... هدير ماذا ؟!

انفرجت شفتا رئيس فريق البحث ، وهو يهم بقول شىء ما ، عندما تفجَّرت الصخور أمام الأنفاق دفعة واحدة ، وتطايرت فى وجوه الجميع ، على نحو بالغ العنف ، حتى أنه أزاح آلات الحفر عن طريقها ، فصرخ الرجل فى ارتياع :

ـ إنه هجوم .

مع نهاية عبارته ، اندفع جيش المستنسخين عبر الأنفاق ، وهم يطلقون أسلحتهم الحديثة ، المتطورة ؛ ليطيحوا بالكل بلا رحمة ...

وانتقل دوى الانفجارات والطلقات عبر جهاز الاتصال ، إلى القائد الأعلى ، الذى هتف بكل توتره وانفعاله :

ـ من أو ماذا يهاجمكم يا رجل ؟!... أجب .

ولكن اتصاله برئيس فريق البحث انقطع ... تمامًا ...

★ ★ ★



« يا لها من مهزلة !! ... »

قالها (أكرم) فى حنق ، فالتفتت (نشوى) إليه مستنكرة ، وهتفت :

ـ مهزلة ؟!... أتصف تلك المجزرة ، التى نراها أمامنا بالمهزلة ؟!

لوّح بيده فى حنق ، وهو يتابع المشاهد البشعة ، على الشاشة العملاقة ، وقال فى حدة عصبية :

ـ المهزلة فى كيفية حدوث هذا ... مستنسخون ، وروبوتات عملاقة تمنحهم الأسلحة ، وزى مقاوم لليزر والقنابل ... ألا يبدو لكم هذا أشبه بألعاب الكمبيوتر الرقمية القديمة ، التى كان رفاقى يضيعون أوقاتهم معها ؟!.

غمغم (رمزى) :

ـ ألم تمارسها قط ؟!

هتف فى صرامة :

ـ مطلقًا .

قال (نور) فى حزم :

ـ من المرعب أحيانًا أن يتحوّل الخيال إلى حقيقة ... وما نراه أمامنا هنا ، يفوق أكثر لحظات رعب عشناها فى حياتنا .

قالت (سلوى) فى مرارة :

ـ ونحن سجناء ، نتابع البشاعة من خلف القضبان .

قال (نور) ، وهو يفكر فى عمق :

ـ لا ينبغى أن نستسلم لهذا فى سهولة .

هزّ (رمزى) كتفيه ، قائلاً :

ـ وماذا يمكننا أن نفعل ؟!

أجابه (نور) فى صرامة :

ـ نقاتل .

هتف (أكرم) فى عصبية :

ـ بماذا يا (نور) ؟!... لقد جردونا من كل أسلحتنا وأجهزتنا ... حتى ساعة الاتصال ، نزعوها عن معصمك ، فبم سنقاتل ؟!

شد قامته ، وهو يجيب :

ـ العقل والإرادة ، أقوى أسلحة البشر .

غمغمت (نشوى) :

ـ أبى ... لا تنس أننا نواجه عقلاً عبقريًا رهيبًا :

ـ أجاب فى حزم أكبر :

ـ وسنثبت أننا أذكى وأبرع منه .

هتف (أكرم) فى حماس :

ـ لديك خطة بالتأكيد .

رفع (نور) إبهامه ، وهو يشير إليه مؤيدًا ، ثم أشار إليهم أن يقتربوا منه ، وهو يهمس لهم :

ـ استمعوا إلىَّ جيدًا ...

واستمعوا إليه فى اهتمام ...

وكان ما يقوله شديد الخطورة ...

إلى أقصى حد ...

★ ★ ★

لم يعرف أحد أبدًا ، كيف تحرَّك مستنسخو الدكتور (توفيق) على هـذا النحو !!! ...

ولا كيف انتشروا بالعشرات ، فى كل مدن (مصر) ، بأسلحتهم الحديثة جدًا ، بهذه السرعة المدهشة !! ..

ولكنهم فعلوها ...

وأمام الأسلحة المتطورة ، لم تصمد قوات الشرطة طويلاً ، على الرغـم من قتالها المستميت ؛ دفاعًا عن المدنيين ...

أما المستنسخون ، فكان من الواضح أن الدكتور (توفيق) لم يورثهم ذاكرته وغضبه فحسب ...

ولكن جنون انتقامه الوحشى أيضًا ...

كانوا كلهم يحملون وجهه ، وصفاته الوراثية ...

وجنونه ...

« الأمر بالغ الخطورة يا سيادة الرئيس ... »

قالها القائد الأعلى ، بكل ما يحمله فى أعماقه من توتر ، فى اتصاله مع رئيس الجمهورية ، الذى لم يكن أقل منه توترًا ، وهو يقول :

ـ الحل الوحيد ، فى موقف كهذا ، هو إنزال الجيش إلى المدن ، وهذا لم يحدث منذ الاحتلال .

قال القائد الأعلى :

ـ وإن لم يحدث الآن ، فمتى يا سيادة الرئيس .

غمغم الرئيس :

ـ سيتحوَّل الأمر إلى حرب شوارع ، وأولئك المستنسخون لديهم أسلحة ، لم يتم تعميمها على الجيش بعد .

أجابه القائد الأعلى فى سرعة :

ـ ولكن تم تسليمها لوحدات القوات الخاصة ، وقوات مكافحة الإرهاب ، منذ أسبوعين يا سيادة الرئيس .

قال الرئيس ، فى توتر متصاعد :

ـ ولم يكتمل برنامج تدريبهم عليها بعد .

هزَّ القائد الأعلى رأسه فى قوة ، هاتفًا :

ـ ليس لدينا بديل آخر ، يا سيادة الرئيس ... إما أن تصدر قـرارك بنزول الجيش ووحدات القوات الخاصة ، أو ...

وصمت لحظة ، محاولاً ترطيب حلقه الجاف ، قبل أن يكمل :

ـ أو سيحمل علم (مصر) صـورة الدكتـور (توفيـق) ، قبل أن تغيب الشمس .

وكان على حق ...

فى كل حرف نطقه ...

دون أدنى شك ...

★ ★ ★

« عرض ممتاز ، ولكن باستطاعتنا اختلاق ما هو أكثـر واقعيـة ، فى مختبراتنا ... »

قال (نور) العبارة فى هدوء ، يحمل لمحة من السخرية ، وهو يقف عند قضبان الزنزانة ، فالتفت إليه الدكتور (توفيق) فى حدة ، هاتفًا :

ـ ماذا تعنى يا هذا ؟!

أشار (نور) إلى الشاشة ، وهو يقول فى استهتار :

ـ عرض الجرافيك هذا ... أعترف أنه يبدو واقعيًا للغاية ، لولا بعض الأخطاء ، التى لا يمكن حدوثها فى مختبراتنا .

صاح به (توفيق) فى غضب :

ـ ما تراه أمامك على هذه الشاشة ، ليس خداعًا رقميًا ، إنه حقيقة ... جيشى الخاص بدأ فى غزو (مصر) بالفعل ، وما هذه إلا بدايـة ، وفى غضون أسبوع واحد ، سأتربَّع بجدارة على عرش العالم .

أطلق (نور) ضحكة ساخرة ، وهو يقول :

ـ كم من المجانين حلموا بهذا ، فى تاريخ العالم .

صرخ فيه الرجل فى جنون :

ـ سأقطع لسانك ، لو وصفتنى مرة أخرى بالجنون .

ثم التقط سلاحًا ، اندفع به نحو الزنزانة ، هاتفًا :

ـ هذا السلاح يمكنه سحقكم جميعًا ، فى لحظة واحدة .

لم يبد الخوف على (نور) ، وهـو يتراجـع فى هـدوء نحو رفاقـه ، و(رمزى) يقول :

ـ عيبك يا دكتـور (توفيق) ، أنك تتصوَّر أنك أكثر ذكاءً وعبقرية من الآخرين .

أجابه فى عصبية :

ـ أنا كذلك بالفعل .



تبادل الجميع نظرة ساخرة ، قبل أن تقول (سلوى) :

ـ المضحك أنك تصوَّرت أنك قد أوقعت بنا .

قال فى عصبية :

ـ وماذا تسمون وضعكم الحالى ؟!

أجابته (نشوى) فى هدوء :

ـ وضع مؤقت ، كنا نعلمه ، منذ تم استنساخنا .

تراجع خطوة عصبية ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ استنساخكم ؟!

أطلق (نور) ضحكة قصيرة ساخرة ، قبل أن يقول :

ـ وهل تصوَّرت أنك وحدك تملك هذه التكنولوجيا ؟!

أدار (توفيق) بصره فيهم فى عصبية تموج بالشك ، قبل أن يهتف فجأة :

ـ أين خامسكم ؟!... ذلك الذى يصر على حمل مسدس قديم !!

هزَّ (رمزى) كتفيه فى لا مبالاة ، وهو يجيب :

ـ الجهد الذى يبذله ، جلب إليه النهاية مبكرًا .

اتسعت عينا (توفيق) فى عصبية جنونية ، وراح يدير بصره فى الزنزانة ، قبل أن يتوقف عند بقعة وردية على الأرض ، جعلت جسده كله ينتفض ، وهو يصرخ :

ـ مستحيل !

أطلق الأربعة ضحكة ساخرة ، وهم يتبادلون نظرة أكثر سخرية ، فصاح بهم الدكتور (توفيق) فى جنون ، وهو يصوب إليهم سلاحه :

ـ تراجعوا جميعًا إلى الجدار ، أو سأسحقكم بهذا .

تراجعوا فى هدوء ، حتى التصقت ظهورهم بالجدار ، وضغط هو زرًّا ، انزاحت معه قضبان الزنزانة ، فدخل إليها فى حذر ، وعيناه لا تفارقان تلك البقعة الوردية ، و ...

« مفاجأة !!! ... » ...

دون سابق إنذار ، هبط (أكرم) من سقف الزنزانة ، وهو ينطق الكلمة ؛ ليركل الدكتور (توفيق) بقدميه فى وجهه ، بكل ما يملك من قوة ، فدفعت الركلة الرجل مترين إلى الخلف ، ليسقط على ظهره فى عنف شديد ...

وفى هذه اللحظة انقض أفراد الفريق كلهم ، واندفعوا خارج الزنزانة ، وجذب (نور) الدكتور (توفيق) ؛ ليجبره على النهوض ، وهو يقول :

ـ من تراه أكثر عبقرية الآن يا رجل ؟!

حدَّق فيه الرجل فى ذهول ، قبل أن يقول :

ـ ولكن كيف ؟!

أجابه (رمزى) ، من خلف (نور) :

ـ حالتك النفسية كانت أقوى أسلحتنا يا دكتور .

غمغم (أكرم) معترضًا :

ـ وماذا عن تعلقى بالسقف ، مستندًا إلى الجدران ؟!... ذراعىَ وقدمىَ ما زالتا تشعران بالخدر ، من جراء هذا !

قال (نور) :

ـ مشكلتك أنك تريد أن تثبت أنك الأكثر ذكاءً وعبقرية ، وهذا ما صنع نقطة ضعفك ، فما أن أوهمناك بأننا الأقوى ، عبـر بقعة من المـاء ، أضفت إليها قطرات من دمى ، حتى اشتعل جنونك ، وسعيت للتيقن من هذا .

قالت (سلوى) ، وهى تفحص أجهزة المعمل فى اهتمام :

ـ وفتحت باب الزنزانة .

أضافت (نشوى) ، وهى تجلس أمام جهاز الكمبيوتر الرئيسى :

ـ وكان هذا كل ما نحتاج إليه .

أدار الرجل عينيه فيهم لحظات ، ظهر خلالها الجنون بأبشع صورة على وجهه ، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة ساخـرة ، وهو يقول ، بعينين متألقتين :

ـ إذن فلستم تملكون ما أملكه ... أنا ما زلت الأكثر عبقرية .

راحت أصابع (نشوى) تتعامل مع لوحة الأزرار فـى سـرعة ، وهـى تقول :

ـ سرعان ما سيصبح فى حوزتنا .

أطلق الرجل ضحكة جنونية عالية ، وتألّقت عيناه على نحو مخيف ، وهو يهتف :

ـ أتتصوَّرون أنكم ربحتم ؟!... هل جال بخاطر أحدكم ، أننى لم أستعد لهذا الاحتمال ؟!

كان (نور) يقبض على معصميه فى قوة ، وهو يقول :

ـ وماذا يمكنك أن تفعله الآن ؟!

ضمَّ (توفيق) قبضته فى قوة ، وهو يقول فى نقمة :

ـ الكثير .

ومع ضمه لقبضته ، راحت تلك الأسطوانات الزجاجيـة ، التى كانت تحوى مستنسخيه ، تتفجَّر واحدة بعد أخرى بدوى هائل ، امتزج بضحكات الدكتور (توفيق) الجنونية ، وصرخات (نشوى) و(سلوى) ، وهتاف (أكرم) :

ـ ياله من جنون !!

صرخ الدكتور (توفيق) ، وعيناه تجحظان ، من فرط جنونه :

ـ لن ينعم أحد بخلاصة عمرى ... لن يعلموا أبدًا كيف فعلت هذا ؟!

لوى (نور) معصمه فى قوة ، وهو يسأله بكل صرامة :

ـ ماذا فعلت بما حصلت عليه من معلومات ؟!

صرخ الرجل :

ـ لن تعلم ... لن تعلم أبدًا .

وعاد يطلق ضحكته الجنونية ، وهو يضم قبضته اليسرى فى قوة ...

واشتعل جهاز الكمبيوتر الرئيسى أمام (نشوى) ، التى وثبت مبتعدة عنه ، وهى تهتف ملتاعة :

ـ كيف فعلها ؟!

قهقه الرجل فى جنون ، هاتفًا :

ـ بالعبقرية التى تسخرون منها ... لقد زرعت أجهزة التحكم فى راحتى يدىَّ ... لم أكن مضطرًا لحملها ، ولن تخضع لأى تفتيش .

صاح فيه (أكرم) :

ـ لو أن مسدسى معى الآن ، لأفرغت رصاصاته فى رأسك .

قهقه الرجل مرة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ دعنى أوفر عليك هذا .

مع نهاية عبارته ، سمع الكل دويًا مكتومًا للغايـة ، وجحظت عينـا الدكتور (توفيق) ، وسالت الدماء بشـدة من أنفه وفمـه ، قبل أن يهـوى بين ذراعى (نور) جثة هامدة ...

وفى نفس اللحظة ، كانت الشاشة الكبيرة تنقل صور جيش مستنسخيه ، وهو ينتشر بكل الوحشية والعنف ، فى كل بقاع (مصر) ...

بلا استثناء .

★ ★ ★

٦ ـ ختـــــام ...

انتشرت وحدات القوات الخاصة ، حول القصر الجمهورى ، فى محـاولة لحماية مؤسسة الرياسة ، من ذلك الغزو العجيب ، الذى لم تستطع وحـدات الجيش نفسها صده ، وبدا الموقف شديـد التوتـر داخل القصر ، والقائـد الأعلى مع وزير الدفاع ، يجتمعان برئيس الجمهورية ، والأوَّل يقول :

ـ لا بد لك من الرحيل بأقصى سرعة يا سيادة الرئيس .

قال الرئيس فى صرامة :

ـ عندما توليت مسئولية منصبى ، أقسمت على حماية هـذا الشعب ، وليس على النجاة بنفسى ، عندما يتعرَّض للخطر .

قال وزير الدفاع فى حزم :

ـ ولكنك لا تسعى للنجاة بشخصك يا سيادة الرئيس ، ولكن بكل النظام الدستورى للبلاد ... ذلك الجيش العجيب يمتلك قوة ، لا قبل لنا بهـا ، وإن عاجلاً أو آجلاً ، سيقتحمون هذا المكان ، وإن أسقطوا مؤسسة الرياسة ، فسيعنى هذا أن (مصر) صارت فى قبضتهم .

اندفع فجأة أحد رجال الوحدات الخاصة إلى المكان ، هاتفًا فى انفعال :

ـ معذرة يا سيادة الرئيس ، ولكنهم وصلوا إلى هنا .

مع كلماته بلغ مسامعهم دوى وصخب القتال الدائر فى الخارج ، فهتف القائد الأعلى :

ـ أرجوك يا سيادة الرئيس .

ونهض وزير الدفاع إلى الرئيس ، قائلاً بكل انفعاله :

ـ حوامتك الخاصة على السطح ، و ...

دوى انفجار عنيف فى هذه اللحظة ، ارتجت له جدران القصر الجمهورى ، فاتسعت عينا وزير الدفاع ، وهو يقول فى يأس :

ـ سبق السيف العذل .

مع كلماته ، تناهت إلى أسماعهم أصوات جيش المستنسخين ، وهم يقتحمون القصر الجمهورى ...

آخر راية ترتفع فى (مصر) ...

★ ★ ★

« ماذا سنفعل يا (نور) ؟!... »

هتفت بها (سلوى) فى يأس ، بعد تدمير جهاز الكمبيوتر الرئيسى ، وأضافت (نشوى) فى ضيق :

ـ ذلك المجنون أصر على تجريدنا من كل أسلحتنا .

أجابها (نور) فى حزم :

ـ هزمناه بدونها .

غمغم (أكرم) متوترًا :

ـ كان مجرَّد رجل واحد .

وأضاف (رمزى) :

ـ وكنا نعتمد عليه فى خطتنا .

أدار (نور) عينيه فى المكان ، وهو يقول :

ـ رجل مثل جيش ... لا فارق .

ثم أشار إلى نقطة أكثر تألقًا فى الجدار ، قائلاً :

ـ ماذا يبدو لكم هذا ؟!

أدار الكل عيونهم ، إلى حيث يشير ، قبل أن تهتف (نشوى) فى حماس :

ـ آلة تصوير .

تساءل (نور) :

ـ هل تعتقدون أنه سجَّل كل ما يحدث هنا ؟!

أجابه (رمزى) فى حماس :

ـ هذا أكيد ... مثله لابد وأن يفعل هذا .

استدار (نور) إلى (نشوى) و (سلوى) ، قائلاً :

ـ هذا يعنى أنه مازال هناك أمل .

التفتت (نشوى) إلى (أكرم) ، قائلة :



ـ هل يمكنك التقاط هذه ؟!

أجابها وهو يثب فوق أقرب جهاز إليه :

ـ بالتأكيد .

كان يمتلك مرونة مدهشة ، جعلته يثب من سطح جهاز إلى آخـر ، ثم يتعلق بجزء بارز من الجدار ، ويدور بجسده ليلتقط الكاميرا الدقيقة ، ويقذفها إلى (نشوى) ، التى تلقفتها ، والتفتت بها إلى (سلوى) :

ـ هل يمكنك تحديد ماهية هذه يا أمى ؟!

فحصت (سلوى) الكاميرا فى سرعة ، وقالت :

ـ إنها كاميرا مراقبة محدودة المجال ... وإشارتها تنتقل إلى جهـاز تسجيل رقمى ، فى دائرة نصف قطرها ثلاثة أمتار فحسب .

انتشر الكل فى المكان فى سرعة ، وراحوا يفحصون كل جهاز فيـه ، قبل أن تهتف (نشوى) :

ـ وجدته .

أسرعت إليهـا (سلوى) ، وراحت تتعامل مع الجهاز فى سرعة ، قبل أن تضغط زرًا نهائيًا ، فتبدأ الشاشة الصغيرة فى عرض ما سجلته الكاميرا ...

وفى سرعة تقدمية ، راح الكل يتابع المشاهد ، حتى توقفت (سلوى) عند ذلك المشهد ، الذى يتحدَّث فيه (توفيق) مع نسخته المسجونة داخل الزنزانة ...

وبكل الاهتمـام ، استمع الكل إلى ما دار من حـديث ، بين الدكتـور (توفيق) ونسخته ، حتى تلك اللحظة ، التى ضغط فيها الدكتور (توفيق) زر جهازه ، فذابت نسخته على الفور ، وهنا هتف (أكرم) :

ـ إذن فهو يمتلك وسيلة .

ثم اندفع نحو جثة الدكتور (توفيق) ، يفحص ثيابها فى سرعة ، قبل أن ترتفع يده بذلك الجهاز الصغير الشبيه بالقلم ، وهو يهتف فى حماس :

ـ ها هو ذا .

التقطته (سلوى) من يده فى سرعة ، وراحت تفحصه مع (نشوى) ، قبل أن يغمغم (رمزى) :

ـ إنه جهاز محدود المدى .

هتفت (نشوى) فى دهشة :

ـ كيف عرفت ؟!

أجابها فى يأس :

ـ سيستخدمه للدفاع عن نفسـه فحسب ، إذا ما حـاول مستنسخـوه الانقلاب عليه ، ولهذا فيتحتَّم أن يكون محدود المدى .

التفت (نور) إلى (سلوى) ، متسائلاً :

ـ هل يمكن جعل مداه أوسع انتشارًا ؟!

دارت بعينيها فيما حولها ، قبل أن تتوقف عند الشاشة الكبيرة ، قائلة فى حماس :

ـ بالتأكيد ... لو أوصلناه بنفس الجهـاز ، الذى يتابـع حركـة جيش المستنسخين ، فى كل أنحاء (مصر) .

قال (أكرم) فى انفعال :

ـ ولكن الشاشة للاستقبال وليس البث .

أجابته ، وهى توصل الجهاز بالشاشة :

ـ وأنا خبيرة اتصالات ، ولست زوجة وأمًا فحسب .

وبدأت تعمل فى سرعة ، والكل يتابعها فى اهتمام ...

وأمل ...

★ ★ ★

راح دوى القتال يقترب فى سرعـة ، من مكتب رئيس الجمهـورية ، الذى شدَّ قامته فى اعتداد ، وهو يقول لوزير الدفاع ، الذى يشهر مسدسه هو والقائد الأعلى ؛ للدفاع عن الرئيس :

ـ أعطنى سلاحًا .

سأله القائد الأعلى :

ـ هل ستقاتل يا سيادة الرئيس ؟!

أجابه الرئيس فى صرامة :

ـ أنسيت أننى مقاتل سابق يا رجل .

ناوله وزير الدفاع مسدسًا ، وهو يقول فى حزم :

ـ لن يظفروا بنا أحياء يا سيادة الرئيس .

صوَّب الرئيس مسدسه ، وهو يقول فى حزم :

ـ لن يظفروا بـ (مصر) .. أبدًا ...

اقترب القتال ...

واقترب ...

واقترب ...

ثم اقتحم المستنسخون حجرة مكتب الرئيس ، الذى أطلق النار مع القائد الأعلى ووزير الدفاع ...

وسقط عدد من المستنسخين ...

ولكن بقى عدد أكبر ، صوَّبوا أسلحتهم المتطورة نحو الرئيس والقائد الأعلى ، ووزير الدفاع ، فهتف الرئيس بكل قوته :

ـ تحيا (مصر) .

كان يتوقع أن تكون هذه آخر كلماته ، ولكن فجأة ، حـدث أمـر بالـغ العجب ...

ذاب المستنسخون كلهم دفعة واحدة ، وسقطت أسلحتهم أرضًا ...

ليس فى مكتب رئيس الجمهورية وحده ، ولكن فى (مصر) كلها ...

وبكل الدهشة ، هتف الرئيس :

ـ ولكن كيف ؟!

ران الصمت لحظة ، قبل أن يجيب القائد الأعلى :

ـ ربما يبدو هذا عجيبًا يا سيادة الرئيس ، ولكن ما حدث يحمل بصمة الفريق ...

فريق (نور) .

والتقط الرئيس نفسًا عميقًا ...

للغاية ... »

★ ★ ★

.. « أخيرًا !! »

هتف (أكرم) بالكلمة فى فرح حماسى ، وهو يلتقط مسدسه ، الذى ناوله إياه (نور) ، قائلاً بابتسامة :

ـ عثروا عليه مع مسدسى ، فى مخبأ سرى ، فى وكر الدكتور (توفيق) .

دس (أكرم) المسدس فى جيبه ، وهو يقول :

ـ كنت أشعر أننى عار بدونه .

تساءلت (نشوى) فى اهتمام :

ـ هل أمكنهم إنقاذ شىء من أبحاث دكتور (توفيق) ؟!

هزَّ (نور) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ ولم يعرفوا حتى ماذا فعل ، بما حصل عليه من معلومات ، ولكنهم أدخلوا العديد من التحسينات ، على نظم الأمن ، ووسائل حفظ المعلومات ؛ حتى لا يتكرَّر هذا مرة أخرى .

سأله (رمزى) :

ـ وماذا عن الفريق ؟!

أجاب (نور) مبتسمًا :

ـ بعد ما فعلناه ، لم يعد هناك من يجرؤ على المطالبة بإلغاء المخابرات العلمية .

غمغمت (سلوى) :

ـ كان أكثر القرارات حماقة .

لوَّح (أكرم) بيده ، قائلاً :

ـ المهم أن كل شىء قد انتهى فى النهاية .

قالت (نشوى) فى أسى :

ـ ولكن الكثير من الأرواح أزهقت ، وأنهار من الدماء سالت .

تنهَّد (نور) ، مغمغمًا فى حزن :

ـ هذه سمة الحروب للأسف .

مع آخر كلماته ، ارتفع أزيز جهاز الاتصال ، فى ساعة (نور) ،

فضغط زرها فى سرعة ؛ ليسمع صوت الدكتور (حجازى) ، وهو يقول :

ـ مازالت لدينا مشكلة كبيرة يا (نور) .

بدا القلق على وجوه الجميع ، و(نور) يتساءل فى حذر :

ـ أية مشكلة يا دكتور (حجازى) ؟!

أجابه الرجل فى توتر :

ـ جثة الدكتور (توفيق) .

غمغم (نور) ، فى حذر أكبر :

ـ ماذا عنها ؟!

أجابه الدكتور (حجازى) ، وقد بلغ توتره مبلغه :

ـ ذابت تمامًا ، ولم تترك مكانها سوى بقعة وردية اللون .

اتسعت عيون الجميع عن آخرها ، وتبادلوا نظرة مفعمة بالذهول والقلق ...

فقد كان هذا يعنى أن الخطر لم ينته بعد ...

وربما لا ينتهى ...

أبدًا .

★ ★ ★

تمت بحمد الله

روايات مصـرية

5

الستـار الأســـــود

(سلسلة داخل سلسلة)



فى عالمنـا نحيا ونموت ... نــرى ويـرانا الآخـرون ... نسمعهـم ويسمعوننا ... نكلمهم ويكلموننا ...

وكل هذا فى عالمنا ... وحده . . .

ولكن هناك حولنا عالم آخر ....

يرانا ولا نراه ... يسمعنا ولا نسمعه .... يكلمنا ولا نكلمه ...

عالم مظلم رهيب مخيف ...

عالم يختفى هناك ...

خلف الستار الأسود .

د . نبيل فاروق

١ ـ عيد ميلاد سعيد . . .

ما أجمل الليل !... هادئ وساكن ، وخال من الزحـام والضوضـاء ، وبخاصة فى تلك البقعة شبه الخالية ، فى طريق الإسماعيلية ، على مسافة كيلومترات قليلة ، من مدينة العاشر من رمضان ...

هناك كنت أنطلق ، على دراجتــى البخاريـة القوية ، التى يشـق ضجيـج محركها الصغير ، مع ضوضاء أنبوب العادم ، ذلك السكون البديع لليل ...

وعند تلك المنطقـة التجارية ، توقفت ، وجلت بنظـرى فيمـا حولـى فى إمعان ...

كل شىء كان هادئًا ، ساكنًا ، على خلاف ما يكون عليه فى الصباح ...

إلا ذلك المتجر الصغير ، على بعد أمتار من آخر المحال ...

كان من المدهش أن يكون مفتـوحًا ، تنبعث منه الأضـواء ، فى هــذه الساعة ، حيث اقتربنا من الثانية صباحًا ...

أوقفت دراجتى البخارية ، وتحسست تلك المدية الحادة فى جيب سروالى الخلفى ؛ لأطمئن إلى وجودها ، ثم اتجهت إلى ذلك المتجر ...

فالليل هو ملعبى ..

ومصدر دخلى الرئيسى ...



فى الليل ، يمكنك أن تربح الكثير ...

تستوقف شابًا ، وتجبره على أن يعطيك هاتفه المحمول ...

أو تقتحم صيدلية ليلية ، وتسرق ما بها من مواد مخدرة ...

أو تفاجئ حبيبين فى سيارة ، فتأخذها منهم عنوة ، وتتركهما فى العراء ...

الليل كله أرباح ...

بالنسبة لمثلى على الأقل ...

وصاحب ذلك المتجر الصغير ، سيكون مصدر دخلى الليلة ...

وهذا خطؤه ...

ما كان ينبغى له أن يظل فى متجره الصغير ، فى ساعة متأخرة كهذه ...

هذا خطؤه بالتأكيد ...

وعندما وصلت إلى ذلك المتجر ، تضاعفت دهشتى ، عندما فوجئت بأنه متجر لبيع ألعاب الأطفال !!

أى متجر ألعاب هذا ، الذى يظل مفتوحًا ، فى منطقة أغلقت كل أبوابها ، وفى مثل هذه الساعة ؟!...

بل أى أحمق ، يبقى هنا ، بعد أن انصرف الجميع ؟!...

أى أحمق ؟!...

دفعت باب المتجر الزجاجى ، وأنا أتحسس مديتى مرة أخرى ، ووقفت فى المتجر ، أتلفت حولى فى توتر ...

لم يكن هناك أحد ...

فقط ألعاب من البلاستيك والفراء ، تملأ كل الأرفف ...

ولا أحد ...

تنحنحت على نحو عصبى ، وأنا أقول :

ـ هل من أحد هنا ؟!

إثر سؤالى ، فتح أحدهم بابًا جانبيًا ، لم أكن لأنتبه إلى وجوده أبدًا ؛ لتشابهه المتقن مع الجدار من حوله ، فتراجعت بحركة عصبية حادة ، وتطلعت فى دهشة إلى شيخ طاعن فى السن ، بدا شاحبًا على نحو عجيب ، على الرغم من ابتسامته الهادئة الطيبة ، وهو يقول :

ـ أنا هنا يا بنى .

مرأى ذلك الشيخ ، الذى ينقل قدميه فى صعوبة ، جعل فكرة الرحيل تراودنى لحظة ، إلا أننى لم ألبث أن طرحتها جانبًا ، وأنا أقول فى خشونة :

ـ أريد هدية عيد ميلاد لابن شقيقتى .

رمقنى الشيخ بنظرة طويلة ، خلت معها أنه سيستنكر قدومى فى هذه الساعة ، لشراء هدية عيد ميلاد ، إلا أنه لم يلبث أن قال فى هدوء :

ـ لقد جئت فى الوقت المناسب .

أدهشتنى بشدة عبارته ، التى لا تتناسب فعليًا مع الوقت ، ولكنه أضاف ، وهو يشير بابتسامة باهتة ، إلى كومة لعب ، غير متراصة بعناية :

ـ لقد كنت أجرى جـردًا ، لمجموعة ألعاب ، سنقدمها بتخفيض كبير ، فى حفل الافتتاح غدًا .

أدركت عندئذ لماذا بقى الرجل فى متجره ، حتى هذه الساعة المتأخرة ، فغمغمت فى شىء من الخشونة ، التى لم أتعمدها :

ـ هذا من حسن حظى .

عاد الشيخ يبتسم ، ابتسامة أشد شحوبًا من وجهه ، وهو يغمغم :

ـ إنه قدرك .

كان حديثه عن حفل الافتتاح فى الغد ، قد أصابنى ببعض الإحباط ؛ نظرًا لأن هذا سيعنى خلو خزينته من النقود ..

ثم إنه ما من لص يحترم نفسه ، يمكن أن يسرق كومـة من الألعـاب والدمى الفرائية السخيفة ...

كنت أفكر فى هذا ، عندما سألنى الشيخ الشاحب فى اهتمام :

ـ أيهما تفضل .

قالها ، وهو يشير إلى الألعاب ، التى لم أبال بها إطلاقًا ، وأنا أقول :

ـ الواقع أننى كنت أفكر فى هدية أفضل .

رمقنى الشيخ بنظرة طويلة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ قلت لك : إنه قدرك .

ثم أشار إلى الباب ، الذى خرج منه ، وهو يضيف :

ـ عندى فى أسفل مجموعة جديدة ، لم أنته من تصنيفها بعد ، وبها لعبة إليكترونية رخيصة الثمن ، ستروق لابن شقيقتك بالتأكيد .

أدرت ظهرى له ، وأنا أقول فى ضجر :

ـ ربما فى مناسبة أخرى .

كنت أهم بمغادرة المكان ، عندما سمعته يقول ، بنفس الهدوء الشاحب :

ـ فليكن ... سأعود إلى جرد الخزانة .

توقفت مع سماع كلمة (الخزانة) ، والتفت إليه ، قائلاً :

ـ ولكن من يدرى ... ربما أعجبتنى تلك اللعبة الإليكترونية ... تقول إنها رخيصة الثمن ... أليس كذلك ؟!

اتجه نحو ذلك الباب ، وهو يقول فى شحوب :

ـ انتظر ... سأحضرها لك .

كان من الواضح أنه سيهبط إلى حيث خزانة النقود ، فقلت فى سرعة ، أخشى أنها قد شفت عن لهفتى :

ـ لا ترهق نفسك ... سأهبط معك ؛ لأراها بنفسى

التفت إلى الشيخ مبتسمًا ، وغمغم :

ـ ربما كان هذا أفضل .

كنت أشعر أن أذنى تبذلان جهدًا حقيقيًا لسماعه ؛ إذ كان يفتح شفتيه بالكاد ، مع صوته الضعيف ، فأسرعت إليه ، قائلاً :

ـ نعم ... هذا أفضل بالتأكيد .

تقدمنى الرجل نحو الباب ، الذى يقود إلى سلم خشبى ضيـق ، هبطت فيه معه إلى قبو خافت الإضاءة ، تفوح منه رائحة عطنـة ، توحـى بأن يد النظافة لم تمتد إليه منذ زمن ...

وعلى الضوء الخافت ، شاهدت الخزانة ...

خزانة معدنية كبيرة ، يسيل لها لعاب أى لص محتـرف ؛ ربما لأنهـا لا تستخدم إلا لحفظ كميات النقود الكبيرة ، و ...

وفجأة ، انتبهت إلى ذلك الصبى ...

كان صبيًا شاحبًا نحيلاً ، يجلس صامتًا على مقعد قديم ، فى ركن القبو ، ويبدو بائسًا إلى حد كبير ، وإن بدا الاهتمام فى عينيه الواسعتين ، وهو يتطلع إلى بلا خوف ، والشيخ يشير إليه ، قائلاً :

ـ إنـه حفيـدى ... تصادف أن عيد مولده اليوم ، فأتيت بـه مـن أجـل هديته ..

غمغمت ، دون أن أرفع عينى عن الصبى :

ـ أهو مريض ؟!... إنه شاحب بشدة .

كان وجود الصبى يضايقنى بالفعل ، إذ إن الاستيـلاء على النقـود فى الخزانة ، سيضطرنى للتخلص منه مع جده ..

وهذه أهم نقطة فى مهنتى ...

لا تترك خلفك شهودًا ...

أبدًا ...

كاد جزء من ضميرى يستيقظ ، مع رؤية ذلك الصبى الشاحب النحيل ، ولكننى أسرعت أخمده ، بنظرة أخرى على الخزانة الكبيرة ، والشيخ يقول :

ـ إنه فقط لم يتناول طعامه منذ فترة ؛ فهو هنا منذ زمن طويل .

غمغمت بكلمات لا أذكرها ، والشيـخ يستطرد ، مشيرًا إلى كومة أخرى من الألعاب ، على مقربة من الصبى :

ـ اللعبة هنا ، ولكنها ستحتاج إلى بعض البحث .

تحسست مديتى فى تحفز ، وأنا أقول فى خشونة :

ـ فيما بعد .

التفت إلى الشيخ بنظرة خاوية ، فانتزعت مديتى ، وشهرتها فى وجهه ، وأنا أقول :

ـ ما يشغلنى الآن ، هو محتويات تلك الخزانة

كنت أتوقع صراخًا أو ذعرًا ، ولكن الشيخ بدا هادئًا إلى حد عجيب ، فى حين ظل الصبى ساكنًا فى مقعده ، فكررت فى حدة :

ـ افتح الخزانة .

أطاعنى الشيخ فى استسلام عجيب لم أتوقعه ، وهو يقول :

ـ لا بأس ، ولكنك لن تجد بها ما تتوقعه .

زمجرت ، قائلاً :

ـ سأكتفى بما أجده .

استدار الشيخ فى هدوء مستفز ، وأنا ألوح بمديتى ، وفتح الخزانة ، وهو يقول :

ـ ها هى ذى .

حدقت فى محتويات الخزانة بمنتهى الدهشة والتوتر ، وأنا أهتف بلا وعى :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

وكان هذا آخر ما نطقت به ...

فمع آخر العبارة ، تلقيت ضربة قوية ، على مؤخرة رأسى ، و ...

فقدت الوعى ...

لست أدرى كم بقيت فاقدًا الوعى ، فى ذلك القبو خافت الإضاءة ، ولكننى عندما استيقظت ، كنت مكمم الفم فى إحكام ، ويداى وقدماى مشدودة إلى قضيب معدنى قوى ، بأغلال فولاذية ، جعلتنى معلقًا أفقيًا فى الهواء ...

وكان ذلك الشيخ الشاحب يقف مع حفيده الأكثر شحوبًا ، على قيد خطوات منى ، وهو يبتسم تلك الابتسامة الهادئة ، قائلاً :

لم أفهم ما يقوله ، وحاولت قول أى شىء ، ولكن تلك الكمامة القوية أخرستنى تمامًا . . . وبعينين مذعورتين ، شاهدت الشيخ يخرج مجموعة من السكاكين الطويلة ، والسواطير الضخمة من الخزانة المعدنية الكبيرة ، ويربت على رأس حفيده فى حنان ، قائلاً :

ـ سيكون الطعام جاهزًا بعد قليل .

وفى هدوء ، انحنى يشعل النار فى موقد كبير أسفلى ، وشعرت باللهب يحرق جسدى ، وأنا عاجز عن الصراخ ، فى حين بدأ الشيخ يدير ذلك العمود المعدنى القوى ، وهو يربت مرة أخرى على رأس حفيده ، وقد ابتسم كلاهما ، وظهرت أنيابهما الحادة الطويلة ، الشبيهة بأنياب الذئاب ، والشيخ يقول بكل الحنان لحفيده :

ـ عيد ميلاد سعيد .

وكان هذا آخر ما سمعته ...

على الإطلاق .

★ ★ ★

٢ـ أعلى ... أم أسفل...

« لست أنصحك بالسكنى فى طوابق مرتفعة ... »

قالها (صبحى) ، سمسار العقارات للمهندسة (ناهد) ، فى توتر واضح ، وهو يشير إلى المبنى ، الذى يحوى ثلاث شقق خالية ، فى واحد من أرقى أحياء المدينة ، فالتفتت إليه فى دهشة ، قائلة :

ـ ولكنك أخبرتنى أن البناية لها مصعد كبير .. أليس كذلك ؟!

تردد لحظة ، قبل أن يقول ، فى لهجة عجيبة :

ـ المصاعد تتعطل أحيانًا .

تطلعت إليه بنفس الدهشة لحظات ، ثم لم تلبث أن ابتسمت ، وهى تقول :

ـ البناية تبدو لى حديثة العهد ، على الرغم من عراقة المنطقة ، فلماذا يتعطل مصعدها كثيرًا ..

تردد لحظة أخرى ، على نحو غير مفهوم ، مما جعلها تتابع ، فى شىء من السخرية :

ـ أم أنك تخشى المصاعد على نحو عام ؟!

بدا (صبحى) مرتبكًا بعض الشىء ، ثم لم يلبث أن قال فى توتر :

ـ ربما هذا المصعد بالتحديد .

مالت نحوه ، تسأله فى اهتمام :

ـ ولأى سبب ؟!

شاهدت فى عينيه لمحة خوف عجيبة ، أثارت حيرتها ، وجعلتها تعتدل ، قائلة فى توتر ، انتقل منه إليها :

ـ هل ستحصل من مالك الشقة السفلى ، على سمسرة أكبر ؟!

تواصلت لمحة الخوف فى عينيه ، ممتزجة بتردده وقلقه ، ثم لم يلبث أن أشاح بوجهه ، وهو يقول ، فى شىء من العصبية :

ـ ليست هذه هى الفكرة .

بدت الصرامة فى ملامحها وصوتها ، وهى تقول :

ـ فى هذه الحالة ، سأختار الشقة فى الطابق الخامس ؛ فهى أكثر أناقة ، وأقل إيجارًا ... ثم إننى لن أستأجرها إلا لشهر واحد ؛ حتى أنهى عملى فى مدينتكم .

تردد (صبحى) لحظة أخرى ، ثم لم يلبث أن زفر فى توتر ، قائلاً :

ـ هذا شأنك .

ناولها مفتاح الشقة بأصابع مرتجفة ، بدت لها ملحوظة للغاية ، إلا أنها ، بطبيعتها الصارمة ، تجاهلت هذا ، ووقعت العقد ، واستلمت مفتاح الشقة المفروشة فى الطابق الخامس ، و(صبحى) يغمغم مكررًا ، فى صوت حمل ارتجافة أصابعه :

ـ تذكرى أن هذا شأنك .

كانت تشعر بالإرهاق ، بعد يوم شاق من البحث عن شقة جيدة الأثاث ، فى مكان راق ، يمكنها أن تقيم فيها خلال ذلك الشهر ، الذى يستلزمه إتمام عملها فى تلك المدينة الساحلية الجميلة ، لذا فهى لم تبال بموقفه ، وقررت الصعود إلى الشقة على الفور ؛ لتنال قسطًا من الراحة ، قبل أن تخرج للتجول فى المدينة ، التى لم يغب سحرها عنها ، منذ كانت تقضى الصيف فيها مع أسرتها ، فى طفولتها وشبابها ...

وبكل هدوء ، استقلت المصعد الكبير ، وصعدت إلى حيث شقتها ، دون أن يحدث ما يسىء ... كانت الشقة صغيرة نسبيًا ، ولكنها جيدة الأثاث على نحو ملحوظ ، وبها شرفة جانبية ، تطل على البحر ، توقفت فيها طويلاً ، تستنشق عبير هواء البحر ، المشبع باليود ، فى استمتاع شديد ، قبل أن تغتسل ، وتغرق فى نوم عميق ...

عندما استيقظت ، كانت الشمس قد غربت بالفعل ، وبدت الشقة غارقة فى الظلام ، إلا من أضواء خافتة ، تنقلها إليها اللافتة المضيئة ، لذلك الفندق القديم ، المجاور للبناية ، فجلست فى الشرفة قليلاً ، تتابع حركة السيارات على الكورنيش ، ثم ارتدت ثيابها ؛ لتخرج للاستمتاع بالمدينة فى الليل ...

كان الطابق الذى تقيم فيه يحوى شقتين ، والأخرى تبدو مظلمة ، وكأنما لا يسكنها أحد ، ولقد أشعرها هذا بشىء من الارتياح ؛ لأن أحدًا لن يزعجها حتمًا ، طوال فترة إقامتها ، التى قد لا تستغرق الشهر بأكمله ...

وفى هدوء ، وصل المصعد إلى طابقها ، ولكنه لم يكن مضيئًا ، شأن المصاعد الحديثة ، بل كان يحوى مصباحًا واحدًا خافتًا ، يمكنك أن تميز ما

حولك معه فى صعوبة ، إلا أنها دلفت إليه ، وضغطت زر الطابق السفلى ، ووقفت تنتظر ..

ثم فجأة ، انتبهت إلى ذلك الواقف فى الركن ...

لم تكن قد تبينته ، عند دخولها المصعد ، مع الضوء شديد الخفوت ، فانتفض جسدها لحظة ، خجلت بعدها من شهقة الدهشة المذعورة ، التى انطلقت منها عفويًا ، فحاولت أن تبتسم ، وهى تقول :

- معذرة ... لم أنتبه إليك فى البداية .

على الضوء شديد الخفوت ، والذى يختفى عند عبور المصعد ، لتلك المسافة بين الطوابق ، رأت فيه رجلاً متوسط الطول ، له شعر أشيب قصير ، يضم يديه أمام جسده ، ويخفض وجهه كله ، وكأنه يتأمل أرضية المصعد . . .

ولقد اكتفى ذلك الرجل برفع يده اليمنى قليلاً ، وكأنه يعلن قبول اعتذارها ، ثم عاد إلى وقفته ، فى صمت عجيب ...

ولأنها وجدت أن هذا ليس من حسن الخلق ، فقد اعتدلت فى وقفتها ، وأبعدت نظرها عنه ، فى انتظار هبوط المصعد إلى الطابق الأرضى ...

وظل المصعد يهبط ...

ويهبط ..

ويهبط ...

وشعرت (ناهد) بمزيج من الدهشة والخوف ...

إنها تقيم فى الطابق الخامس ، والمفترض أن يعبر المصعد خمسة طوابق ، قبل أن يصل إلى الطابق الأرضى ، ولكنها أحصت سبعة طوابق حتى الآن ، و ...

وفجأة ، توقف المصعد ...

وكلمة (فجأة) هنا لم تكن مبالغة ، فقد توقف بالفعل على نحو مباغت ، اختل معه توازنها أو كاد ، حتى أنها ألصقت يديها ببابه ، حتى لا تقع أرضًا ، وغمغمت فى سخط :

ـ هذا المصعد اللعين ، يحتاج بالفعل إلى إصلاح .

بدت لها العبارة فجأة ، فى وجود ذلك الراكب الآخر ، فالتفتت إليه نصف التفاتة ، قائلة :

ـ معذرة .

مرة أخرى ، اكتفى الرجل برفع يده اليمنى قليلاً ، دون أن يجيب ، فى نفس الوقت الذى انفتح فيه باب المصعد ، فغادرته مغمغمة :

ـ تفضل .

ولكن الرجل اكتفى مرة أخرى برفع يده اليمنى ، دون أن يرفع وجهه إليها ، ولم يغادر مكانه ، فهزت كتفيها ، متصورة أنه لم يكن يرغب فى الهبوط ، ولكنها استدعت المصعد قبل أن يغادره ، مما اضطره للصعود

إلى طابقها ، ثم لم تسأله هى عن الطابق الذى ينشده ، قبل أن تضغط زر الطابق الأرضى ...

الفكرة جعلتها تغادر المبنى ، وتلقى نظرة عليه من الخارج ؛ لتتأكد أنه من خمسة طوابق ، قبل أن تغمغم :

ـ ربما أخطأت العد ...

ألقت كل هذا خلف ظهرها ، وهى تستقل سيارتها إلى منتصف المدينة ، حيث التقت بصديقة قديمة ، تقيم فى تلك المدينة الساحلية ، وقضيا معًا سهرة لطيفة ، قبل أن تغادرها قرب منتصف الليل ، عائدة إلى حيث تقيم ..

وعند مدخل البناية ، فوجئت بالسمسار (صبحى) يقف ، متطلعًا إلى المصعد فى قلق أثار ضحكتها ، وجعلها تسأله ، وهى تدلف إلى حيث المصعد :

ـ هل سجنت داخل المصعد فى طفولتك أم ماذا ؟!

انتفض (صبحى) لمرآها ، والتفت إليها بعينين مذعورتين ، كما لو أنه قد رأى شبحًا ، وما أن تبين هويتها ، حتى سألها ، فى خليط من اللهفة والقلق :

ـ أأنت بخير ؟!

أجابته فى دهشة :

ـ بالتأكيد ... ولماذا لا أكون ؟!

نقل بصره بينها وبين المصعد ، قبل أن يسألها فى خوف :

ـ هل تنوين استقلال المصعد ، فى هذه الساعة ؟!

أحنقها قوله ، فضغطت زر المصعد ، وهى تقول فى صرامة :

ـ إنك لا تتوقع منى أن أصعد على قدمى إلى الطابق الخامس .

غمغم فى عصبية :

ـ ربما كان هذا أفضل ، فى مثل هذا التوقيت .

التفتت إليه فى غضب ، قائلة فى حدة :

ـ اسمع يا رجل ... احتفظ بعقدك هذه لنفسك ، واتركنى أنا لشأنى ... إننى أبغض التدخل فى شئونى على هذا النحو .

تردد (صبحى) لحظات ، ثم قال فى استسلام :

ـ فليكن ... هذا شأنك .

تابعته ببصرها ، حتى ابتعد عن المكان ، واختفى فى شارع مجاور ، وقالت فى حنق :

ـ يا له من لجوج !

كان المصعد قد وصل بالفعل ، فدلفت إليه ، وامتدت سبابتها إلى زر الطابق الخامس ، عندما انتفض جسدها فى قوة ، وأطلقت شهقة قوية ، قبل أن تقول فى عصبية ، وهى تتطلع إلى نفس الرجل ، الذى بدا وكأنه لم يغادر مكانه أو وقفته ، منذ غادرت البناية :

ـ معذرة ، ولكن موقفك هذا يثير التوتر بالفعل .

ولأول مرة ، تحدث ذلك الرجل ...

كان صوته خافتًا ، ممتلئًا بالحزن والأسى ، وهو يقول :

ـ كان ينبغى أن يضعوا لافتة ، تشير إلى أن المصعد معطل .

لم تفهم (ناهد) ما يعنيه هذا ، فغمغمت ، وهى تحاول التكيف مع ذلك الضوء الخافت ؛ لترى وجه الرجل :

ـ ماذا تعنى ؟!... إنه يعمل منذ الصباح ، ولقد هبط هذه المرة فى هدوء !

لم يبد أن الرجل قد سمعها ، وهو يواصل :

ـ كان ينبغى على الأقل ، أن يصلحوا الباب ، حتى لا ينفتح فى غياب المصعد .

مالت نحوه ، محاولة رؤية ملامحه ، وهى تغمغم :

ـ من تعنى بالضبط ؟!

واصل حديثه ، قائلاً فى غضب :

ـ وينبغى أن يدفعوا الثمن ...

ثم رفع وجهه إليها دفعة واحدة ، قائلاً فى غضب شرس :

ـ كلهم :

وتراجعت (ناهد) فى رعب ، وهى تطلق صرخة قوية ...

فوجه الرجل كان مشوهًا فى شدة ، وتغمره الدماء على نحو مخيف ...

وفى نفس اللحظة ، التى رفع فيها وجهه إليها ، بدأ المصعد يهبط فى سرعة ، على الرغم من وجوده فى الطابق الأرضى ...

وصرخت (ناهد) ثانية ، وبقوة أكبر ، عندما اختفى الرجل دفعة واحدة ...

وصرخت ...

وصرخت ...

وضغطت كل أزرار المصعد ، إلا أنه واصل هبوطه بسرعة مخيفة ، ضاعت معها صرخاتها ... تمامًا ...

وبعد أسبوع واحد ، وبينما الشمس تغمر البناية الحديثة نسبيًا ، فى ذلك الحى العريق ، سأل السمسار (علوى) ، زميله (صبحى) ، الذى يجلس على مقعد خشبى صغير ، متطلعًا إلى البناية :

ـ ألم تظهر بعد ؟!

غمغم (صبحى) :

ـ لن تظهر .

ثم أشار إلى سيارة (ناهد) ، التى علتها بعض الأتربة ، والتى لم تغادر مكانها ، منذ تلك الليلة ، متابعًا :

ـ إن عاجلاً أو آجلاً ، سيأتى أحدهم للبحث عنها .

سأله (علوى) ، شأن من اعتاد الأمر :

ـ وهل ستبلغ الشرطة ؟!

صمت (صبحى) لحظات ، ثم هز رأسه نفيًا ، وغمغم :

ـ سيتهموننى بالجنون ، لو فعلتها مرة أخرى .

سأل (علوى) فى اهتمام :

ـ ماذا ستفعل إذن ؟!

هز (صبحى) كتفيه ، وقال :

ـ كالمعتاد ... سأنتظر حتى نهاية العقد ، ثم أعرض الشقة مرة أخرى للإيجار .

بدا (علوى) قلقًا ، وهو يقول :

ـ وهل ستخبر سكانها الجدد بما ينتظرهم ؟!

صمت (صبحى) لحظات أخرى ، ثم عاد يهز كتفيه ، مجيبًا فى صوت خافت :

ـ هذا شأنهم .

وعاد يتطلع إلى البناية ...

فى صمت .



* * *

٣ـ نـــــــداء...

بدأت تلك الليلة هادئة ، كمعظم ليالى الصيف ، فى الريف المصرى ، وعلى الرغم من الصخب المحـدود ، فـى ذلك الركن الصغير ، الشبيه بالمقهى ، عند أطراف القرية ، بسبب متابعة البعض لمباراة كرة قدم هامة ، بين فريقين أجنبيين ، ومن كركرة الشيشة المعتادة ، وأصوات أكواب الشاى الساخن ، وهى توضع وترتفع عن الموائد الخشبية شبه المتهالكة ، ساد باقى القرية هدوء جميل ، بعد أن شارفت الساعة منتصف الليل ، وأوى معظم أهل القرية إلى فراشهم ؛ استعدادًا ليوم العمل التالى ...

وفى ضجر واضح ، غمغم (فتحى) ، موظف مكتب الإصلاح الزراعى الجديد فى القرية ، مشيرًا إلى زميله (ممدوح) :

ـ أهذه هى وسيلة الترفيه الوحيدة هنا ؟!..

ابتسم (ممدوح) ، قائلاً :

ـ إنها كذلك ، ولكن سرعان ما تعتاد الأمر ، فالقوم هنا أبسط بكثير من سكان المدن ، على الرغم من أن الجيل الجديد منهم لم يعد يعمل فى الزراعة كالسابق .

قلب (فتحى) شفتيه ، قائلاً :

ـ هذه كارثة ، أن ينفصل سكان الريف عن ريفهم ، فمازلت أذكر كيف كانت جدتى تحقق اكتفاءً ذاتيًا فى قريتنا ، ولا تحتاج تقريبًا لشراء

مستلزماتها الأساسية من المدينة ... انظر إلى ما يحدث الآن ... إنهم يبتاعون الجبن والبيض والخبز من المدينة ، بعد أن كانوا هم من ينتجون هذه الأشياء .

هز (ممدوح) كتفيه ، قائلاً فى بساطة :

ـ الزمن يتطور يا رجل .

غمغم (فتحى) فى سخط :

ـ إلى الأسوأ .

استدار إليه (ممدوح) ، قائلاً :

ـ كل شىء فى الوجود له سلبياته وإيجابياته ... على الأقل ارتفعت نسبة التعليم بينهم .

قال (فتحى) فى سخط مستنكر :

ـ وهل تسمى هذا تعليمًا ؟!... إنهم مازالوا يعيشون فى خرافات الماضى ؟ ، ويرددون نفس الروايات السخيفة ، التى كانت ترويها لنا جدتى فى طفولتنا ... أتصدق أنهم مازالوا يروون قصة (النداهة) ، فى العقد الثانى من القرن الحادى والعشرين ؟!..

بدا التردد والتوتر واضحين ، على ملامح (ممدوح) ، وهو يغمغم فى صوت ، حمل الانفعالين نفسيهما :

ـ ليست كلها خرافات .

التفت إليه (ممدوح) ، بنظرة تجمع بين الاستنكار والازدراء ، وهو يقول :

ـ لا تقل لى : إنك تؤمن بخرافة (النداهة) هذه ؟!

تردد (ممدوح) لحظات أخرى ، ثم قال فى خفوت :

ـ كثيرًا ما تحمل لمحة من الحقيقة ... أنت تعلم أن الحكم القديمة تقول : إنه لا دخان بلا نار .

أجابه فى شىء من الحدة :

ـ ما تعلمناه فى صفوف الكيمياء ، يؤكد وجود الكثير من الدخان بلا نار .

رمقه (ممدوح) بنظرة متوترة ، ثم أشاح عنه بوجهه ، وكأنه لا يريد الاستطراد ، ولكن (فتحى) تابع فى إصرار :

ـ من يصدق ، فى القرن الحادى والعشرين ، وجود جنية الحقول هذه ، التى تناديك باسمك ، أثناء سيرك بين الحقول ، فإذا ما التفت إليها ، طار عقلك ، وصرت مجنونًا .

غمغم (فتحى) ، فى لهجة استفزازية :

ـ وهل تصدقها أنت ؟!

ظل (ممدوح) صامتًا بعض الوقت ، متظاهرًا بمتابعة شاشة التلفاز الصغير ، ثم لم يلبث أن غمغم ، فى شىء من الحدة :

ـ لكل شأنه يا رجل .

كان من الواضح أنه يرفض خوض هذا الحديث ، مما ضاعف فى أعماق (فتحى) ذلك الشعور بالضجر والسخط ، فنهض بحركة حادة ، قائلاً :

ـ الأفضل أن أذهب للنوم . . هذا لو استطعت احتمال ذلك المنزل الحقير ، الذى يمنحونه لموظفى المصلحة .

غمغم (ممدوح) مرة أخرى ، دون أن يلتفت إليه :

ـ فليكن .

ثم استدار نصف استدارة نحوه ، مكملاً :

ـ ولكن خذ حذرك .

ابتسم (فتحى) ابتسامة ساخرة ، وألقى نظرة مستنكرة عليه ، ثم غادر المقهى ، عائدًا إلى ذلك المنزل الصغير ، فى الطرف الآخر من القرية ...

كان السكون يخيم على كل شىء تقريبًا ، ولكن الطقس بدا منعشًا ، مما جعله يسير بين الحقول ، مدندنًا بأغنية عاطفية قديمة ، عشقها منذ حداثته ...

« أستاذ (فتحى) ... »

فجأة ، ارتفع ذلك النداء ، بصوت خافت مبحوح ، حمل رنة أنثوية واضحة ، فانتفض جسده كله دفعة واحدة ، وتجمدت حركته ، فتوقف بغتة ، وشعر بتلك القشعريرة تسرى فى جسده ...

لا ... مستحيل ! ... هذا لا يمكن أن يحدث

لا يمكن أن يكون هذا حقيقة ...

(النداهة) خرافة ...

مجرد خرافة ...

ردد هذا فى أعماقه ، فى محاولة لانتزاع ذلك الخوف من نفسه ، ودفع قدميه دفعًا ليواصل طريقه ، وإن تسارعت خطواته بعض الشىء ...

ومرة أخرى ، تردد ذلك النداء الأنثوى من خلفه ...

نداء يحمل اسمه ...

وبصوت أكثر ارتفاعًا ...

وفى هذه المرة ، طرح عقله كل محاولاته جانبًا ، أمام ذلك الرعب ، الذى سيطر على كيانه كله ...

إذن فهى حقيقة ...

(النداهة) ليست خرافة ..

ما روته له جدته فى طفولته لم يكن وهمًا ...

(النداهة) حقيقة ...

وها هى ذى تناديه ، كما روت له الجدة بالضبط ...

تناديه باسمه ، وسط الحقول ، بعد منتصف الليل ...

تسارعت خطواته ، على نحو كبير ، وارتجف جسده كله فى شدة ...

ومن خلفه ، سمع خطوات أخرى ..

خطوات مسرعة ، تحاول اللحاق به ...

واتسعت عيناه ، فى رعب بلا حدود ...

ومرة ثالثة ، تصاعد ذلك النداء الأنثوى من خلفه ...

نداء باسمه ... وبصوت واضح ...

واضح للغاية ...

إنها خلفه ...

تسرع نحوه ...

تريد أن تقتنصه ...

واستعاد عقله كل حكايات جدته ...

لا ينبغى أبدًا أن يلتفت إليها ، وإلا سلبته عقله ...

لا ينبغى أن يلتفت أبدًا ...

ومع النداء الرابع ، الذى بدا مرتفعًا أكثر من ذى قبل ، تحولت خطواته المسرعة إلى جرى مذعور ...

كان يحاول مغادرة منطقة الحقول ، قبل أن تلحق به ..

ولكن الخطوات من خلفه تسارعت أكثر وأكثر ...

ومع النداء الخامس ، الذى يحمل اسمه ، بدأ يصرخ دون وعى :

ـ ابتعدى عنى ... ابتعدى عنى ...

ولكن الخطوات تسارعت خلفه أكثر و ...

وفجأة ، أدرك أنه قد ضل طريقه ، وأنه محاط بالحقول من كل صوب ، وتعثرت قدماه على الطريق غير الممهد ، فحاول أن يتشبث بشىء ...

أى شىء ...

وفى محاولة يائسة ، أمسك عودًا من أعواد الذرة ، ولكن العود انكسر مع ثقله ، فاختل توازنه ، وسقط أرضًا ...

ومع رعبه الشديد ، شعر بتلك الأقدام تتوقف ، على قيد خطوة واحدة منه ...

ثم انتفض جسده بكل رعب الدنيا ، عندما شعر بيد رقيقة توضع على كتفه ، مع صوت أنثوى متوتر ، يكرر متوتر ، يكرر النداء باسمه ...

وبينما يستدير ليدفع تلك اليد عن كتفه ، ارتطم بصره بوجهها ...

وجه أنثوى ، وسط ملاءة سوداء ، تحيط به ..

وصرخ (فتحى) ...

وصرخ ..

وصرخ ...

« ما الذى أصابه ؟!... »

نطقها ضابط النقطة فى دهشة ، وهو يتطلع إلى (فتحى) ، الذى اتسعت عيناه ، وراح يضرب الهواء بذراعيه ، وكأنما يدفع عنه عدوًا مجهولًا ، وقد حملت ملامحه كلها علامات الرعب والجنون ، فأجابته (سيدة) زوجة شيخ خفر القرية فى ارتباك وانفعال :

ـ لست أدرى يا باشا ... لقد شاهدته يسير وسط الحقول ، متجهًا إلى حيث ترعة القرية ، وأدركت أنه قد ضل طريقه ، فأسرعت خلفه ؛ لأحذره من هذا ، ولكنه راح يعدو نحو الترعة ، وعدوت خلفه أناديه ، حتى لا يسقط فيها ، وعندما تعثر ، أردت أن أساعده على النهوض ، ففوجئت به يصرخ فى شدة ، وقد أصابه ما أصابه .

تطلع ضابط النقطة فى إشفاق إلى (فتحى) ، وهو يغمغم :

ـ المسكين أصيب بالجنون ، وملامحه توحى بأنه قد شاهد ما أثار رعبه ، وأفقده صوابه ... أى شىء يمكن أن يفعل برجل ناضج هذا ؟!

كان (ممدوح) يعلم الجواب ...

ولكنه لم ينبس بحرف واحد ...

فخشيته من المسئولية ، أطلقت فى أعماقه نداء الصمت ...

ويا له من نداء !

★ ★ ★



٤ ـ ميمى الصغير . . .

انهمر المطر فى غزارة ، فى تلك الليلة من ليالى الشتاء ، وأسرع (محمود) يحث الخطى ، محاولاً عبور تلك المنطقة من الميدان الكبير ؛ للاحتماء بأحد الشرفات البارزة ، من المطر المنهمر . .

كانت عقارب الساعة مازالت تشير إلى السادسة مساءً ، ولكن الغيوم الكثيفة ، التى غطت السماء ، أوحت بوقت أكثر تقدمًا ، وأضفت على الميدان كله طابعًا كئيبًا ، على الرغم من السيارات التى تعبره ، وتزاحم حركة المرور فيه ؛ بسبب الأمطار الغزيرة ، مع خلوه من المارة تقريبًا ؛ لاحتماء معظمهم بمداخل البنايات ، أملاً فى انتهاء تلك النوة البحرية العنيفة . . .

ولم يكد يصل إلى ذلك المكان ، أسفل شرفة كبيرة ، حجبت المطر من بقعة صغيرة ، أدهشه ألا يحتمى بها سواه ، حتى ألصق ظهره بالجدار ، ولهث على نحو لا يتناسب مع المسافة التى قطعها ، وغمغم :

ـ متى ينتهى هذا المطر ؟!..

لم يكد ينطقها ، حتى تناهى إلى مسامعه بكاء طفل ..

كان بكاءً خافتًا ، ينبعث من ممر بين بنايتين ، ويجاور موضعه تمامًا . . .

وفى قلق وفضول ، حاول (محمود) أن يميل بجسده ؛ ليلقى نظرة على ذلك الممر ، إلا أن المطر الغزير جعله يتراجع مرة أخرى ، ويلتصق بالجدار ..

ولكن بكاء الطفل تواصل . . .

وتواصل . . .

كان بكاءً حارًا ، انفطر له قلبه ، فلم يحتمل البقاء فى مكانه ، وإنما مال بجسده ، تاركًا المطر ينهمر فوقه ، وهو يطل على الممر الضيق ، الذى بدا مظلمًا للغاية ، وهو يهتف :

ـ من هناك ؟!...

لم ينقطع بكاء الطفل مع ندائه ، وإن بدا شديد الوضوح ، وهو يضع رأسه عند مدخل الممر ، فتردد لحظة ، ثم غادر مكمنه ، إلى حيث ينهمر المطر ، ووقف عند أول الممر ، يتساءل :

ـ لماذا تبكى ؟!..

ومع سؤاله ، لمح ذلك الطفل لأول مرة . . .

كان ينكمش مرتجفًا ، خلف صندوق قمامة كبير ، وكأنما يحتمى به من المطر ، ويواصل بكاءه ، وكأنه لم يسمع السؤال . . .

وبحركة سريعة ، تقدم (محمود) نحو صندوق القمامة ، والمطر يغرق وجهه وجسده ، ومال من خلفه ؛ ليلقى نظرة أقرب على الطفل . . .

كان طفلاً فى الخامسة من عمره تقريبًا ، ينكمش على نحو مثير للشفقة ، ويرتدى ملابس جيدة الصنع ، تشير إلى أنه ليس طفلاً من أطفال الشوارع ، وإنما طفل أسرة جيدة ...

وكان وجهه وأطرافه مائلة للزرقة ، مع برودة الطقس وانهمار المطر ، مما جعل (محمود) يسأله مشفقًا :

ـ ما الذى أتى بك هنا ؟!..

وفى بطء ، مال الطفل ببصره نحوه ، وبدت عيناه الواسعتان مغرورقتين بالدموع ، وهو ينظر إليه ، وشفتاه الزرقاوين ترتجفان على نحو عجيب ...

وبلا تردد ، خلع (محمود) سترته ، وناولها للطفل ، محتملاً المطر المنهمر على جسده ، وهو يغمغم متعاطفًا :

ـ أنت ترتجف بردًا ..

لم يمد الطفل يده لالتقاط السترة ، فوضعها (محمود) على كتفيه ، وهو يغمغم مشفقًا :

ـ يا إلهى !! ... أنت بارد كالثلج .

واصل الطفل بكاءه ، وإن خفت صوته قليلاً ، وهو يتطلع إلى (محمود) ، الذى حاول أن يبتسم ؛ ليبث بعض الطمأنينة فى نفسه ، وهو يقول فى خفوت :

ـ أنت تائه .. أليس كذلك ؟!

تطلع الطفل إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول شيئًا ما فى خفوت ، على نحو لم يميزه (محمود) ، فمال نحوه يسأله :

ـ ماذا تقول ؟!

ارتفع صوت الطفل قليلاً ، ليميز (محمود) كلمته الوحيدة :

ـ (ميمى) ...

أرهف (محمود) سمعه لحظة ، ثم اعتدل ، قائلاً :

ـ اسمك (ميمى) ؟!

كرر الطفل ، وبكاؤه يقل تدريجيًا :

ـ (ميمى) ...

اعتدل (محمود) ، وعلى الرغم من المطر ، الذى مازال ينهمر فى غزارة ، شعر بالكثير من الارتياح ، وهو يسأله :

ـ اسمك لطيف يا (ميمى) ، ولكن كيف وصلت إلى هنا ؟!

لم يزد الطفل عن ترديد اسمه فحسب ، ثم عاد إلى صمته ، وهو يتطلع إلى عينى (محمود) مباشرة ، وكأنه يناشده أن يفهمه ...

واعتدل (محمود) يتطلع إليه بدوره ...

إنه طفل تائه ...



ما من شك فى هذا ...

ملامحه وثيابه تدلان على أنه من أسرة معقولة ...

و ...

وفجأة ، سطع البرق فى السماء ، وتلاه هزيم الرعد ، فانتفض جسد (محمود) فى شدة ...

ولكن (ميمى) لم يتأثر ...

لقد ظل على نفس موضعه ، يتطلع إلى عينيه مباشرة ، وكأنما لا يرى سواهما ...

وفى دهشة ، تطلع إلى (محمود) متسائلاً : كيف لم يفزعه هزيم الرعد ، الذى كان أشبه بدوى القنابل ؟...

ثم قفز الجواب إلى ذهنه بغتة ...

إنه طفل أصم ...

هذا هو التفسير المنطقى ...

فلهذا لم يسمعه ، عندما ناداه فى البداية ...

ولهذا يردد اسمه فقط ، مع كل سؤال ...

وبمنتهى الإشفاق ، غمغم (محمود) :

ـ يا للمسكين !!

طفل أصم ...

تائه ...

جائع ...

وحيد ...

وتحت هذا المطر الغزير ...

يا لها من صورة ، تحطم أشد القلوب قسوة وتحجرًا !..

وبكل مشاعره وألمه ، مد (محمود) يده إلى الصغير ، قائلاً :

ـ هيا ... سنجد لك أولاً مكانًا تجف فيه ثيابك .

نظر الطفل إلى اليد الممدودة إليه ، فى خوف حذر ، فرسم (محمود) على شفتيه ابتسامة ، وهز رأسه فى رفق ، وهو يغمغم :

ـ هيا .

كان يفكر فى حمل الطفل إلى أحد مطاعم الوجبات السريعة فى الميدان ، حيث يجد الدفء والطعام والأمان ...

ولكن الطفل لم يستجب ..

لقد عاد ينكمش فى خوف ، ويتطلع إلى عينى (محمود) مباشرة ...

وحاول (محمود) أن يوسّع فى ابتسامته ، وهو يغمغم مشفقًا :

ـ لا تخف .. سنجد أهلك قريبًا بإذن الله .

تطلع إليه الصغير لحظات ، ثم رفع يده فى بطء ، وأشار إلى عمق الممر ...

وعلى نحو غريزى ، تبع (محمود) إشارته ببصره ...

وهناك ، ووسط ذلك الظلام ، الذى غطى الممر الضيق ، المحصور بين بنايتين عاليتين ، لمح ذلك الجسم الملقى ، عند نهاية الممر ..

وفى هذه المرة ، انتفض جسده أكثر ، واتسعت عيناه ، وهو يغمغم :

ـ يا إلهى !

وبسرعة ، عاد ببصره إلى الصغير ، هاتفًا :

ـ أهو والدك ؟!

كرر الصغير فى خفوت حزين :

ـ (ميمى) .

اعتدل (محمود) ، واتسعت عيناه أكثر ، وهو يقول بارتجافة انفعال هذه المرة :

ـ (ميمى) ؟!...أهى أمك ؟!

نهض الصغير فى هدوء ، ومد يده إليه ، وهو يشير مرة أخرى إلى عمق الممر ، قائلاً فى صوت اختلط بالنحيب :

ـ (ميمى) .

أمسك (محمود) يد الصغير ، التى بدت باردة كالثلج ، وقاوم انفعالاته ، وهو يغوص معه فى قلب الممر ، متجهًا نحو ذلك الجسد فى نهايته ...

لم يكن قد رأى جثة ، فى حياته كلها ، لذا فقد واصل جسده ارتجافاته ، وهو يقترب منها فى حذر ، وقد تشبث الصغير بيده فى قوة ...

وعلى الرغم من أن عمق الممر لم يزد عن ستة أمتار ، إلا أنها بدت له أشبه بكيلومتر كامل ، وهو يقترب من ذلك الجسم ...

ويقترب ...

ويقترب ...

ومع الظلام الشديد ، وقف على بعد خطوة واحدة من ذلك الجسد ، الذى بدا مغطى بقطعة كبيرة من القماش ، وتردد لحظات ، وهو يغمغم :

ـ أظن أنه من الأفضل أن نتصل بالشرطة .

عاود الصغير نحيبه ، وهو يشير إلى ذلك الجسم ، فتردد (محمود) لحظة أخرى ، ثم انحنى يجذب ذلك الغطاء ، و ..

واتسعت عيناه فى دهشة بالغة ..

فأسفل الغطاء ، لم تكن هناك جثة ...

كانت هناك فقط حفرة عميقة واسعة ...

وفى دهشة بالغة ، التفت إلى الصغير ، الذى أفلت يده ، مغمغمًا :

ـ ولكن ...

لم ينطق حرفًا آخر بعد الكلمة ...

ففى تلك اللحظة ، سطع البرق مرة أخرى ...

وانتفض (محمود) ، أعنف انتفاضة ، منذ بدء ذلك الموقف كله ...

فعلى ضوء البرق ، لمح ملامح (ميمى) الصغير واضحة ...

لم تكن بشرته مائلة إلى الزرقة ...

بل كانت زرقاء بالفعل ...

وكان وجهه مغطى بالتراب ، وكأنه خرج من قبره منذ لحظات ...

وما أثار رعبه أكثر ، هو تلك النظرة المخيفة ، المطلة من عينى الصغير ، مع تلك الابتسامة المرعبة على شفتيه ...

أما ثيابه ، فلم تعد أنيقة ...

ولم تكن ثيابًا شتوية ، تناسب الطقس ...

كانت ثيابًا صيفية خفيفة جدًا ...

وبكل رعبه ، تراجع (محمود) ..

ودون أن يدرى ، تجاوز حافة تلك الحفرة العميقة ...

وهوى ...

ومع هزيم الرعد ، انطلقت صرخته المدوية ...

ومع هزيم الرعد أيضًا ، لم يسمعها أحد ...

وبينما يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فى عمق الحفرة ، شعر بالجثث الأخرى من حوله ...

وتحسست يده جثة طفل صغير ...

فى ثياب صيفية ...

وفى نفس اللحظة ، التى فاضت فيها روحه ، كان (أدمون) يحتمى من المطر الغزير ، بتلك الشرفة الواسعة ، عند مدخل الممر ، عندما سمع بكاء طفل صغير ..

طفل (كان) اسمه (ميمى) .

★ ★ ★



٥ـ مرحبـــا ...

انطلق عواء ذئب بعيد ، وسط سكون تلك المنطقة الريفية ، فى محافظة (كفر الشيخ) ، فارتجفت (نادية) فى خوف ، وحاولت أن تلتصق بزوجها (وفيق) ، الذى أوقف سيارته ، إلى جوار ترعة صغيرة ، وهى تقول فى خفوت مذعور :

ـ (وفيق) .. من الواضح أننا قد ضللنا الطريق ...

لم يكن توتره بأقل منها ، إلا أنه حاول أن يخفيه فى أعماقه ، وهو يغمغم :

ـ يبدو هذا .

سألته فى خوف :

ـ ماذا سنفعل إذن ؟!... المكان مقفر تمامًا ، وهذا الطريق المختصر ، الذى قلت : إنك تذكره جيدًا ، لم نعثر فيه على أى شىء ، طوال نصف ساعة أو يزيد .

بدا عصبيًا ، وهو يقول :

ـ لست أدرى كيف حدث هذا ؟!... لقد عبرت هذا الطريق أكثر من مرة ، وكان يقودنى دومًا إلى المدينة ، فى أقل من عشرين دقيقة .

غمغمت مرتجفة :

ـ ربما أخطأت الطريق .

هتف ، فى عصبية أكثر :

ـ مستحيل ! ... المرء لا يخطئ طريقًا ، يعبره مرتين أسبوعيًا على الأقل .

التصقت به أكثر ، وهى تسأله ، فى لهجة أقرب إلى البكاء :

ـ ولكننا ضللنا الطريق بالفعل ، فماذا سنفعل ؟!

كان توتره فى الواقع يفوق توترها ألف مرة ، خاصة وهو يستعيد ذكريات قديمة ، حاول طوال عشر سنوات محوها من ذاكرته ، والتظاهر بأنها لم تحدث قط ...

تلك الذكريات ، التى ترتبط بالساقية القديمة ، التى يلمحها من بعيد ، على ضوء القمر .. مستحيل أن يكون قد اختار هذا الطريق الفرعى البعيد بإرادته !! ...

مستحيل !!...

إنه يبعد ثلاثة كيلومترات ، عن مدخل الطريق المختصر ، الذى اعتاد عبوره إلى المدينة ، منذ أكثر من خمس سنوات ...

ثم إن مدخله مهمل ضيق ، يصعب أن تعبره سيارة ...

فكيف وصل إليه ؟!...

كيف ؟!...



أيكون قد عبر ـ دون قصد ـ طريقًا فرعيًا ، نقله من طريقه المعتاد ، إلى ذلك الطريق القديم المهجور ؟!...

ولكن كيف ؟!...

طوال خمس سنوات ، لم يلمح أبدًا طريقًا فرعيًا ، خلال عبوره ذلك الطريق المختصر القصير ...

ثم إنه ، وحتى فى عقله الباطن ، سيتحاشى حتمًا مجرد رؤية هذا الطريق المهجور ...

هذا لأنه ، ومهما حاول ، لا يستطيع نسيان ما حدث فيه ، منذ عشر سنوات ...

« ليس أمامنا سوى أن نعود أدراجنا ... »

غمغمت (نادية) بالعبارة ، فى صوت خافت مرتجف ، فالتفت إليها بعصبية ، قائلاً :

ـ الطريق أضيق من أن تدور فيه السيارة ... إنه يستوعبها بالكاد ...

غمغمت ، ودموعها تسيل بالفعل :

ـ فلنواصل طريقنا إذن ؛ لعل الطريق يقودنا إلى مكان مأهول .

لم يكن هناك بالفعل حل آخر ، على الرغم من انتشار البرارى فى المنطقة ، ما دام البقاء غير وارد ، مع عواء الذئاب الآتى من بعيد ، ومع وجود تلك الساقية القديمة تحت بصره ...

فما زالت تلك الذكريات القديمة تطارده ...

وتخيفه ...

مازال يذكر فى وضوح ، مروره فى هذا الطريق المهجور ، منذ عشر سنوات ، عندما كان شابًا جامحًا ، يميل إلى المغامرة والتجريب ، وكيف أنه ، وعلى الرغم من وعورة الطريق ، انطلق عبره فى سرعة ، وهو يستمع إلى أغنية حديثة ، بمقياس ذلك الزمن ، ويطلقها فى صوت مرتفع ، و ..

وفجأة ، ظهر أمامه ذلك الشاب ...

لم يدر من أين جاء ، ولا ماذا كان يفعل فى طريق مهجور كهذا ، ولكنه برز فجأة أمام سيارته ...

ولم يكن هناك مفر من الاصطدام به ، و ...

« ألن نواصل طريقنا ؟!.. »

ألقت (نادية) السؤال فى خفوت ، امتزج بنحيبها المذعور ، فالتفت إليها لحظة ، خلت فيها مشاعره من أى شىء ، قبل أن يغمغم :

ـ بالتأكيد .

كان المضى يعنى المرور إلى جوار تلك الساقية القديمة ، التى لم يتصور رؤيتها مرة أخرى ، والتى تلقى ظلالاً مخيفة أمامها ، مع ضوء القمر ، الذى توسط السماء بدرًا مكتملاً ، إلا أنه التقط نفسًا عميقًا ، فى

محاولة تهدئة أعصابه الثائرة ، ويبدأ يتحرك بالسيارة فى بطء ، وعيناه معلقتان بتلك الساقية القديمة ، وذكرياته تتدفق فى رأسه ، على الرغم منه ...

إنه مازال يذكر مشهد ذلك الشاب ، وهو ملقى أمام سيارته ، غارقًا فى دمائه ، بعد أن ارتطم به فى عنف ...

يومها أصابه هلع شديد ...

لم يدر ماذا يفعل ، بعد أن ارتطم بالشاب ، وعبر على جسده بالسيارة ، قبل أن ينجح مع توتره فى إيقافها ، وتلك الأغنية الحديثة مازالت تنطلق عالية ...

وفى ذهول مذعور ، وقف يتطلع إلى جثة الشاب ، دون أن يجرؤ حتى على فحصه ، والتأكد مما إذا كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة ، أم مازالت بقايا الروح تدب فى جسده الصغير ...

وفى ذهنه ، يومها ، تدفقت عشرات المخاوف ...

الشرطة ..

والتحقيقات ...

والسجن ...

كل هذا دار فى ذهنه ، وهو يتطلع إلى جثة الشاب ، قبل أن يتخذ ذلك القرار المخيف ، الذى غير مسار حياته كلها ...

« أسرع يا (وفيق) ... هذا الطريق يخيفنى جدًا ... »

نطقتها (نادية) فى رعب واضح ، وسمعها هو جيدًا ، ولكن ولسبب ما ، كانت قدمه تمنعه من ضغط دواسة الوقود فى قوة كافية ؛ لعبور تلك الساقية القديمة فى سرعة ...

كان وكأنه ، فى عقله الباطن ، يخشى عبورها ، حتى لا يستعيد ذكرى ذلك اليوم الرهيب ...

ولكنه استنفر كل أعصابه ، وضغط الدواسة ...

وأسرعت السيارة ...

و ...

وفجأة ، تجمدت الدماء فى عروقه ، وتصاعد نبضه إلى درجة مخيفة ، واتسعت عيناه عن آخرهما فى رعب ، وضغط فرامل السيارة بكل قوته ، وانطلقت من حلقه ، على الرغم منه ، شهقة قوية ، جعلت (نادية) تصرخ فى رعب :

ـ ماذا هناك ؟!

حدق مرعوبًا ، فى ذلك الشاب الريفى ، الذى جلس مستندًا إلى دوارة الساقية القديمة المهجورة ، ممسكًا نايًا صغيرًا ، فى مشهد ، كان من المفترض أن يصنع مع ضوء القمر صورة بديعة ، ولكنه بدا بالنسبة له أشبه بمشهد رعب ، فى فيلم من الدرجة الأولى ...

ولمحت (نادية) ذلك الشاب بدورها ، فانتفضت لحظة ، قبل أن تهتف :

ـ هناك شاب عند الساقية ، يمكنه أن يدلنا على الطريق .

لم يجبها (وفيق) ، وهو يحدق فى ذلك الشاب فى رعب ، وقلبه يخفق ، كما لم يخفق من قبل ...

لم يكن من الممكن أن يرى ملامح ذلك الشاب ، الذى راح يعزف لحنًا حزينًا على الناى ، وكأنه لا يبالى بوجودهما على الإطلاق ...

وفى لهفة وأمل ، هتفت (نادية) :

ـ سله عن الطريق يا (وفيق) .

ارتجف (وفيق) لمطلبها ، ولم يتصور قط أن يقترب من ذلك الشاب ، مع تلك الذكريات المخيفة ، التى راحت تعصف بكيانه كله ...

ذكريات تلك اللحظة ، التى حمل فيها جثة الشاب الذى صدمه ، وألقى بها فى تلك الساقية القديمة المهجورة ...

وعاد كيانه كله يرتجف ، وهو يتذكر كيف ندت من الشاب آهة ألم ، عندما ارتطم بقاع الساقية الجاف ...

لم يكن قد لقى مصرعه يومئذ بالفعل ...

كانت فيه بقايا من روح ...

ولكن الساقية كانت مهجورة وضيقة ، حتى أنه لم يجـرؤ على الهبوط فيها لإنقاذه ...

ولهذا أقدم على أحقر عمل فى حياته ...

لقد فر من المكان ، تاركًا ذلك الشاب خلفه ، يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فى قاع الساقية المهجورة ...

« سأهبط أنا لأسأله ... »

قالتها (نادية) فى حدة ، فالتفت إليها فى عصبية ، وقال :

ـ لا ... لن تفعلى .

قالت فى غضب :

ـ ولن أبقى هنا أيضًا ، وأمامنا فرصة لمعرفة الطريق .

صمت لحظات ، محاولاً السيطرة على أعصابه ، ودفع عقله إلى التفكير السليم ...

أية خرافات تسيطر عليه ، فى لحظاته هذه ؟!...

إنه لم يؤمن أبدًا بالأشباح والعفاريت ...

إنه مجرد شاب حالم ، تصادف وجوده فى المكان نفسه ...

مجرد مصادفة ...

و(نادية) على حق ... لن يضيع فرصة الطريق ، بسبب مخاوف بدائية سخيفة .. التقط نفسًا آخر عميقًا ، وفتح باب السيارة فى حسم ، مغمغمًا :

ـ سأسأله أنا ...

تعالى عواء ذئب آخر من بعيد ، أثار فى كيانه رجفة شديدة ، وإن بدا من الواضح أن عازف الناى لم يبال به إطلاقًا ، شأن من اعتاد هذه الأمور ، فدفع قدميه دفعًا فى اتجاهه ، حتى صار على قيد خطوات منه ، فسأله فى صوت ، عجز عن إخفاء ارتجافته الواضحة :

ـ هل يمكنك أن ترشدنا إلى طريق ، للخروج من هنا إلى المدينة .

توقف الشاب عن العزف ، وغمغم :

ـ مرحبًا .

لم يدر (وفيق) ما الصلة بين سؤاله وجواب الشاب ، فمال نحوه يكرر سؤاله :

ـ كيف نخرج من هنا إلى المدينة ؟!

كرر الشاب بنفس اللهجة :

ـ مرحبًا .

ثم استدار إليه فى بطء ، وابتسم ابتسامة كبيرة ، وهو يضيف :

ـ إننى أنتظرك منذ زمن طويل .

وتراجع (وفيق) كالمصعوق ، وهو يطلق صرخة رعب هائلة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، مع تلك الدماء ، التى تغرق وجه الشاب وجلبابه ...

وبقفزة أشبه بالذئاب ، انقض عليه الشاب ، ودفعه أمامه ...

إلى قاع الساقية القديمة ...

وصرخ (وفيق) ...

وصرخت (نادية) ..

وظلت تصرخ ...

وتصرخ ...

وتصرخ ..

« ولكن هذا مستحيل يا سيدتى ! ... »

قالها وكيل النيابة ، وهو يتطلع إلى (نادية) ، التى انهارت تمامًا ، قبل أن يلتقط تقرير البحث الجنائى ، ويواصل :

ـ تلك الساقية مهجورة ، منذ أكثر من عقدين من الزمان ، وما تبقى من فتحتها ، لا يكفى لمرور جسد فى حجم جسد زوجك .

هتفت فى انهيار :

ـ ولكننى رأيت الشاب يدفعه داخلها ، ويهبط معه فيها .

هز وكيل النيابة رأسه ، وهو يقول :

ـ تقارير البحث الجنائى ، والمعامل الجنائية ، وحتى الطب الشرعى ، لا تتفق مع روايتك أبدًا .. قاع الساقية كان مغمورًا بالرمال والطين الجاف ، ولا يوجد أى أثر لسقوط أى شىء فيها مؤخرًا ، ولقد عثرنا فيها على

جثة قديمة لشاب ، من الواضح أنه لقى مصرعه فى أعماقها ، منذ عشر سنوات على الأقل ... أخبرينا الحقيقة .. ماذا حدث هناك بالفعل ؟!..

وبكت (نادية) فى انهيار ، وعقلها يستعيد آخر كلمة سمعتها من ذلك الشاب ، قبل أن يختفى مع زوجها فى قاع الساقية المهجورة ...

« مرحبًا » .

★ ★ ★

٦ - إلى الأبـــد...

انتفخت أوداج (منير) فخرًا وزهوًا ، وهو يتحسس سيارته الجديدة ، التى ابتاعها له والده ، فى عيد مولده الحادى والعشرين ...

كان ابنًا وحيدًا لملياردير كبير ، من مليارديرات الصناعة ، يمتلك عددًا من المصانع ، فى مختلف الصناعات ..

ثياب ، وأدوات كهربية ، وثلاجات ، ومواقد طهى ، ومصانع للسيراميك والأدوات الصحية ، وغيرها ...

وكل هذا بالإضافة إلى عدد من المطاعم الفاخرة ...

وفندقين ...

وقرية سياحية شهيرة ...

كان يمتلك العديد من كل شىء ...

حتى الزوجات ...

وعلى الرغم من زواجه بتسع زوجات مختلفات ، نصفهن من دول (أوروبا) و(آسيا) ، إلا أنه لم ينجب سوى (منير) ...

فقط (منير) ...

ولأنه ابنه الوحيد ، الذى سيرث الثروة الطائلة ، لم يبخل عليه الوالد الملياردير بأى شىء على الإطلاق ...

كان يلبى كل مطالبه ...

بلا استثناء ...

وبلا مناقشة ..

ولهذا نشأ (منير) مدللاً ، مغرورًا ، أنانيًا ، لا يرى فى الحياة كلها سوى نفسه ...

ونفسه وحدها ...

وعندما شاهد إعلان تلك السيارة الرياضية الجديدة ، التى تحوى نظامًا إليكترونيًا رقميًا متطورًا ، يجعلها أشبه بشخص آلى يجرى على عجلات ، أصر على أن يكون أول من يمتلكها فى (مصر) كلها ...

كانت السيارة تساوى مليون دولار تقريبًا ، وعلى الرغم من هذا ، لم يتردد الأب فى إرسال مندوب خاص من شركاته ؛ لابتياع النسخة الأولى من السيارة ، وشحنها معه إلى (مصر) ..

ولقد بلغت رسومها الجمركية مبلغًا خرافيًا ، أدهش رجال الجمارك أنفسهم ، ولكن ما أدهشهم أكثر ، هو تلك البساطة والسرعة ، اللذين تم بهما دفع الرسوم ، حتى تخرج السيارة إلى الشارع فى أسرع وقت ممكن ...

وفى دائرة المرور ، التف الكل حول السيارة ، يتأملونها فى إعجاب وانبهار ...

وحسد أيضًا ...

وهذا ما انتفخت له أوداج (منير) ...

كان دومًا يعشق أن يبهر الناس بما لديه ...

وبما يمتلكه ...

ولقد انتفخت أوداجه أكثر ، عندما خرج الكل يلقون نظرة على سيارته ، وهى تغادر دائرة المرور ، حاملة ذلك الرقم المميز ، الذى دفع فيه ثروة حقيقية أيضًا ...

وحتى فى الطريق ، كانت السيارات وعيون المارة تلاحقه ...

الكل انبهر بالسيارة ...

والكل حسد راكبها ...

وعلى الرغم من أن منزله لا يبعد سوى دقائق قليلة عن دائرة المرور ، فقد طاف (منير) نصف شوارع (القاهرة) بسيارته ؛ ليتمتع بانبهار الناس ، قبل أن يعود بها إلى قصر والده المنيف ، وهو يكاد يحترق شوقًا ؛ للذهاب بها إلى كليته ، فى الصباح التالى ، ورؤية الانبهار والحسد فى عيون زملائه ...

وبخاصة (جينا) ...

إنها أجمل فتاة ، فى كليته كلها ، وطالما حاول جذب انتباهها ومحبتها إليه ، ولكنها لم تبد يومًا اهتمامًا بثرائه البالغ ، ولا حتى وسامته المفرطة ...

هذا لأنها - ويا للعجب - وقعت فى حب زميله (أمجد) ...

يالها من حمقاء !! ...

إنه لم يدرك أبدًا لماذا اختارت غادة مثلها ، ذلك الشاب المتواضع ، الذى يرتدى طوال الوقت سروالاً رخيصًا ، من الجينز المحلى ، وقمصانًا يبتاعها حتمًا من الأسواق الرخيصة ، فى (العتبة) ، أو (وكالة البلح) !! ..

ولم يحاول أبدًا أن يسألها عن السبب ...

كبرياؤه لم يسمح له بهذا ...

وسخاؤه الشديد مع زملائها ، لم ينجح فى جذب انتباهها ...

ولا اهتمامها ...

كان يدعو الجميع إلى غداء فاخر ، فى فندق والده الفخم ، فتعتذر هى ؛ لتقضى بعض الوقت مع (أمجد) ، فى كافيتريا الكلية المتواضعة ...

وهذا يثير حنقه بشدة ...

وغيرته أيضًا ...

أو أنه ، لو شئنا الدقة ، يشعر بجرح غائر فى كبريائه ...

ولكن كل هذا سينتهى حتمًا ، فى الصباح التالى ...

سيارته ستبهر الكل بلا شك ...

حتى هى ...

امتلأت نفسه بالفكرة ، وراح يتخيل نظراتها لسيارته ، التى اختار لها لونًا أحمر زاهيًا ، يستحيل ألا تلاحظه عين ...

وعندما وصل إلى قصر والده ، كانت الفكرة قد اختمرت فى رأسه تمامًا ، حتى أنه لم ينتبه إلى والده ، وهو يتجه إليه ، حتى سمعه يقول :

- ألف مبروك .. السيارة تستحق بالفعل .. إنها مبهرة ...

ابتسم (منير) ابتسامة واسعة ، وهو يقول :

- حقًا ؟!

تحسس والده جسم السيارة ، وهو يغمغم :

- دون أدنى شك .

ثم اعتدل يردف مبتسمًا :

- ولكنها فى النهاية مجرد سيارة .

أجابه (منير) فى غضب :

- ليست مجرد سيارة ... إنها أروع سيارة فى العالم .

غمز والده بعينه ، قائلاً :

- مؤقتاً .

نظر (منير) إليه فى دهشة ، متسائلاً :

- ماذا تعنى ؟!



ضحك والده ، وهو يقول :

ـ أعنى أنك ابنى الوحيد ، وأنا أعرف طبائعك جيدًا .. ستنبهر بالسيارة بعض الوقت ، ثم سرعان ما تسأمها ، وتمل ركوبها ، وتطالب بلعبة جديدة .

هتف (منير) فى عناد :

ـ خطأ ... لن أتخلى عن هذه السيارة أبدًا .

غمز والده بعينه مرة أخرى ، وهو يقول مداعبًا :

ـ هل تراهن ؟!

هتف (منير) بكل حماسة :

ـ أراهن .

اعتدل والده ، وقال بنفس المرح :

ـ سأمنحك ستة أشهر .

أجابه (منير) فى إصرار :

ـ ولا حتى ست سنوات .

ثم ربت على السيارة ، كما لو كانت معشوقته ، وهو يضيف :

ـ هذه السيارة ستبقى معى إلى الأبد .

ضحك والده ، وهو يقول :

ـ سنرى .

ثم أشار إليه ، مستطردًا :

ـ أريدك أن تأتى بها غدًا إلى مصنع الأوناش .

ارتفع حاجبا (منير) ، وهو يقول :

ـ ولماذا ؟!

قال والده فى دهشة مستنكرة :

ـ هل نسيت أننى طلبت منك هذا ، من أكثر من أسبـوع ، حتـى تحضر اجتماعنا مع الصينيين ؟!... إنك سترث كل هذا من بعـدى يا (منيـر) ، وأريدك أن تتعلم كيف أدير العمل ، وأعقد الصفقات .

انعقد حاجبا (منير) فى شدة ، وهو يقول :

ـ لا ... ليس غدًا .

حملت نبرة والده شيئًا من الغضب ، وهو يقول :

ـ الاجتماع لا يمكن تأجيله .

قال (منير) فى حدة :

ـ لن أحضره إذن .

بدا الغضب على وجه والده ، فاستدرك فى سرعة :

ـ لدى اختبار هام فى الكلية صباح الغد .

تطلع إليه والده مليًا ، وهو يدرك أنه كاذب ، إلا أنه لم يملك إلا أن يقول :

ـ ألا يمكنك الحضور بعد الاختبار ؟!

أجابه (منير) فى حماس :

ـ بالتأكيد .

رمقه والده بنظرة صامتة معاتبة ، ثم انصرف وهو يقول :

ـ فليكن . . سأحاول تأخير الاجتماع بقدر الإمكان .

راقبه (منير) وهو ينصرف ، ثم عاد يربت على سيارته ، مغمغمًا فى اعتزاز :

ـ أبى على خطأ هذه المرة .. ستبقين معى إلى الأبد .

لم يستطع النوم تلك الليلة ، وهو يفكر فى (جينا) ، وكيف أنها ستنبهر بالسيارة ، وتنسى (أمجد) ، ولو لحظات ...

مر عليه الوقت بطيئًا ، دون أن يستطيع حتى إغلاق عينيـه ، والفكـرة تدور فى رأسه وتدور ، حتى أشرقت الشمس ، فأسرع يرتدى أفخر ثيابه ، ويحيط معصمه بساعة من الذهب الخالـص ، والتقط سلسلة مفاتيـح ، كان يدخرها لهذه المناسبة ، تتدلـى منها ماسة براقة ، ووضـع فيها مفتاح السيارة الجديدة ، وهبط ليربت عليها مرة أخرى ، قبل أن ينطلق بها إلى الجامعة ...

لم يستطع ـ للهفته ـ انتظار موعد حضور زملائه ، لتلك الجامعة الخاصة ، وإنما انطلق بسيارته الجديدة ، وبأقصى سرعة ، عبر الطريق الدائرى ، فى طريقه إلى الجامعة ...

كان جفناه مثقلين من عدم نومه ، وحماسه يسيطر على عقله ومشاعره ، و ...

وفجأة برزت سيارة النقل الضخمة ، ذات المقطورة الكبيرة ...

وضغط (منير) فرامل سيارته الجديدة بكل قوته ...

ولكن العوامل اجتمعت ؛ لتجعل رد فعله بطيئًا ...

أكثر مما ينبغى ...

وكانت صدمة والده هائلة ، عندما بلغه الخبر ...

ولقد تصاعدت صدمته ألف مرة ، عندما رأى السيارة بعد الحادث ...

لقد ارتطمت بها سيارة النقل الثقيلة ...

ثم عبرت فوقها ...

بكل ثقلها ...

وبأربعة أزواج من الإطارت الهائلة الثقيلة ...

كانت صدمته هائلة ، مع مصرع ابنه ، ووريثه الوحيد ...

وكانت أشد هولاً ، عندما أخبروه أن جسده قد امتزج بحطام السيارة ، وصار من المستحيل تخليص بقاياه من حطام السيارة ...

وبعد عدة محاولات فاشلة ، لم يعد هناك مفر من قبول الحل الأخير والوحيد ...

لا مفر من دفن ابنه مع السيارة ، فى كيان واحد ...

ولقد كانت الجنازة هائلة ، حضرها مئات من أصدقاء الأب المكلوم ، وآلاف من العاملين فى مصانعه ...

وحضرها كل زملاء (منير) ...

حتى (جينا) و(أمجد) ...

ولقد شاهدوا جزءًا فقط من السيارة ...

ولم ينبهروا ...

فقط بكوا وانتحبوا ...

ولكن (منير) ربح رهانه ، وحقق ما أصر عليه منذ البداية ...

لقد ظلت سيارته الجديدة معه ...

إلى الأبد .



٧ـ رنـــــات...

« إش .. إش .. ده إيه الحلاوة دى »

انتفخت أوداج (فتحى) ، عندما استقبله صديقه (حمزة) بهذه العبارة ، فى المقهى الذى اعتاد الجلوس عليه ، فى الحى الشعبى الشهير ، وأحاطت أصابعه بذلك الموبايل الفخم فى زهو واضح ، وهو يلقى جسده على المقعد المعدنى ، قائلاً :

ـ آخر موديل .. فيه كاميرا ..

ضحك صديقه (فتحى) ، وهو يقول :

ـ لطشته منين ده يا واد .. ده يجيله ييجى بألف جنيه .

لوَّح (حمزة) بذراعه كلها مستنكرًا ، وهو يهتف :

ـ يا عم روح .. ده المستعمل بتاعه يعمل ألفين بالميت فى السوق ..

انبهر (حمزة) بالرقم ، الذى يساوى يوميته كعامل محارة ، فى مائة يوم كاملة ، ومال نحوه يسأله :

ـ واتحصلت عليه إزاى ده ياد ..

هزَّ (فتحى) كتفيه ، وهو يقول بنفس الزهو ، وظهره يلتصق بالمقعد فى عنطظة :

ـ زى الناس ..

كان جوابًا عامًا ، لا يعنى شيئًا بالتحديد ، وعلى الرغم من هذا فقد اكتفى به (حمزة) ، وتجاوز سؤاله كله ، عندما أضاف (فتحى) ، فى صوت قوى ، يخالف تمامًا صوته الضعيف المستكين ، الذى التصق به ، بعد أسابيع طويلة من البطالة :

ـ والليلة دى المشاريب على حسابى كمان ..

كانت ليلة نادرة ، دفع فيها (فتحى) حساب المشروبات ، لثلاثة من أصدقائه ، بورقة من فئة العشرين جنيهًا ، وتناول بعض شطائر اللحوم ، وزجاجة من البيرة المثلجة ، قبل أن يستعد للانصراف ، فضحك صديقه (حمزة) ، وهو يودعه ، قائلاً :

ـ ما أنت يا لاطشه ، يا ورثت ورث تقيل ..

ولم يجب (فتحى) عبارته ، أو يعلق عليها ، وهو يتجه نحو البناية ، التى يقيم فى حجرة صغيرة على سطحها ، والتى تسد تلك الحارة الصغيرة بعد ناصية المقهى ..

كانت حجرته تعلو خمسة طوابق ، صعدها وهو يترنح ، من فرط الزهو والنشوة ، وما أن دخل حجرته الصغيرة ، حتى أغلق الباب خلفه ، وأسند ظهره إليه ، وتطلّع إلى ذلك الموبايل الفاخر ، وذهنه يستعيد أحداث بداية الليلة :

كان يسير فى ذلك الشارع المقفر المظلم ، عندما لمح ذلك الشاب ..

شاب فى الخامسة عشرة من عمره على الأكثر ، يرتدى ثيابًا تشف عن الثراء والدعة ، ويمسك ذلك الموبايل الأنيق ..

كان من الواضح أنه قد ضل طريقه ، لسبب أو لآخر ؛ إذ لم يكن من المنطقى أبدًا أن يتواجد شاب مثله ، فى منطقة كهذه ..

وبالنسبة له ، بدت هذه فرصة ، ما بعدها فرصة ..

وفى شراسة اكتسبها من حياته القاسية ، استل مطواته ، واندفع نحو ذلك الشاب ، وصرخ فى وجهه ، يأمره بإعطائه ذلك الموبايل ، وكل ما يحمله من نقود أيضًا ..

وكما توقّع تمامًا ، أصيب الشاب بفزع رهيب ، وأعطاه الموبايل ، وعشرين جنيهًا كان يحملها ، وتضرع إليه أن يتركه لحاله بعدها ..

وكان من الممكن أن يتركه (فتحى) ، بعد أن استولى على ساعته أيضًا ، إلا أن شيطانًا ما فى أعماقه دفعه إلى فكرة خسيسة مجنونة ، لم يفق منها إلا وهو يسحب مطواته من قلب ذلك الشاب المسكين ، الذى اتسعت عيناه عن آخرهما ، فى مزيج من الألم والرعب ، وحاول منع ذلك النهر الدموى ، الذى تفجّر من صدره ، وحملت عيناه نظرة اتهام ، لم تلبث أن تحوّلت إلى لمحة بغض وكراهية ، قبل أن يسقط عند قدمى (فتحى) جثة هامدة ..

وبأقصى سرعته ، انطلق (فتحى) يعدو مبتعدًا ، ويتنقّل من شارع إلى آخر ، حتى بدا له أنه قد ابتعد تمامًا عن مسرح جريمته ، وأن أحدًا لن يصل إليه ، فتوقّف ، والتقط أنفاسه ، وذهب للقاء (حمزة) فى المقهى ..

وعلى فراشه الرث ، شبه المتهالك ، أمسك الموبايل ، وقلَّبه بين يديه ، محاولاً تخمين سعره الحقيقى ، والمبلغ الذى سيحصل عليه ، عندما يذهب لبيعه فى سوق الحرامية ، يوم الجمعة القادمة ..

ولأن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل ، فقد غلبـه النـوم ، وسقط الموبايل من يده على الفراش ، وراح فى سبات عميق ، و ..

وفجأة انطلق رنين الموبايل ..

انطلق على نحو ارتجفت معه أوصاله كلها ، ووثب لها جسده بأكمله ، واتسعت به عيناه ، وهو يحدِّق فيه فى ذعر ، قبل أن ينتبه إلى الموقف ، ويختطفه بحركة حادة ، محاولاً معرفة رقم المتصل ..

إنهم أهل ذلك الشاب حتمًا ، وقد أقلقتهم غيبته ، ويحاولـون الاطمئنان عليه عبر الموبايل ..

ولكن الشاشة كانت خالية ، لا تحمل أية أرقام ، والرنين يتصل ..

ويتصل ..

ويتصل بلا انقطاع ..

وفى أعمق أعماقه ، تصاعد توتر لا محدود ، من ذلك الرنين المتصل ، فقلَّب الموبايل مرة أخرى بين يديه ، حتى عثر على زر إغلاقه ، فضغطه بكل قوته ، وعاد إلى نومه ..

لم يدر كم استغرق فى النوم هذه المرة ، ولكنه استيقظ على نفس النحو المذعور ، وعاد يحدِّق فى الموبايل ، المستقر إلى جواره على الفراش ، ورنينه يتردَّد بصوت تضاعف علوه ، مع صمت الليل ..

ولثوان ، حدَّق فيه بشىء من الذعر ، فهو يتذكَّر جيدًا أنه قد أغلقه تمامًا ..

لم يوقف رنينه فحسب ، ولكنه أغلقه ..

أو ربما خيِّل إليه هذا ..

لم تسعفه ذاكرته جيدًا ، فمال يتطلَّع مرة أخرى إلى الشاشة ، التى لم تحمل أية أرقام النمرة السابقة ، ثم ضغط زر إغلاق الموبايل ، ليتوقَّف الرنين على الفور ..

وفى هذه المرة تساءل ، لماذا ترك الشريحة فى الموبايل ؟!

وجودها هو سبب ذلك الرنين المزعـج ، الذى يثيـر رجفـة عجيبـة فى أوصاله ..

وفى عصبية ، فتح الموبايل ، والتقط منه الشريحة ، واتجه نحو النافذة الصغيرة ، المطلة على الشارع ، وألقاها بكل قوته ..

وعاد للنوم ..

ولكن فجأة انطلق رنين الهاتف مرة أخرى ..

انطلق بصوت أكثر اتصالاً ..

وأكثر ارتفاعًا ..

وهنا حدَّق فيه (فتحى) بمنتهى الرعب ..



لقد انتزع الشريحة ، وألقاها من نافذته ، فكيف يمكن أن ينطلق الرنين ..

وبأصابع مرتجفة ، التقط الموبايل ، وتطلَّع إلى شاشته ، التى لم تحمل أية أرقام كالمعتاد ، ثم استجمع شجاعته وضغط زر الاتصال ، وهو يضع الموبايل على أذنه ..

ولوهلة ، لم يسمع أية أصوات ، ثم خيِّل إليه فجأة أنه يسمع صوتًا باهتًا مبحوحًا ، يأتى من بعيد ، بهمهمة غير مفهومة ..

صوت ذكره بشىء ما وأطلق قشعريرة باردة كالثلج فى أوصاله أيضًا ..

وبحركة حادة ، كمن لدغه عقرب ، ألقى (فتحى) الموبايل بعيدًا ، وتراجع فى فراشه ، محاولاً السيطرة على جسده الذى راح يرتجف كريشة فى مهب الريح ..

وفى أعمق أعماق عقله ، راح يسترجع كل ما سمعه من معلومات عن أجهزة الموبايل بكل أنواعها ..

نعم .. لقد سمعهم يتحدَّثون عن موبايل بروحين ..

موبايل يمكنك أن تضع فيه شريحتين ، برقمين منفصلين ..

هذا الموبايل من ذلك الطراز حتمًا ، وهو ألقى إحدى الشريحتين ، وظلت الثانية داخله ..

نعم ..

هذا ما حدث ..

الفكرة جعلته يقفز ليلتقط الموبايل ، ويعبث فيه مرة أخرى ؛ بحثًا عن تلك الشريحة الثانية ..

وبينما يفعل هذا ، انطلق رنين الموبايل بين أصابعه بغتة ، حتى أنه أطلق صرخة رعب ، وألقاه بعيدًا عنه ..

لم يدر ماذا حدث بالضبط ، ولا كيف حدث هذا ، ولكن الموبايل لم يكد يرتطم بالأرض ، حتى توقَّف فجأة عن الرنين ، وانبعث منه صوت ما ..

صوت لم يبد مسموعًا أو واضحًا من موضعه ؛ لذا فقد اقترب منه فى حذر ، وانحنى يلتقطه بأصابع مرتجفة ، محاولاً فهم ما يقوله ذلك الصوت ..

كان صوتًا عجيبًا ، يبدو وكأنه ينبعث من أعماق سحيقة ، ويردِّد كلمة ما ، اضطر (فتحى) إلى وضع الموبايل على أذنه ليسمعها ..

وسمعها ..

وانتفض جسده كله بمنتهى العنف ..

فذلك الصوت ، الذى يأتى من أعماق سحيقة ، كان يردِّد كلمة واحدة ..

« قاتل .. »

وبكل رعب الدنيا ، انتزع (فتحى) بطارية الموبايل ، وألقاها بكل قوته ، لترتطم بالجدار ، وترتد إلى منتصف الحجرة بعنف ..

ولكن جسده لم يتوقَّف عن الارتجاف ..

تلك الليلة لا تريد أن تمضى أبدًا ، على الرغم من أنه ، ولأوّل مرة فى حياته ، ينتظر شروق الشمس بفارغ الصبر ..

فحجرته بلا كهرباء ، وهو يعتمد دومًا على أضواء الشارع لإنارتها ؛ لأنه لا يملك ما يدفع به تكاليف استهلاك التيار الكهربائى ..

ومنذ سنوات ، اعتاد العيش فى الظلام ، وألفه ..

إلا فى هذه الليلة ..

وبجسد لم تتوقّف ارتجافته ، عاد إلى الفراش ، وجذب الغطاء نصف الممزق عليه ، و ..

وانطلق رنين الموبايل ..

وهوى قلبه بين قدميه بمنتهى العنف ..

مستحيل أن يحدث هذا !!

مستحيل!

ذلك الموبايل الملعون بلا بطارية ..

وبلا شريحة ..

ولكن رنينه ينطلق ، ويدوى فى الحجرة ، وربما فى المنطقة كلها ..

وعلى الرغم من رعبه وهلعه ، وثب يختطف ذلك الموبايل من أرضية حجرته ، واندفع به نحو النافذة ، وألقاه بكل ما يملك من قوة ..

ومن موقعه ، رآه يهوى نحو الأرض ، ورنينه يخفت ..

ويخفت ..

ويخفت ..

وهنا فقط شعر (فتحى) بالارتياح ..

وبالتهالك أيضًا ..

ذلك الانفعال العنيف أرهقه ، وكاد يفقده صوابه ..

وعلى الرغم من رعبه وارتياعه ، سقط رأسه ثقيلاً على فراشه ، وسقط جفناه متثاقلين ، وانهار فى نوم بلا قرار ..

وانطلق رنين الموبايل مرة أخرى ..

وفى هذه المرة ، كاد قلبه يتوقّف ، وهو يثب بكل رعب الدنيا ، ويحدّق فى الموبايل ، المستقر إلى جواره مباشرة ، ورنينه يتصل فى إلحاح ..

لا .. لا يمكن أن يكون هذا حقيقة ..

إنه كابوس ..

كابوس راوده فى نومه ، بسبب ما فعله ..

لقد ألقى الموبايل من النافذة بنفسه ، ولا يمكن أن يعود إليه ، إلا لو كان هذا كابوسًا ..

نعم .. إنه كابوس ، والوسيلة الوحيدة لتجاوزه ، هى أن يواجهه ..

ومع تلك الفكرة الجديدة ، امتدت أصابعه المرتجفة تمسك الموبايل ، وتضغط زر الاتصال فيه ، ثم ارتفعت به إلى أذنه ..

وفى هذه المرة أيضًا .. سمع الكلمة نفسها ..

« قاتل .. »

وفى هذه المرة ، ميَّزها جيدًا ..

إنه صوت ذلك الشاب الذى قتله فى المساء ..

وصوته لا يأتى من أعماق سحيقة ..

بل من قبر ..

قبر فى أعمق أعماق الأرض ..

وانهار كيان (فتحى) كله ، وصرخ :

ـ عايز منى إيه ؟!

وهنا انطلقت صرخة هادرة من الموبايل :

ـ قاتل ..

وفى هذه المرة كانت الصرخة واضحة قوية ، وامتزجت بالصرخة الرهيبة ، التى أطلقها (فتحى) ، التى أيقظت جيرانه كلهم ..

وعندما صعد الجيران إلى حجرته ، كان المشهد بشعًا ، على الرغم من شروق الشمس ..

لقد كان (فتحى) ملقيًا أرضًا جثة هامدة ، والدماء تنزف من أذنيه بغزارة ، وأصابعه متشبثة بموبايل من طراز باهظ الثمن للغاية ..

★ ★ ★



٨ـ حبيبتـــى ...

« حبيبى » ...

امتلأ قلبى بتوتر شديد ، عندما سمعت صوتها ينادينى ...

فى الماضى ، كان قلبى يختلج فرحًا ، كلما سمعت صوتها ، فى أية لحظة من الليل أو النهار ...

كنت أحبها ...

أحبها من كل قلبى وكيانى ...

وكنت أعشق صوتها العذب ، كلما نطق باسمى ، أو همس بحبى ...

أما الآن ، فالأمر يختلف ...

لم أشعر بها وهى تقترب منى ، ولكننى حاولت تجاهل هذا ، متظاهـرًا بالانهماك فى الرسم الهندسى ، الذى يفترض أن أقدمه لرئيسى فى الصباح الباكر ، ولكننى لم أستطع السيطرة على التوتـر المتزايـد فى أعماقـى ، وخاصة عندما سمعت صوتها خلفى مباشرة ، وهى تهمس :

ـ اشتقت إليك .

تجاهلت عبارتها مرة أخرى ، لعلها تنصرف وتتركنى لحالى ، ولكنها واصلت ، دون أن تبالى بتجاهلى لها :

ـ أمازلت تعمل ، حتى ساعة متأخرة .

غمغمت فى توتر :

ـ المفترض أن أقدم هذا ، فى الصباح الباكر .

همست فى نعومة :

ـ ولكننى هنا .

انعقد حاجباى ، وأنا أقول ، فى توتر امتزج بشىء من الحدة :

ـ تأتينى دومًا دون موعد .

قالت فى نعومة :

ـ آتى كلما اشتقت إليك .

رأيتها تدور فى نعومة حول مائدة الرسم ، وتنحنى لتلقى نظرة على الرسوم الهندسية ، قبل أن تبتسم ابتسامة كبيرة ، وتقول :

ـ تشبه فيلا أحلامنا .

فى الماضى كانت ابتسامتها هذه تسحرنى ، أما اليوم ...

« أمازلت تذكر أحلامنا ... »

قالتها بنفس النعومة ، فغمغمت ، محاولاً إبعاد نظرى عنها :

ـ كانت مجرد أحلام .

حمل صوتها رنة حازمة ، وهى تقول :

ـ الأحلام يمكن أن تصبح حقيقة ، مع قليل من الإرادة

نفس العبارة التى كانت ترددها على مسامعى دومًا ، عندما كنا معًا ...

نفس الرنة الحازمة فى صوتها ، والتى تشعرنى بأننى تلميذ ، يقف أمام أستاذته ، التى تلقنه درسًا فى الحياة ...

« الأحلام تتغير ، مع مرور الوقت ... »

قلتها فى شىء من العصبية ، فاعتدلت ترمقنى بنظرة غاضبة ، وهى تقول :

ـ يبدو أنك لم تعد تحبنى .

زفرت فى توتر ، قائلاً :

ـ أرجوك ... أنا منهك فى عملى .

رمقتنى بنفس النظرة ، قبل أن تقول ، فى شىء من الحدة :

ـ كنت تعدنى دومًا بأنك لن تحب سواى .

لم أحاول التعليق على عبارتها ، متظاهرًا بالانهماك فى الرسم ، فتابعت ، وحدتها تتزايد :

ـ لم تعد حتى ترغب فى التحدث إلىّ ..

غمغمت فى توتر :

ـ أهذا وقت الحديث عن الحب ؟!

قالت فى عصبية :

ـ كل الأوقات تناسب الحديث عن الحب .

قلت فى حدة :

ـ وماذا عن وقت العمل ؟!

مالت نحوى ، على نحو ضاعف من توترى ، وهى تقول :

ـ إنه أفضل وقت للحديث عن الحب .

كانت قريبة منى ، على نحو أشعرنى ببرودة فى أطرافى ، فاعتدلت لأبعد وجهى عنها ، وأنا أقول :

ـ لو لم يتسلم رئيسى هذا الرسم صباح غد ، قد أفقد وظيفتى .

اعتدلت بادية الغضب ، وهى تقول :

ـ يبدو أنك قد نسيت أننى من ساعدك فى الحصول على هذه الوظيفة ، التى ترفض اليوم التخلى عنها من أجلى .

كنت أشعر بتوتر بالغ ، كلما نظرت إليها ، فى الأشهر الأخيرة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد أجبرت نفسى على النظر إليها ، وأنا أقول :

ـ لم أنس بالتأكيد ، ولكن ..

لم أستطع إتمام عبارتى ، فقالت فى غضب :

ـ ولكنك نسيت بالفعل .

هززت رأسى ، قائلاً فى توتر ، كاد يبلغ ذروته :

ـ أنت تعلمين أن الظروف كلها تغيرت .



اكتسى وجهها بغضب شديد ، وهى تقول :

ـ الظروف أم القلب ؟!

تطلعت إليها فى صمت ، ودون أن أنبس ببنت شفة ، فتابعت فى حدة :

ـ إنها (بثينة) .. أليس كذلك ؟!

شعرت بارتباك حقيقى ، وأنا أشيح بوجهى ، قائلاً :

ـ (بثينة) مجرد زميلة عمل .

خشيت حقًا النظر إلى وجهها ، وهى تقول :

ـ محاولة سخيفة .

أدرت رأسى فى بطء ، محاولاً النظر إليها ، وكل ذرة فى كيانى تمنعنى من هذا ، وحتى لسانى عجز عن قول أى شىء ، فأضافت هى فى غضب :

ـ تنسى أحيانًا أننى أستطيع رؤية الحقيقة فى عينيك .

مرة أخرى عجز لسانى عن النطق ، فدارت حولى بنفس النعومة ، وهى تقول :

ـ أسلوبك فى التعامل معها ، ونظراتك الحالمة إليها ، وصوتك المفعم بالحرارة ، عندما تتحدث إليها ... كل هذا لا يوحى أبدًا بأنها مجرد زميلة عمل .

غمغمت فى صعوبة :

ـ الواقع أننى ...

قاطعتنى فى حدة :

ـ الواقع أن تلك الحقيرة قد استغلت غيابى ؛ لتتقرب منك ، وتلقى شباكها حولك ، وتوقعك فى حبائلها ، وتحتل مكانى فى قلبك .

غمغمت فى عصبية :

ـ لا تصفيها بالحقيرة .

هتفت :

ـ أرأيت ؟!

مرة أخرى أشحت بوجهى ، دون أن أجيب ...

كنت أعلم أنها ستكشف كذبى ، مهما قلت أو فعلت ...

ولم أستطع أن أبوح لها بالحقيقة ...

فأنا بالفعل غارق فى حب (بثينة) ...

غارق فى عشق رقتها ، وحنانها ، وبساطتها ...

أذوب مع ابتسامتها العذبة ...

أهيم مع كلماتها الرقيقة الدافئة ...

أعشق مجرد التواجد معها فى مكتب واحد ...

إنها بالفعل حبيبتى ...

« لقد وعدتنى بأنك لن تحب سواى ... »

قالتها فى ضراعة باكية ، فالتقطت نفسًا عميقًا ، فى محاولة لتهدئة أعصابى ، قبل أن أغمغم :

ـ أنت تعلمين أننى قد حاولت .

قالت فى مرارة :

ـ المحاولة لا تكفى .

غمغمت فى عصبية :

ـ انفصالنا لم يكن بإرادتى .

قالت فى لهفة :

ـ لو أنك تقصد المشاكل المادية ، فمن الممكن أن ...

قاطعتها فى حدة :

ـ تعلمين أننى لم أقصد هذا .

تراجعت فى أسى ، قائلة :

ـ أنسى أحيانًا .

التقطت نفسًا عميقًا آخر ، وقلت :

ـ لقد احتملت فترة طويلة ، ولكن من الضرورى أن أواصل حياتى .

رمقتنى بنظرة حزينة ، وهى تقول :

ـ مع (بثينة) ؟!

خفضت عينى ، وأنا أتمتم فى توتر :

ـ هى أو غيرها .

صمتت لحظات ، قبل أن تقول فى حزن :

ـ هى أفضل من غيرها .

شعرت بصوتها يبتعد عنى ، وهى تضيف :

ـ كانت صديقة عمرى على الأقل .

بقيت صامتًا ، لا أحاول التعليق على عبارتها ، حتى انصرفت ، وأيقنت أنها لم تعد هناك ، فالتقطت نفسًا عميقًا آخر ، وتطلعت إلى لوحة الرسم الهندسى ...

نفس الحوار فى كل ليلة ...

ونفس النهاية ...

أعترف أننى كنت أحبها من كل كيانى ...

ولكن الحياة يتحتم أن تستمر ...

وتساءلت وأنا أعاود عملى : هل سينتهى هذا العذاب يومًا ، لو أننى تزوجت (بثينة) ، وواصلت حياتى ، أم أن حبيبتى السابقة ستواصل زياراتها اليومية لى ، منذ أن ..

ماتت .

★ ★ ★



٩ ـ زهـور الربيـــع ...

« هل تؤمن بالأشباح والعفاريت ؟!... »

لم يكد (برعى) يسمع السؤال ، من تلك الصحفية الشابة ، التى ألقته عليه فى اهتمام ، حتى انفجر يقهقه ضاحكًا ، وهو يشير بكلتا يديه ، قائلاً :

ـ أية أشباح وأية عفاريت يا آنسة ؟!... إننى تربـى أبًا عن جـد ، ولـم أختبر مثل هذه الأشياء فى حياتى قط ، على الرغم من أننـى أقيـم وسط المقابر ، منذ وعت عيناى الدنيا .

بدت الصحفية الشابة أكثر اهتمامًا ، وهى تسأله :

ـ إذن فأنت تعتبر كل هذا مجرد خرافات .

هتف فى حماس :

ـ بالتأكيد .

ثم مال نحوها ، مستطردًا :

ـ هذه أمور يتداولها العامة ، تعبيرًا عن خشيتهم من الموت ، أما نحن الذين نحيا مع الموت ، فهى لا تؤثر فينا قط .

قالت الصحفية الشابة ، وهى تنهى حديثها :

ـ من الواضح أنه لديك فلسفة خاصة .

أشار بسبابته ، قائلاً :

ـ بل أنا رجل واقعى ، خبر الحياة طويلاً ، وليس لدى مكان للخرافات ومخاوف الطفولة .

أنهت الصحفية الشابة حديثها ، وغادرتـه وهى تسرع الخطى ؛ حتى تخرج من منطقة المقابر ، قبل غروب الشمس ، فتابعهـا فى سخـرية ، مغمغمًا :

ـ ويقولون إن الصحافة تتابع الأمور الهامة .

هز كتفيه مستنكرًا ، واستنشق الهواء فى قوة ، ثم سعل مرتين ، بسبب الأتربة التى تميز دومًا هواء موسم الربيع ، ودلف إلى منزله ، وهو يهتف بزوجته ، لتعد له طعام الغداء ...

ومع مهبط الليل ، ساد منطقة المقابر هدوء وسكـون شامـلان ، اعتادهما (برعى) منذ طفولته ، وجلس هـو على باب منـزله الصغير ، الذى يتوسط المقابر ، يدخن أنفاس الشيشة فى استمتـاع ، ويسعل كل حين وآخر ، مفسدًا سكون وهدوء المنطقـة ، التى خلت تمامًا من الناس ، مع اقتراب عقارب الساعة من منتصف الليل ، فنهض يلملم أدواته ، استعدادًا للنوم ، و ...

وفجأة ، تناهت تلك الأصوات إلى مسامعه ...

أصوات واضحة ، لطفلين يمرحان وسط المقابر ، وضحكاتهما البريئة تتردد فى المكان ، على نحو كان يمكن أن يرقص له قلبـه طربًا ، لـو أنـه سمعه فى مكان آخر ، أو وقت آخر ...

وبكل دهشته ، سار (برعى) بين المقابر ، متتبعًا أصوات الطفلين وضحكاتهما ، حتى لاحا له أخيرًا ، وهما يعدوان فى مرح ، حول قبر حديث نسبيًا ، لزوجة شابة ، لقيت مصرعها فى سن مبكرة ، بعد صراع مع مرض عضال ...

كانا يطلقان ضحكاتهما المرحة ، وهما يتسابقان فى سعادة ، فى هذا الوقت المتأخر ، فهتف بهما ، وقد حول توتره إلى عصبية مفتعلة :

ـ ماذا تفعلان هنا ؟!

للوهلة الأولى ، خُيل إليه أنهما لم يسمعا نداءه ، إلا أنهما سرعان ما التفتا إليه ، وتطلعا نحوه فى خوف ، جعلهما يقتربان من بعضهما البعض ، ويتلاصقان فى خوف ...

كانا طفلاً وطفلة ، لا يتعدى عمرهما الخامسة ، ويتشابهان إلى حد كبير ، بملامحهما الجميلة البريئة ، التى جعلتهما يبدوان كزهرتين يانعتين من زهور الربيع ، نبتتا وسط الموت ، حتى أنه شعر بالعطف والشفقة نحوهما ، فاقترب منهما ، وهو يقول فى حنان ، محاولاً تهدئتهما :

ـ من أنتما ؟!... من أين جئتما ، وماذا تفعلان هنا ؟!

تراجع الطفلان فى خوف ، وقد التصقا ببعضهما أكثر ، فواصل اقترابه فى حذر ، وهو يقول فى حنان أكثر :

ـ لا تخافا منى ... اقتربا ... عندى لكما بعض الحلوى .

تراجع الطفلان فى خوف أكبر ، ثم افترقا فجأة ، ودار كل منهما فى اتجاه مخالف للآخر ، حول ذلك القبر الحديث نسبيًا ، فأسرع (برعى) نحوهما ، هاتفًا :

ـ لا تخافا .

دار حول القبر بدوره ، قبل أن يتوقف ذاهلاً ...

فعلى الرغم من أنه قد رآهما بعينيه ، وهما يدوران حول ذلك القبر ، إلا أن الساحة الصغيرة خلفه كانت خالية تمامًا ...

لم يكن بها أثر للصغيرين ...

أو لأى شخص آخر ...

ولثوان ، جمد (برعى) فى مكانه ، وشعر بأوصاله ترتجف ، فبسمل وحوقل ، وتلفت حوله أكثر من مرة ، قبل أن يغمغم مضطربًا :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

دار حول القبر مرتين ، فلم يجد أدنى أثر للطفلين ، فبسمل وحوقل مرة أخرى ، ثم ابتعد فى خطوات سريعة ، عائدًا إلى منزله ...

ولكن فجأة ، سمع ضحكات الطفلين مرة أخرى ...

وفى رعب ، لم يشعر بمثله فى حياته قط ، التفت يحدق فيهما ...

كانا قد عاودا لعبهما ، على النحو نفسه ، وكأنهما يعيدان المشهد من بدايته ، وضحكاتهما تتصاعد فى مرح وسعادة

وفى هذه المرة ، وقف يحدق فيهما فى صمت ...

لقد مضى أكثر من عام ، منذ أودع طفلاً أحد هذه المقابر ، ولقد كان طفلاً واحدًا ، وليس طفلين ...

ثم إنه لم يؤمن يومًا بالأشباح والعفاريت ...

دار صراع عجيب فى داخله ، وهو يراقب الطفلين يمرحان ويلعبان ، ثم استجمع شجاعته ، ليقول فى صوت مرتجف :

ـ ماذا تريدان ؟!

لم يكن يأمل شيئًا من سؤاله ، إلا أنه فوجئ بهما يتوقفان فجأة ، فور أن نطق به ، ويلتفتان إليه فى صمت ، وعيونهما تحمل حزنًا شديدًا ، حار فى تفسيره ، فكرر عليهما سؤاله ، وقد بدأ يتماسك نسبيًا ...

ودون أن ينطق أحدهما بكلمة ، أشارا معًا إلى ذلك القبر الحديث ، ثم امتلأت عيونهما بالدموع ، على نحو جعله يتساءل فى حذر :

ـ أهى أمكما ؟!

علا نحيبهما فجأة ، وهما يتشبثان بالقبر ، ويبكيان فى حرارة ، أدمت قلبه ، فاتجه نحوهما ، قائلاً فى حنان مشفق :

ـ لا تبكيان .

مع اقترابه ، التفتا إليه بنفس الخوف السابق ، إلا أنهما لم يدورا حول القبر هذه المرة ، وإنما وثبا نحوه ، وجعلا جسد (برعى) يرتجف ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، عندما اختفيا فى شاهده فجأة ...

ولقد ظل جسد (برعى) يرتجف ، لخمس دقائق كاملة ، بعد اختفائهما ، وعيناه المتسعتان تحدقان فى قبر المرأة ، قبل أن تنجح قدماه فى أن تتحركا نحو القبر ؛ ليفحصه فى خوف ، امتزج بحسه المهنى ...

ومع الوهلة الأولى ، أدرك أن يدًا قد عبثت بهذا القبر ، منذ فترة قريبة ...

وهى يد غير محترفة حتمًا ...

لقد حفرت وأزاحت بلاطة القبر فى عجالة ، ثم أعادت وضعها ، وأهالت عليها التراب ، دون أن تسقى الأرض بالماء كالمعتاد ...

كل هذا أدركه من النظرة الأولى ...

وكل هذا رواه لضابط نقطة الشرطة ، فجر اليوم التالى ...

وفى حضور رجال الشرطة ، ثم فتح قبر المرأة ...

وكانت الصدمة ...

جثة المرأة ترقد ساكنة هادئة ، وإلى جوارها جثتان ، لطفل وطفلة ، فى عمر الزهور ، يرتديان الثياب نفسها ، التى رآهما (برعى) يرتديانها ، وهما يلعبان حول القبر ، فى الليلة السابقة ...

وعندما فحص الطبيب الشرعى المرافق الجثتين ، أشارت إلى أن الطفلين قد لقيا مصرعهما قتلاً بالسم ، منذ ثلاثة أيام ...

وضرب برعى كفًا بكف ، وهو يستعيد ذكرى الليلة الماضية ، فى حين بدأت التحقيقات حول واقعة القتل ...

وبسرعة راحت الحقائق تتكشف ...

فالمرأة هى أم الطفلين ، وقد تم قتلها بالسم أيضًا ، ليصبح بعدها زوجها الحالى وصيًا على ولديها من زوج سابق ، لقى ربه بعد ولادتهما بقليل ، وترك لها ولهما ثروة معقولة ...

وكان من الطبيعى أن يكون زوج الأم هو المشتبه فيه رقم واحد ، ولكن التحقيقات أثبتت أنه كان يعالج فى مستشفى بمدينة (الإسكندرية) ، خلال الأسبوع الذى تمت فيه جريمة قتل زهرتى الربيع ...

وعلى الرغم من ثقة الجميع بأنه مدبر الحادث ، إلا أن أحدًا لم يستطع إثبات هذا ، وخاصة مع عدم العثور على الفاعل الأصلى ، فلم يكن هناك بد من إطلاق سراح زوج الأم ؛ لعدم كفاية الأدلة ...

وفى جلسته الليلية المعتادة ، بدأ (برعى) يجمع ساكنى المقابر من الأحياء حوله ، ويروى لهم قصته ، وكل منهم يضرب كفًا بكف ، حتى كانت تلك الليلة ...

كان القمر بدرًا ، والناس سئمت سماع قصته ، فانفضوا من حوله ، وجلس هو يدخن شيشته كالمعتاد ...

ثم لمح ذلك الرجل ...

رجل نحيل ، متوسط الطول ، يسير بخطوات مضطربة ، وسط المقابر ، وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة ...

وعندما مر أمامه ، تعرفه (برعى) على الفور ...

كان زوج الأم ، بشحمه ولحمه ...

ولكنه كان يختلف تمامًا ، عن آخر مرة رآه فيها ، قبيل الإفراج عنه مباشرة ...

أيامها كان واثقًا ، متغطرسًا ، يتحدث بنعرة عجيبة ، ويتحدى أن يثبت أى مخلوق تورطه فى جرائم القتل ...

أما هذه المرة ، فقد بدا ذاهلاً ، رث الثياب ، يسير كما لو أنه قد فقد كل شىء فى الدنيا ...

وفى فضول حذر ، تبعه (برعى) ...

كان يسير مباشرة نحو قبر زوجته ، الذى أعيد إغلاقه فى إحكام ...

ولم يفهم (برعى) ما يحدث ، فتقدم أكثر فى حذر ، ورأى الرجل يسقط على ركبتيه أمام القبر ، وهو يقول فى ضراعة بائسة :

ـ اجعليهما ينصرفان ... إنهما يزوراننى كل ليلة ، وأراهما يلعبان ويلهوان ، فى أماكنهما المعتادة .

سرت قشعريرة فى جسد (برعى) ، فأرهف سمعه أكثر ، والرجل يبكى فى انهيار ، ويلمس شاهد القبر ، مواصلاً :

ـ رجوتهما أن يرحمانى ، واعتذرت لهما عما فعلته ، فأشارا إلى صورتك ، وعلمت أنهما يطلبان منى القدوم إليك

تحولت قشعريرة (برعى) إلى غضب ، جعله يرهف سمعه أكثر وأكثر ، والرجل يتابع ، فى انهيار تام :

- ولقد أتيت لأعترف أمامك ... لقد أستأجرت قاتلاً ، واخترعت موعد العلاج لتنفيذ جريمته ... أنا أعطيته السم ... نفس السم الذى قتلتك به ، عندما سافرت إلى (لبنان) ... أنا فعلتها ، أنا قتلتك وقتلتهما ... إننى أعترف ... ولكن ارحمينى ... اجعليهما يبتعدان عنى ...

شعر (برعى) بغضب شديد ، عندما سمع تلك العبارات الأخيرة ...

كان الرجل منهارًا بحق ، إلا أنه لم يشعر تجاهه بذرة من الشفقة ...

لقد رأى أمامه وحشًا مفترسًا ، قتل زوجته ، وزهرتيـن بريئتين ، دون ذرة من الرحمة أو الشفقة ، ببرائتهما وطهارتهما ...

ولقد كان يهم بالاتجاه نحوه ، ليعنفه فى شدة ، أو يلقى القبض عليه ، ويخبر الشرطة بما سمعه منه ، عندها لاحظ فجأة أمرًا عجيبًا ، جعل انتفاضة عنيفة تسرى فى جسده ...

لقد كانت بلاطة قبر المرأة ، التى أحكم إغلاقها بنفسه ، مرفوعة ...

وكان القبر مفتوحًا ...

وفى نفس اللحظة ، التى أدرك فيها هذا ، اتسعت عيناه عن آخرهما ، مع مرأى الطفلين ، وهما يظهران فجأة ، على جانبى الرجل ، الذى أصيب برعب شديد ، جعله يتراجع ، صارخًا :

- لا ... لا ... الرحمة .

كان الطفلان يتقدمان نحوه فى بطء ، جعله يهب واقفًا على قدميه ، وهو يتراجع نحو القبر المفتوح ، ملوحًا بذراعيه فى ارتياع ، هاتفًا :

- اتركانى ... لم أعد أحتمل ... لم أعد أحتمل ...

تعثرت قدمه فى بلاطة القبر مع تراجعه ، فاختل توازنه ، ورآه (برعى) يضرب بذراعيه فى الهواء ، بكل رعب الدنيا ، محاولاً التشبث بشىء ما ، قبل أن يهوى جسده كله داخل القبر ، ويسمع (برعى) صوت ارتطامه بأرضيته ...

ومع تأوهات الرجل داخل القبر ، التفت الطفلان ينظران إلى (برعى) وعيونهما تحملان براءة الدنيا كلها . .

لم ينطق أحدهما كلمة واحدة ، ولكن رسالتهما وصلت إليه بوسيلة ما ...

وكما لو أنه مسير ، استدار (برعى) عائدًا لمنزله ، والتقط دلوًا من الماء ، وكيسًا من الأسمنت ، وعاد يحمله إلى قبر المرأة ...

وعلى الرغم من أن الطفلين لم يغادرا مكانهما ، ولم يرفعا عيونهما عنه ، وقف بينهما يلقى نظرة على الرجل ، الذى حاول الخروج من القبر ، وهو ينظر إلى جثة المرأة فى رعب ، مرددًا فى انهيار :

- ارحمينى ... ارحمينى .

وبلا أية مشاعر تقريبًا ، وكأنما تضغط عليه قوة تفوق إرادته ، تجاهل (برعى) تأوهات الرجل ، ودفع بلاطة القبر ؛ ليعيدها إلى موضعها ، والرجل يصرخ فيه ، فى رعب لا مثيل له :

ـ ماذا تفعل ؟!... ماذا تفعل ؟!..

ومتجاهلاً صرخاته تمامًا ، أغلق (برعى) القبر ، وراح يدعم بلاطته بخليط سميك من الأسمنت والماء ؛ ليحكم إغلاقه تمامًا ، وصوت الرجل يتناهى إلى مسامعه ضعيفًا ، وهو يصرخ متوسلاً :

ـ أخرجنى من هنا ... لا تتركنى معهم ... أرجوك ...

وفى هدوء عجيب ، زاد (برعى) من كمية الأسمنت والرمال ، حتى حجب صوت الرجل تمامًا ، ثم تراجع فى بطء ، وجلس على شاهد قبر آخر ، يراقب قبر المرأة فى بلادة عجيبة ، فى حين رفع الطفلان عيونهما إليه ، فى نظرة امتنان عجيبة ، سرت لها قشعريرة باردة أخرى فى جسده ...

ثم فجأة ، حدث ما جعل قلبه يتوقف لحظة عن النبض ...

لقد شاهد تلك المرأة ...

شاهدها تقف على بلاطة قبرها هادئة ساكنة ، تنظر إليه بنفس نظرة الامتنان ، وهى تفتح ذراعيها ...

وفى سعادة ، اندفع الطفلان نحوها ، فاحتضنتهما فى حنان عجيب ، قبل أن تمنحه نظرة امتنان أخرى ، ثم تغوص مع ولديها ، عائدة إلى قبرها ...

ولساعة كاملة ، ظل (برعى) جالسًا على شاهد القبر الآخر ، يحدق فى قبر المرأة ، دون أن ينبس ببنت شفة ...

منذ تلك الليلة ، واصل (برعى) جلسته المعتادة ، أمام منزله ، وسط المقابر ، يدخن شيشته فى هدوء وصمت ، محاولاً إقناع عقله بنسيان ما حدث ...

الشىء الوحيد الذى تغير ، هو أنه لم يعد يروى شيئًا لأى مخلوق ...

فقط أصبح أكثر اهتمامًا بنسمات الربيع ...

وزهور الربيع .

★ ★ ★



١٠ ـ شـــات . . .

« العشاء يا (عبير) ... »

بلغ النداء مسامع (عبير) ، وهى تجلس أمام شاشة الكمبيوتر ، فانعقد حاجباها فى ضيق ، ومطت شفتيها فى امتعاض ، وهى تواصل الكتابة على لوحة الأزرار ؛ لتحكى لإحدى صديقات (الشات) ما حدث معها ، خلال رحلة الصيف فى الساحل الشمالى ...

وتكرر نداء الأم مرتين ، دون أن تجيب (عبير) ، فطرقت الأم باب حجرتها ، وهى تقول فى يأس ، يبدو أنها قد اعتادته :

ـ ألن تتناولى العشاء معنا ؟!

هتفت (عبير) ، دون أن تتوقف عن مواصلة (الشات) :

ـ كلا ... لقد تناولت شطيرة منذ قليل .

زفرت أمها ، مغمغمة :

ـ أنت وشأنك .

لم تبال (عبير) كثيرًا بضيق أمها ، التى يئست من محاولات انتزاعها من أمام الكمبيوتر ، الذى أدمنت الجلوس أمامه ، منذ تخرجت من كليتها ، منذ أكثر من عام ، لم تحاول خلاله البحث عن عمل ، ولا مرة واحدة ، وكأنها قد وهبت حياتها للكمبيوتر ، ولذلك (الشات) ، الذى صنعت منه حياتها الاجتماعية كلها ...

أما (عبير) فقد انتهت من (الشات) مع زميلتها ، ثم انتقلت إلى زميلة أخرى ، فى شغف غير طبيعى ، جعل الساعات تمضى ، وأسرتها تنام ، وهى مستمرة أمام الكمبيوتر ...

وعندما قررت أخيرًا ، مع اقتراب الفجر ، أن تأوى إلى فراشها ، ظهر ذلك الزائر فجأة ، على صفحة (الشات) الخاصة بها ...

(ع . ج) ... هكذا عرف نفسه ، قبل أن يتحدث معها عن رحلتها الصيفية ...

واتسعت عيناها فى دهشة بالغة مستنكرة ...

إنها لم تعرف (ع . ج) هذا من قبل ، ولم تجر أى (شات) معه مسبقًا ، وعلى الرغم من هذا ، فهو يذكر لها أمورًا ، لم تخبرها حتى لأعز صديقات (الشات) ...

وفى غضب ، سألته (عبير) عمن يكون ...

وفى بساطة ، أخبرها أنه شخص شديد الإعجاب بها ، ويرغب فى صداقتها ...

وعلى الرغم من دهشتها واستنكارها ، دفع الفضول (عبير) إلى أن تسأله : كيف عرف كل هذه الأمور عنها ؟!

وفى سرعة مدهشة ، تفوق قدرة أى إنسان على الكتابة ، ظهر الجواب على الشاشة ...

« أنا أعرف عنك أكثر مما يمكنك تصوره ... »

لم يرق لها الجواب ، وفكرت لحظة فى إغلاق الكمبيوتر ، ولكن الفضول دفعها إلى أن تسأل ...

« مثل ماذا ؟!... »

وبنفس السرعة المدهشة ، ظهر الجواب ...

« أعرف أنك كنت تفكرين الآن فى (أشرف) ، ذلك الشاب الوسيم ، الذى التقيت به فى الساحل الشمالى ، والذى يمتلك سيارة سوداء ، من طراز (بى. إم. دابليو) ... »

خفق قلبها فى عنف ، وبدا لها الجواب مستفزًا ، فهى بالفعل كانت تفكر فى (أشرف) هذا ، ولا أحد سواها يعلم ، أو يمكن أن يعلم بهذا !!...

ولكن هناك من يمكن أن يستنتجه ...

إنه (أشرف) نفسه ...

ربما هو يمازحها ، واثقًا من أنها تفكر فيه طوال الوقت ، بعد أن بهرها بوسامته وشدة ثرائه ، منذ أقل من شهر ...

نعم ... هو (أشرف) حتمًا ؛ فهى لم تخبر أحدًا عنه ، حتى هذه اللحظة ...

إنه هو دون سواه ...

وبسرعة ، كتبت على الشاشة ...

« أنت (أشرف) ... أليس كذلك ؟!... »

وما أن رفعت سبابتها عن آخر حروف لوحة الأزرار ، حتى ظهر الجواب على الشاشة ...

« (أشرف) شاب تافه ، لا يستحقك ... »

أدهشتها سرعة ظهور الأجوبة ، فتراجعت لحظة فى مقعدها ، تحاول فهم ما يحدث ...

مستحيل أن يكون هذا شخصًا آخر ...

لا أحد يعلم بأمر (أشرف) سواها !!...

ولكن من يمكن أن يكون هذا ؟!...

وكيف يضع إجابات أسئلتها بهذه السرعة ؟!...

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تحاول البحث عن الجواب ...

ربما هو (أشرف) ، ولكنه يختبر مشاعرها نحوه ...

ربما ...

وربما أعد الإجابات كلها مسبقًا ، مستنتجًا حيرتها ، إزاء هذه المعلومات والأسئلة ...

من المستحيل أن يكون قد روى الأمر لأحد أصدقائه ، وتركه يعبث بها ...

مستحيل تمامًا ...

صحيح أنها لم تتعرفه جيدًا ، ولكنه لم يبد لها من تلك النوعية أبدًا ...

وفجأة ، وبينما عقلها منشغل بالبحث عن إجابات تساؤلاتها ، ظهرت عبارة على الشاشة ...

« لا تشغلى عقلك بالتفكير ، فأنا لست صديقًا لذلك التافه (أشرف) ، الذى ينافسنى الإعجاب بك ... »

وانتفض جسدها فى دهشة وانفعال ...

كيف عرف ما تفكر فيه ؟!..

كيف ؟!...

كيف ؟!...

وبسرعة ، نقلت سؤالها إلى الشاشة ...

« هل تقرأ أفكارى ؟!... »

وفى نفس اللحظة ، أتاها الجواب ...

« بالتأكيد . . . أقرأ كل ما تفكرين فيه ... »

انعقد حاجباها فى شدة ، وفكرت فى أنه شاب عابث حتمًا ، يعلم أمر علاقتها بـ(أشرف) ، بوسيلة ما ، ويستغل هذا لإخافتها والعبث بها ...

وفى ذهنها ، قررت أن تفكر فى أمها ، وتسأله أن يقرأ أفكارها ...

وقبل أن تمد أصابعها ، لكتابة العبارة ، فوجئت بكلمة واحدة تظهر على الشاشة ...

« فى أمك ... »

لم تكن قد كتبت العبارة بعد ، لذا فقد جعلها الجواب تثب من مقعدها ، وتتلفت حولها فى خوف ، قبل أن تكتب ...

« من أنت بالضبط ؟!... أرجوك ... »

مضت لحظات من السكون ، وهى تنتظر الجواب فى لهفة ، ولكنها لم تحصل عليه ، طوال الدقائق الخمسة التالية ، فكتبت فى سرعة ..

« أين ذهبت ؟!... »

أتاها الجواب على الشاشة ، بأسرع مما تتوقع ...

« لماذا ؟!... هل افتقدتينى ؟!... »

انتفض جسدها مرة أخرى ، وترددت لحظة ، قبل أن تكتب فى حزم ...

« سأغلق الكمبيوتر الآن ... »

أتاها الجواب ، قبل أن تتم العبارة ..

« لن يمكنك هذا ... »

شعرت بعصبية شديدة ، وهى تقول لنفسها :

ـ من يظن نفسه ؟!... هل تصور أننى لا أستطيع إغلاق الكمبيوتر ؟!...

واهم هو ، لو تصور هذا .

وبكل العناد ، دفعت سبابتها ، وضغطت زر إغلاق الكمبيوتر ، و ...

ولم يستجب الجهاز ...

تراجعت فى دهشة ، وحدقت فى شاشة الكمبيوتر فى ذهول ، مع العبارة التى ارتسمت عليها ...

« ألم أخبرك ؟!... »

انتابها خوف شديد ، وهى تضغط زر إغلاق الكمبيوتر مرة ...

وثانية ...

وثالثة ...

ورابعة ...

وخامسة ...

ولم يستجب الكمبيوتر لأية محاولة ...

لقد ظلت شاشته مضاءة ، وحملت عبارة صارمة ...

« لن يمكنك إغلاق هذا الكمبيوتر ، وقطـع (الشات) بيننا ، إلا بإرادتى أنا ... »

انتفض جسدها ، وهى تتساءل فى رعب ...

أهذا فيروس جديد ، من فيروسات الكمبيوتر ؟!...

هل دس (ع.ج) هذا فى جهازها فيروسًا جديدًا ، يمنع إغلاق الكمبيوتر ؟!... ولكن كيف فعلها ؟!... كيف ؟!...

حاولت أن تغلق صفحة (الشات) ؛ لتعيد فحص جهاز الكمبيوتـر ، عبـر برنامج مضاد للفيروسات ، إلا أن الصفحة أيضًا لم تستجب ، فى حين حملت الشاشة عبارة جديدة ...

« دعينى ألتقى بك أولاً ، وبعدها سيستجيب لك الكمبيوتر ... »

لم تحاول الرد على عبارته هذه المرة ، وجسدها ينتفض فى قوة ، وإنما تراجعت بمقعدها ، وراحت تحدق فى العبارة فى ذهول ، قبل أن تندفع فجأة ، وتنتزع قابس الكهرباء ، المتصل بالكمبيوتر ...

ووفقاً لأى مقياس فيزيائى فى الوجود ، كان المفترض أن يغلق هذا الكمبيوتر على الفور ، إلا أن هذا ـ وللعجب ـ لم يحدث !!...

مع غياب التيار الكهربى ، ظلت شاشة الكمبيوتر مضـاءة ، وتراصت عليها عبارة جديدة ...

« دعينى ألتقى بك أولاً ... »

كان جسدها كله ينتفض رعبًا ، وغمغمت بصوت مرتجف :

ـ ولكن هذا مستحيل !...

لم يكن جهازها مزوّدًا بميكروفون لنقل الصوت ، وعلى الرغم من هذا ، فقد جاءت العبارة التالية لتثير كل فزعها ...

« مع مثلى ، لا يوجد مستحيل ! ... »

راح جسدها ينتفض فى قوة ، وعجزت ساقاها عن حملها خارج مقعدها ، وعجز حتى حلقها عن الصراخ ، أو الاستنجاد بأحد ...

وعلى الشات ، ظهرت العبارة نفسها تتكرر ...

« فقط دعينى ألتقى بك . ... »

وبكل صعوبة ، غمغمت :

ـ كيف ؟!...

أتاها الجواب على الشاشة ، وكأن (ع . ج) هذا يسمعها ...

« اطلبى منى أن ألتقى بك . ... »

غمغمت فى رعب :

ـ متى ؟!

ومرة أخرى أتاها الجواب فى سرعة ...

« الآن .. اطلبى منى الآن ... »

كان الرعب يملأ كيانها كله ، والدموع تنهمر من عينيها ، من شدة رعبها ، وعلى الرغم من هذا فقد غمغمت :

ـ فليكن ... لو أن هذا ينهى ما أنا فيه .

حملت الشاشة كلمة واحدة بحروف كبيرة ...

« اطلبيها ... »

هتفت بصوت مختنق :

ـ التق بى ... الآن ..

لم تكد تنطقها ، حتى انطفأت الشاشة فجأة ، ودوت فرقعة مكتومة فى الحجرة ، وهوى قلب (عبير) بين قدميها ، عندما ظهر شخص إلى جوارها بغتة ، وهو يقول :

ـ لم يكن من الممكن أن ألتقى بك ، دون أن تطلبيها صراحة .

واتسعت عينا (عبير) عن آخرهما ، فى رعب ما بعده رعب ، مع ذلك الوجه شديد الحمرة ، وعيناه المشقوقتان طوليًا كعيون الثعابين ، وتراجعت بمقعدها فى عنف ، فتهاوى بها ، وارتطم رأسها بطرف فراشها ، فسقطت فى عنف ...

واستيقظت ...

وفى رعب ، حدقت فى شاشة الكمبيوتر المضاءة أمامها ، والتى تحمل صفحة الشات الخاصة بها ، والتى ليس عليها أثر لمحادثاتها مع (ع . ج) هذا ...

وفى ذعر ، تلفتت حولها ، قبل أن تطلق زفرة عصبية ، وتغمغم :

ـ يا إلهى !.. لقد كان كابوسًا رهيبًا ... لا ريب فى أن النوم قد غلبنى ، أمام شاشة الكمبيوتر ، فكان هذا الكابوس ...

ضغطت زر إغلاق الكمبيوتر ، فاستجاب لها فى يسر ، ونهضت إلى فراشها ، مع نسمات الصباح الأولى ، وهى تتمتم :

ـ لابد وأن أقلل من ساعات جلوسى أمام (الشات) ... أمى كانت على حق ... هذا يصيب العقل بإجهاد شديد .

رقدت فى فراشها ، وهى تستعيد ذكرى ذلك الكابوس الرهيب ، وحاولت أن تبتسم ، وهى تغلق عينيها ، مغمغمة :

ـ ولكن لماذا (ع . ج) .. أى شىء يمكن أن يعنيه هذا ؟

« يعنى عفريت من الجن ... »

العبارة جعلتها تقفز من فراشها بكل رعب الدنيا ، ووجدته يقف أمامها ، وذيله يتلاعب خلفه ، وهو يبتسم بأنيابه الحادة ، قائلاً :

ـ هكذا يطلقون علينا ...

وصرخت (عبير) ...

وصرخت ...

وصرخت ...

ولم يسمعها أحد ...

على الإطلاق .



١١ ـ الخـــــوف ...

المكان كله لا يوحى بالارتياح على الإطلاق ...

الضوء شديد الخفوت ...

الجدران شبه المتهالكة ...

رائحة الرطوبة التى تزكم الأنوف ...

أصوات الحشرات ، التى دفعها الربيع للتغازل ، فى موسمها السنوى ...

وهو لم يشعر بالراحة ، منذ جاء إلى المكان ...

ولكن الجميع قالوا : إنه سيجد علاجه هنا ...

وعليه أن ينتظر ...

ويحتمل ...

حاول أن يسترخى ، على ذلك (الشيزلونج) القديم ، الذى اهترأت أطرافه ، ولكنه لم ينجح فى هذا أبدًا ...

ترى لماذا يثق الكل فى ذلك المعالج ؟!..

أية إنجازات يحملها تاريخه ، فى هذا المجال ؟!...

ولماذا هذا المكان ؟!..

لماذا ؟!...

شعر قلبه بذلك الخوف العجيب ، عندما تناهت إلى مسامعه أصوات المارة فى الخارج ، فانكمش فى مكانه ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، ثم حاول أن يغلقهما ؛ ليقنع نفسه بأنه فى مكان آخر ...

ولكن أصوات المارة تزايدت ...

وشعور الخوف داخله تصاعد ...

وتصاعد ...

وتصاعد ...

وعلى الرغم منه ، وعلى الرغم من أن هذا غير معتاد ، وجد جسده يرتجف ، على الرغم من محاولاته التماسك ...

ثم شعر بوصول المعالج ...

وفى سرعة فتح عينيه ، يحدق فيه بشدة ...

كان شديد النحول ، غائر العينين ، شاحب الوجه ، أشعث الشعر ، يرتدى معطفًا كان يتمتع باللون الأبيض ، منذ عشر سنوات على الأقل ، وأسفله يبدو سروال من الجينز ، ضاع لونه من فرط القذارة ...

وبلا مبالاة ، جلس المعالج على مسافة نصف متر منه ، وأمسك ملفه ، وراح يقرأ أوراقه فى سرعة ، قبل أن يهز رأسه قائلاً :

ـ لم أر حالة كهذه من قبل أبدًا !!..

غمغم هو فى أسى ، يمتزج بلمحة خجل :

ـ أعلم هذا .

هز المعالج رأسه مرة أخرى ، ومال نحوه يسأله :

ـ لماذا تخاف منهم ؟!

أجابه فى أسى :

ـ لست أدرى ...

سأله :

ـ هل تتصور أنهم سيحاولون إيذاءك ؟!..

تساءل ، وهو يزداد انكماشًا :

ـ ولِمَ لا ؟!...

هز المعالج كتفيه هذه المرة ، وهو يقول :

ـ لأنه ما من سبب لهذا .

غمغم :

ـ لديهم سبب بالتأكيد .

قال فى هدوء :

ـ ليس إن لم تمنحهم أنت إياه ...

تنهد فى توتر ، وبدا له ذلك (الشيزلونج) القديم ، وكأنه تحول إلى سرير من المسامير الحادة ، يؤلم ظهره ، وهو يقول :

ـ الخوف جزء من طبيعتهم أيضًا .

هز المعالج كتفيه ، وقال :

ـ الخوف هو المحرك الرئيسى لكل كائن فى الوجود ... يخاف البرد والرياح ، فيسعى للحصول على مسكن يأويه ... يخاف الجوع ، فيبحث عن طعام يأكله ... يخاف المرض ، فيسعى لملبس يقيه ... حتى عندما يحصل على كل هذا ، يخاف أن يخسره ، فيواصل عمله للحفاظ عليه .

غمغم فى توتر :

ـ لست أقصد هذا النوع من الخوف .

قال المعالج فى هدوء :

ـ لعلك تقصد ذلك الخوف السلبى ، الذى يعجز معه المرء عن العمل والكفاح ، فيخسر كل شىء ..

هز رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ ولا هذا أيضًا .

تراجع المعالج فى مقعده فى ضجر ، وهو يسأله :

ـ أى خوف تقصد إذن ؟!

صمت لحظات ، عاد خلالها ينظر إلى الجدران المتشققة ، والسقف الذى يكاد يسقط على رأسه ، والباب المتماسك بالكاد ، قبل أن يقول فى خفوت :

ـ الخوف من المجهول .

مط المعالج شفتيه ، وهز رأسه ، قائلاً :

ـ هذا نوع من الخوف الطبيعى .

غمغم هو فى دهشة :

ـ حقًّا ؟!... أيوجد خوف طبيعى ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ بالتأكيد .

ثم اعتدل فى مقعده ، مضيفًا :

ـ كل مخلوق لديه مخاوف طبيعية ، هى التى تحدد مساره فى الحياة ، وقدرته على تجاوز ما يواجهه من عقبات ... والخوف من المجهول هو أكبر هذه المخاوف ؛ لأنك تخشى ما لا تدركه ، بأكثر مما تخشى ما تدركه ، والوسيلة الوحيدة ؛ لكسر الخوف من المجهول ، هى ألا يصبح مجهولاً .

سأله فى لهفة متوترة :

ـ وكيف ؟!

مال المعالج نحوه ، مجيبًا فى حزم :

ـ بأن نواجهه .



امتقع وجهه ، وتراجع يرقد مرة أخرى ، على ذلك (الشيزلونج) القديم ، وهو يغمغم فى خوف :

ـ نواجهه ؟!

أومأ المعالج برأسه إيجابًا مرتين ، ثم اعتدل ، قائلاً :

ـ هذا أشبه بحجرة مغلقة ، فى منزل كبير ... حجرة لم يفتحها أحد من قبل ... والكل يخشى المبادرة بمحاولة فتحها ، فتظل دومًا مغلقة ، لا يقترب منها أحد ، حتى يجرؤ شخص على فتحها يومًا ، فيجد أنها حجرة خالية ، لا خوف منها ... بل قد تكون الحجرة الوحيدة ، التى تدخل منها الشمس ..

امتقع وجهه ، وراحت أطرافه ترتجف ، وهو يقول :

ـ هل تعنى أنه من الضرورى أن أواجههم ؟!

عاد يومئ برأسه ، قائلاً :

ـ هذا هو الحل الوحيد .

اتسعت عيناه ، وهو يزداد انكماشًا على ذلك (الشيزلونج) القديم ، فاكتسب صوت المعالج صرامة ، وهو يقول :

ـ اخرج الآن وواجههم ... أثبت لنفسك أنك لا تخاف منهم ، وربما خافوا هم منك .

حاول أن يتخيل الفكرة ، ولكن الخوف فى أعماقه تصاعد ؛ لمجرد تصورها ...

تصاعد ...

وتصاعد ...

وتصاعد ...

على الرغم من كل محاولاته لمقاومته ، لم يستطع منع تصاعده ، فدفن وجهه بين كفيه ، وهو يهتف :

ـ لا ... لن يمكننى هذا .

رمقه المعالج بنظرة ، تجمع ما بين الدهشة والشفقة والازدراء ، قبل أن يقول :

ـ لا يوجد سبيل سوى هذا .

قالها فى صرامة شديدة ، فأبعد هو كفيه عن وجهه ، وحدق فيه ، متسائلاً فى صوت مرتجف :

ـ وماذا عن العواقب ؟!...

هز المعالج رأسه فى قوة ، وهو يقول بنفس الصرامة :

ـ لا توجد أية عواقب .

تساءل بصوت أكثر ارتجافًا :

ـ وماذا لو فشلت ؟!



أجابه المعالج ، وهو يلملم أوراق التقرير ، وكأنه قرر إنهاء جلسة العلاج :

ـ الخوف من الفشل دافع لتتقدم أى كائن ، ولو أنك خشيت الفشل ، فستبذل جهدك لتفاديه ، ولتحقيق النجاح .

ثم بدا وكأنه قد فقد أعصابه فجأة ، وهو يضيف :

ـ ثم إنه لا خيار لديك ... لابد وأن تحاول .

كان قد لملم أوراق الملف ، ونهض وهو يحمله ، فحاول هو النهوض بدوره ، من ذلك (الشيزلونج) ، وهو يغمغم :

ـ مازلت خائفًا منهم .

كان المعالج يهم بالانصراف ، عندما سمع هذه العبارة ، فالتفت إليه ، يسأله فى صرامة :

ـ لماذا ؟!... ما الذى يمكن أن يفعلوه ؟!

تردد ، وهو يجيب :

ـ ربما طاردونى .

أجابه المعالج ، بكل ضجره :

ـ لن يفعلوا بالتاكيد .

قال فى توتر :

ـ وماذا لو حاولوا قتلى ؟!

هتف المعالج :

ـ ألم أقل لك : إننى لم أر حالة كهذه أبدًا !!!

ثم مال نحوه ، مضيفًا :

* لن يقتلوك حتمًا .

وانعقد حاجباه بشدة ، وهو يضيف :

ـ لأنك بالفعل ميت ... أنت شبح ... ألم تستوعب هذه الحقيقة بعد ؟! لا تخاف الأحياء .. هم من ينبغى أن يخاف منك ... حاول أن تستوعب ... أنت شبح ... شبح ...

كان قد استوعب هذه الحقيقة بالفعل ، ولكنه مازال يحتفظ فى أعماقه بتلك اللمحة الباقية من الحياة ...

بالخوف .

★ ★ ★

١٢ ـ أنت عمــــرى...

تلفت الدكتور (وجدى) حوله فى حذر ؛ ليطمئن إلى خلو قسم الحالات الحرجة ، فى المستشفى الخاص ، الذى يعمل فيه ، من أى شخص ، يمكن أن ينتبه إليه ، فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وربت على جيب معطفه الطبى ؛ ليتأكد من وجود اختراعه الصغير فيه ، قبل أن يدفع باب حجرة تلك المريضة ، الغارقة فى غيبوبة عميقة ، منذ أكثر من ستة أشهر ، ويدلف إلى المكان فى سرعة ، ثم يغلقه خلفه فى إحكام ، وهو يلقى نظرة متوترة على ساعة يده ، التى أشارت عقاربها إلى الثالثة والنصف صباحًا تقريبًا ...

كان يعلم جيدًا أن موعد مرور طاقم التمريض ؛ لمتابعة المريضة ، سيأتى فى الخامسة صباحًا ، مما يعنى أنه أمامه ساعة ونصف الساعة ؛ ليثبت نجاح اختراعه ...

وفى توتر ، أخرج جهازه الصغير من جيب معطفه ، وحمله فى حرص ، كما لو أنه وليد غير مكتمل النمو ، ووضعه على المنضدة الصغيرة ، إلى جوار المريضة مباشرة ، ثم اعتدل يلهث ، كما لو أنه قد بذل جهدًا خرافيًا ، وغمغم فى عصبية :

ـ حتى مساء اليوم كنت مريضتى ، أما الآن ، فأنت عمرى كله .

تطلع إلى مريضته بضع لحظات ، وهو يبذل كل جهده ؛ للسيطرة على انفعاله ، ثم التقط نفسًا عميقًا ، وقال وكأنه يتحدث إليها :

ـ الحادث الذى أصابك ، أسقطك فى واحدة من أنواع الغيبوبة ، غير ذات التفسير الواضح ؛ فكل أجهزتك تعمل على نحو طبيعى ، وعلى الرغم من هذا ، فأنت غارقة فى غيبوبتك .

كشف ذراع المريضة ، ودفع فى عروقها إبرة رفيعــة ، تتصل عبــر أنبوب طويل بذلك الجهاز الصغير ، وهو يواصل :

ـ ولقد بذلنا كل المحاولات الممكنة ، ليس لعلاجك ، ومحاولة إخراجك من غيبوبتك العميقة فحسب ، ولكن لفهم وتفسير سببها أيضًا .

كشف ذراعه ، ودفع فى أوردته إبرة مماثلة ، تتصل عبر أنبوب شبيه ، بذلك الجهاز الصغير ، متابعًا :

ـ وفى النهاية ، أقر الكل بعجزه ، وبأنه لا سبيل إلى تفسير حالتك ، أو علاجها فى الوقت الحالى ، وكل ما يمكننا هو الإبقاء عليك آمنة ، وفى حالة طبية ممتازة ، حتى نتوصل إلى التفسير أو العلاج .

نقل بصره بينها ، وبين جهازه الصغير ، الذى يحـوى مفتاحًا واحدًا ، مع مصباحين صغيرين على جانبيه ، أحدهما له لون أحمر ، والثانى أخضر اللون ، مع مؤشر رقمى مستطيل أعلاهما ...

كان يشعر بتوتر شديد ، قبل أن يختبر جهازه للمـرة الأولى ، فقـال ، وكأنه يفرغ توتره ، فى حديثه مع امرأة لا تسمعه :

ـ نظريتى تقول : إن ما تعانين منه أشبه بجهاز حيوى ، نضبت بطاريته الأساسية ، فبدا من الخارج سليمًا كما كان ، ولكنه فى حاجة إلى الطاقة المحركة الرئيسية .

ومال نحوها ، مضيفًا فيما يشبه الهمس :

ـ الطاقة الحيوية .

قالها ، وتراجع فى توتر ، وعاد ينقل بصره بينها وبين جهازه الصغير ، والتقط نفسًا عميقًا آخر ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه الثائرة ، قبل أن يتابع :

ـ ولست أعنى بالطاقة الحيوية هنا ، تلك الطاقة الطبيعية للجسم البشرى ، والتى يمكن قياسها بشتى الوسائل الحديثة ، وإنما أعنى نوعًا آخر من الطاقة ... تلك الطاقة التى تكمن فى الدم ، وتنشأ عن سريانه فى العروق ... الطاقة التى تمنحنا الحياة ، والتى تصنع منا بشرًا ، يفكر ، ويشعر ، ويكره ويحب .

التقط نفسًا عميقًا آخر ، وتمتم :

ـ طاقة الدم الحيوية .

صمت لحظات ، وكأنه ينتظر منها تعليقًا ، ثم هز رأسه ، مغمغمًا :

ـ المسبار الذى غرسته فى عروقك وعروقى ، لا يشبه إبرة محقن عادى ، فهو ليس مجوفًا مثله ، بل هو مسبار خاص ؛ لقياس طاقة الدم الحيوية ، ونقل ذبذباتها المنمنمة ، إلى جهازى الصغير ، الذى يقوم بفحصها ، وتحليلها ، وقياس قوتها ، ثم يقارنها بذبذبات الطاقة الدموية الحيوية ، الصادرة من عروقى ، ويعمل على معادلة الطاقتين ...

هز رأسه ، وكأنما يقنع نفسه بالفكرة ، قبل أن يستطرد :

ـ هذا أشبه بمحاولة إيقاظ بطارية سيارة فارغة ... إننا نوصلها ببطارية سيارة أخرى ، فتدور ، وتعود السيارة ذات البطارية الفارغة للعمل .

ألقى نظرة على ساعة يده ، فوجد أن عقاربها تقترب من الرابعة صباحًا ، وأدهشه أن مر كل هذا الوقت ، دون أن ينتبه ، فغمغم فى توتر :

ـ أظن أنه من الأفضل أن نبدأ التجربة .

تأكد مرة أخرى من كل التوصيلات ، قبل أن تتجه سبابته فى تردد وتوتر ، إلى الزر الوحيد فى الجهاز الصغير ...

وبمنتهى العصبية ، ضغط الزر ...

فى البداية ، أضاء المصباح الأحمر ، وبدأ الجهاز عمله ...

ولكنه لم يشعر بشىء ...

أى شىء ...

لخمس دقائق كاملة ، بدت له أشبه بدهر كامل ، راح يحدق فى الجهاز ، وفى المصباح الأحمر ، والمؤشر الرقمى المستطيل ، بالقرب من قمة الجهاز ، والذى ظل يشير إلى الصفر ، وكأنما لم يستقبل شيئًا ..

لا نبضات عادية ، أو فوق عادية ...

ولا ذبذبات ولا أى دليل على وجود تلك الطاقة الدموية الحيوية ...

وفى توتر شديد ، عقد الدكتور (وجدى) حاجبيه ، وهو يغمغم :

ـ مستحيل ! .. كل حساباتى تؤكد أن ...

وقبل أن يتم عبارته ، بدأ كل شىء فجأة ..

بلا مقدمات ، بدأت الأرقام تتحرك فى سرعة ، على تلك الشاشة المستطيلة ...

وشعر الدكتور (وجدى) بصدمة مباغتة ...

لم تكن صدمة نفسية أو عصبية ، وإنما صدمة حقيقية ...

صدمة ، شعر معها وكأن لكمة قوية قد أصابت رأسه ، دون سابق إنذار ...

وأمام عينيه ، اللتين اتسعتا عن آخرهما ، اختفت معالم الحجرة ، وظهرت بدلاً منها معالم منزل قديم ...

كان من الواضح أن ذكريات هذه المريضة ، الغارقة فى غيبوبة عميقة ، قد انتقلت إليه ، بوسيلة ما ...

كان المنزل قديمًا ، يشبه بيوت القرن التاسع عشر ، وهناك موقد كبير على الأرض ، يمتلئ بفحم مشتعل ، وتفوح منه رائحة بخور قوية ...

وكانت هناك أصوات عجيبة تتردد ...

أصوات بلغة ليست عربية حتمًا ...

ولا هى حتى واحدة من اللغات الخمس ، التى يجيدها ...

كانت لغة غريبة ...

عجيبة ...

ومخيفة ...

وكانت هناك يدان ، تتحركان حركات عجيبة ...

وبين الحين والآخر ، تلقيان بعض البخور فى الموقد ...

وعلى الرغم من حالة الجمود ، التى أصابته عقب الصدمة ، استطاع أن يستوعب الأمر فى سرعة ...

إنه الآن داخل عقل المرأة ...

يشعر بما شعرت به ...

ويرى ما رأته ...

ذلك الصوت الذى يسمعه ، بتلك اللغة العجيبة ، هو صوتها ...

واليدان هما يداها ...

إنه ـ وعبر وسيلة لم يقرأ حتى عنها من قبل ـ يرى عبر عينيها ..

ويحيا ذاكرتها ...

كان يريد أن يقاوم هذا الشعور المخيف ، إلا أنه عجز عن هذا تمامًا ...

حاول حتى أن يمد يده ؛ ليطفئ جهازه الصغير

ولكن هيهات ...

لقد تجمد كل جسده ، وصار أشبه بمريض مصاب بشلل كامل ، فيما عدا عقله ، الذى ظل يعمل ...

ويرى ..

ويشعر ...

كانت نيران الموقد تتأجج أكثر وأكثر ، مع ترديد تلك الكلمات العجيبة ...

ثم فجأة ، راحت تلك الصورة تتكون داخلها ...

وعلى الرغم من حالة الجمود ، التى سقط جسده فيها ، شعر الدكتور (وجدى) برجفة عنيفة ، تسرى فى أوصاله ، وهو يرى ما رأته المرأة ، داخل النيران ...

كائن بشع رهيب ، تكون وسط النيران ، وبدا كجزء من الجحيم ، بقرنيه الصغيرين ، وملامحه السوداء البشعة ، وزوج الأعين ، اللتين غابت منهما القزحية تمامًا ، ويدين أشبه بقطعتين من الحجر الملتهب ...

وراح الصوت يعلو ، ويكتسب رنة رعب ، ثم بدأت الكلمات تعود إلى العربية ، مع صرخة المرأة :

ـ انصرف ... انصرف ...

ولكن ذلك الكائن البشع واصل التكون ، حتى صار هو والنار كيانًا واحدًا ...

وفى مشهد رهيب ، خرج من موقد النيران ، واتجه نحوها ...

وصرخت المرأة ...

وصرخت ...

وصرخت ...

وصرخت ...

وسمع الدكتور (وجدى) صدى صراخها فى رأسه ...

وعبر ذاكرة عينيها ، رأى ذلك الكائن يملأ بصرها كله ...

وعبر أذنيها ، سمعه يقول :

ـ أنت أردت هذا .

صرخت المرأة ، بكل رعب الدنيا :

ـ انصرف ... لن أفعل هذا مرة أخرى ... انصرف ... انصرف ...

قال ذلك المخلوق البشع ، وهو يمد نحوها يدين صغيرتين ، فى كل منهما ثلاثة أصابع ، تنتهى بمخالب حادة طويلة :

ـ لست تملكين الطاقة اللازمة لصرفى .

صرخت بكل رعب وفزع الدنيا ، واقترب ذلك الشىء البشع منها أكثر وأكثر ، وبدا ذيله الشبيه بذيل جدى يتلاعب خلفه ، و ...

وفجأة ، توقف ...

وخفق قلب الدكتور (وجدى) ، فى رعب هائل ، عندما ابتسم ذلك البشع ابتسامة شيطانية ، برزت إثرها أنيابه الحادة الرفيعة الطويلة ، وهو يقول :

ـ آه ... هناك آخر .

ثم بدأت الصورة تتسع ، ليملأ وجهه البشع بصر الدكتور (وجدى) كله ، ويرن صوته المخيف فى أذنيه ، وهو يتابع :

ـ أنت جلبت هذا لنفسك .

وحاول الدكتور (وجدى) أن يصرخ ...

حاول أن يستنجد ...

أن يفعل أى شىء ...

ولكنه لم يستطع ...

أما ذلك الكائن البشع ، فقد غاص فى أعماقه ، وراح يسيطر على كيانه ، و ...

« إنها معجزة ... »

هتفت بها ممرضة الخامسة صباحًا ، وهى تستدعى الطبيب المناوب ، عبر الهاتف الداخلى للمستشفى ، قبل أن تلتفت إلى المريضة ، التى أفاقت من غيبوبتها العميقة ، متابعة فى انفعال :

ـ لقد استعادت مريضة الحجرة (١٣) وعيها ... لست أدرى كيف ... لقد حضرت فى موعدى ؛ لقياس وظائفها الحيوية ، فوجدتها واعية ، تشعر بالدهشة ، وتتساءل أين هى ... الدكتور (وجدى) ؟!... هذا هو أغرب ما فى الأمر .

وألقت نظرة على الدكتور (وجدى) ، الذى بدا ذاهلاً ، جامدًا ، يحدق أمامه فى لا شىء ، قبل أن تتابع ، فى انفعال بلغ ذروته :

كل وظائفه الحيوية تعمل جيدًا ، ولكنه واقع فى غيبوبة عجيبة ... غيبوبة ليس لها من تفسير .. أى تفسير .

★ ★ ★



١٣ ـ أهل الهوى...

لابد وأن أنتهى من كتابة هذه المذكرات بأقصى سرعة ، قبل أن أعجز عن كتابتها تمامًا فيما بعد ...

لابد وأن يعرف العالم كله الحقيقة ...

هذا لو صدقنى أحد ...

ولكن كيف يصدقوننى ، وأنا أروى مذكراتى من داخل هذا المكان ... من المستشفى ...

مستشفى الأمراض النفسية والعصبية ...

أرأيتم . . . أنتم أنفسكم دخلتم فى زمرة غير المصدقين ، أو على الأقل المتشككين ، فور معرفتكم بالمكان ..

ولكننى لست مريضًا ...

صدقونى .. لست كذلك أبدًا ...

كل ما فى الأمر هو أن ما أرويه يبدو أشبه بالجنون ، ويدفع البعض إلى الإسراع بافتراض أننى مختل عقليًا ، أو على الأقل نفسيًا ...

ولكن حتى لا نضيع الوقت فى تفسيرات لا طائل منها ، دعونى أقص عليكم الأمر منذ البداية ...

منذ التقيت بمريضى (عزيز) ...

آه ... نسيت أن أخبركم أننى طبيب ... وطبيب أمراض نفسية وعصبية بالتحديد ... بل وصاحب نفس المستشفى ، الذى يتم احتجازى فيه كمريض ...

دعونا نبدأ من البداية ، قبل أن يفوت الوقت .

منذ دخل (عزيز) عيادتى فى البداية ، كدت أجزم بأنه مصاب بمرض ذهانى شديد ؛ إذ بدا شديد التوتر ، زائغ البصر ، أشعث الشعر ، ثيابه غير مهندمة ، ولحيته غير حليقة ، حتى أننى لم أصدق ما أخبرتنى به زوجته ، من أنه عالم بكتريولوجى معروف ...

لم يكن عنيفًا على الإطلاق ، بل بدا مستسلمًا ، بائسًا ، عاجزًا ، حتى أننى ، وبخلاف كل القواعد الطبية ، تعاطفت معه فى شدة ، وتعاملت معه برفق شديد ، وأنا أسأله مشفقًا عما يعانيه ، ومازلت أذكر إجابته العجيبة ، حتى يومنا هذا :

ـ ما أعانيه هو صورة مما سنعانيه جميعًا ، فى غضون عام واحد من الآن ...

سألته فى رفق :

ـ وما الذى سنعانيه جميعًا ؟!

تطلع فى وجهى لحظات ، بعينيه الزائغتين ، قبل أن يقول فى يأس ، وهو يشير بيده :

- سنعانى منهم ... سيسيطرون على عقولنا جميعًا ... على أدمغتنا ... على إرادتنا ... لن يسلم شخص واحد منهم ، لأنهم مثل البكتريا .

سألته فى حيرة :

- مثلها فى ماذا ؟!

زاغت عيناه أكثر ، وهو يلوح بذراعيه فى الهواء ، مجيبًا :

- إنهم ينتشرون فى الهواء .. لا تراهم أو تشعر بهم ، ولكنك تستنشقهم وتتنفسهم ، ومن رئتيك يغزون دمك ، ويسيرون عبره إلى مخك ، ويبدءون فى السيطرة عليه ... فى البداية ستسمعهم يتحدثون إليك ، ثم سيلقون عليك أوامرهم ، وفى خلال أسبوع واحد ، ستصير عبدًا لهم ، وستنسى حتى من أنت .

ثم مال نحوى ، حتى شعرت بالخوف ، وهو يضيف :

- ولا يوجد سبيل لمقاومتهم ... أى سبيل .

بدت لى كحالة هلوسة مثالية ، ونموذج للفصام شبه الكامل ، فغمغمت :

- وهل تطيع أوامرهم ؟!

هز رأسه ، قائلاً فى يأس :

- لن تملك سوى هذا .

تصورت أننى أمام حالة تستحق الدراسة بالفعل ، فملت نحوه ، أسأله فى اهتمام :

- هل يمكنك أن تروى لى القصة من البداية ؟!

تراجع فى مقعده ، وهو يواصل التحديق فى وجهى ، قبل أن يدفن وجهه بين كفيه ، وهو يغمغم ، وكأنه يحدث شخصًا آخر فى الحجرة :

- سأخبره ... من حقه أن يعرف ... بل من حق العالم كله أن يعرف ... نعم سأخبره .

وعندما رفع عينيه إلى ، كانتا محمرتين كالدم ، وهو يقول فى توتر :

- البداية كانت فى عينة بكتيرية جديدة ، حصل عليها طبيب سموم شاب ، حار فى تحديد فصيلتها ، فأرسلها إلى معملى لدراستها ، وإبلاغه بالنتائج ... ولقد بدأت الإجراءات الطبيعية ، فوضعت جزءًا من العينة فى مزرعة خاصة ؛ لتنمو فيها وتتكاثر ؛ لدراسة سلوكها فى هذا الشأن ، ووضعت قطعة على شريحة مجهرية ؛ لأفحصها عبر المجهر الخاص بالمعمل .

دارت عيناه فى محجريهما ، وهو يشير بيده ، قائلاً بلهجة مضطربة :

- وهنا كانت المفاجأة .

شعرت باهتمام شديد ؛ لمعرفة تلك المفاجأة ، فعدت أميل نحوه ، وهو يواصل بلا انفعال :

- كانت فصيلة حيوية ، لم أر لها مثيلاً من قبل ... شكلها الخارجى يشبه البكتيريا بالفعل ... والبكتيريا العضوية لو شئت الدقة ، أما سلوكها ، فلم

يكن سلوك بكتيريا على الإطلاق ، بل كان أشبه بسلوك مستعمرات النمل ، أو خلايا النحل ...

بدت على الحيرة ، وأنا أسأله :

ـ وكيف هذا ؟!

بدأت يداه تتحركان فى انفعال زائد ، وهو يجيب :

ـ كلها كانت متشابهة فى مظهرها الخارجى ، إلا أنها انقسمت إلى مجموعات ، لكل منها وظيفة محدودة ، والمزرعة البسيطة ، التى زرعتها فيها ، بدت بعد أسبوع واحد أشبه بمستعمرة منظمة ، بها قائد يحتل مركزها ، وجنود يحيطون به ، ومجموعات تنتشر فى الأطراف ... مستعمرة حقيقية .

أثار الأمر اهتمامى بالفعل ، وخاصة مع تلك التفاصيل الفنية ، فسألته فى لهفة :

ـ أمازالت تلك المزرعة ، أو المستعمرة كما وصفتها ، فى معملك ؟!

هز رأسه نفيًا فى أسى ، وهو يجيب :

ـ كلا ... لقد نقلتها إلى وحدة الميكروسكوب الإليكترونى ، فى جامعة (القاهرة) ، وما أن فحصتها هناك ، حتى تملكنى رعب حقيقى .

بدأ عرق عجيب يتصبب على وجهه ، على الرغم من برودة الجو ، وزاغت عيناه فى شدة ، وهو يلوح بيديه فى عصبية ، مكملاً بكل انفعاله :

ـ إنها ليست بكتيريا ، كما بدت تحت ميكروسكوب عادى ، بل هى كائنات حية عاقلة ، تختفى تحت زى خداعى ، يشبه تركيب البكتيريا العصوية ، كائنات ما إن أدركت أننى قد كشفت أمرها ، حتى شنت هجومها على الفور .

تراجعت فى مقعدى ، أتطلع إليه لحظات فى حيرة ، محاولاً إعادة تشخيصى الأولى ...

الرجل ، على الرغم من مظهره وعصبيته ، يبدو واعيًا تمامًا لما يقول ...

وفى حياتى كلها ، لم أر مريضًا يمكنه التحدث عن أمور علمية ، بهذا القدر من الدقة والمعرفة ، على الرغم من أن روايته تشبه أفلام الخيال العلمى ، منها إلى الحقيقة !! ...

وبكل فضولى ، سألته :

ـ وكيف شنت ذلك الهجوم ؟!

تضاعف انفعاله ، وهو يجيب :

ـ كنت قد اتخذت كل الاحتياطات ، للحفاظ على تلك المزرعة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد رأيتها تزحف على المكتب ، أمام عينى ، ثم سقطت أرضًا ، وتحطمت تمامًا ...

مال نحوى بغتة ، وبدا أقرب إلى الانهيار ، وهو يضيف :

ـ ومع تحطمها ، انطلقوا ينفذون خطة الغزو .

غمغمت بكل دهشتى :

ـ غزو ؟!

لوح بذراعيه مرة أخرى ، صائحًا :

ـ لم أدرك هذا فى البداية ... فقط أسرعت أجمع بقايا ذلك الطبق الزجاجى ، الذى حوى المزرعة ، وعندما فحصتها ، لم أجد بها أى أثر لكائن واحد منها ، وأدهشنى أن تختفى كلها فى لحظة واحدة ... ولم أدرك بالطبع أنهم فى الهواء من حولى ، وأننى أستنشقهم ، وأطلقهم داخل جسدى ، دون أن أدرى .

بدأت أشعر بقلق وخوف حقيقيين ، فى حين نهض هو من مقعده بحركة حادة ، وهو يواصل صياحه وانفعاله :

ـ قبل أسبوع واحد ، بدأت أسمع أصواتهم داخلى ، وأخبرونى كل شىء عنهم ... أخبرونى أنهم جاءوا مع نيزك صغير ، سقط على الأرض ، فى غفلة من الزمن ، وهالتهم فى البداية أحجامنا الهائلة ، ثم سرعان ما أدركوا أن كل ما يحرك تلك الأجساد الضخمة ، بالنسبة لهم ، هو مخ صغير نسبيًا .

سألته ، محاولاً كتمان قشعريرة سرت فى جسدى :

ـ وكيف أدركوا هذا ؟!

أشار إلى رأسه ، قائلاً :

ـ من مخى ... من ذاكرتى ... من جسدى كله ... لقد علمت منهم أننى البداية ، وأنهم سينتشرون فى الهواء ، عبر جهازى التنفسى ؛ ليغوصوا فى كل جسد أرضى ، ويسيطرون علينا تمامًا .

بدأ يصرخ بكلماته ، على نحو مقلق ، فضغطت الزر الموجود على سطح مكتبى ، وسرعان ما ظهر ممرضو المستشفى ، فقلت لهم ، محاولاً السيطرة على انفعالاتى :

ـ الأستاذ (عزيز) يحتاج إلى راحة طويلة ... سنستضيفه لدينا لبضعة أسابيع ، حتى يسترد عافيته .

قاوم (عزيز) طاقم التمريض فى استماتة ، وهو يصرخ :

ـ أنت أيضًا لا تصدقنى ... لا أحد يصدقنى ... هذا هو مكمن قوتهم ... لا أحد يقنع بوجودهم ... سيسيطرون على الجميع ... أنت التالى أيها الطبيب ... أنت رسولهم التالى ؛ للقضاء على إرادة البشر .

ظل يواصل صرخاته ، وهم يحملونه عنوة إلى قسم الحالات العنيفة ، وبكت زوجته فى مرارة ؛ عندما أخبرتها أنه سيحتاج إلى علاج طويل ؛ للخروج من حالة الهلوسة التى يعيش فيها ...

فى البداية ، اضطررنا لحقنه بعقاقير مهدئة قوية ، حتى تمنع إصابته بأى انهيار عصبى عنيف ، وعلى الرغم مما أصابته به من استكانة ،

كان يحدث نفسه طوال الوقت ، باعتبار أنه يتحدث مع تلك الكائنات الميكروسكوبية ، التى تعيش داخله .

ثم ، وبعد يومين فحسب ، صار شديد الهدوء ، شارد البصر ، يطيع الأوامر طاعة عمياء ، دون جدل أو مناقشة ...

ولكنه واصل الحديث مع نفسه ...

أو معهم ...

تصورت عندئذ أننا قد نجحنا فى السيطرة على حالته ، وبدأت أدون هذا فى ملفه ، حتى كانت ليلة باردة ، سهرت فيها لإنهاء بعض الملفات فى مكتبى ، عندما بدأ الاتصال ...

فجأة ، سمعت صوتًا من داخلى ، يقول فى بلبلة :

ـ فهمنا لتكوينكم يزداد يومًا بعد يوم .

شعرت برعب هائل ، وخيل إلىَّ أننى سأقضى نحبى رعبًا ؛ فالصوت كان ينبعث من أعماقى بالفعل ... من ثنايا مخى ..

وبكل رعب الدنيا ، صرخت :

ـ ماذا تريدون منى ؟!

أتانى الصوت نفسه يقول :

ـ كل ما أردناه حصلنا عليه بالفعل ... وكل ما عليك الآن ، هو أن تنقلنا إلى كل من تعرف ... عبر الهواء .

رحت أصرخ بكل قوتى :

ـ لا ... هذا ليس حقيقيًا ... إنها هلاوس سمعية ... مجرد هلاوس سمعية .

قال ذلك الصوت بنفس الآلية :

ـ هذا ما سيقوله الآخرون ... وهذا يضمن عدم كشف أمرنا ... لقد أصبحت تحت سيطرتنا تقريبًا ... انقلنا عبر الهواء ... انقلنا إلى كل من تعرفه .

رحت أصرخ ، وأصرخ ، وأصرخ ، حتى امتلأ مكتبى بكل أفراد النوبة الليلية ، من أطباء وطاقم تمريض ..

حاولت أن أشرح لهم الأمر ، إلا أن نظرات الإشفاق فاضت من عيونهم ، وأسرع بعضهم يحضر العقاقير الطبية المهدئة ، و ...

وأنا الآن أرقد فى جناح خاص ، مجاور لجناح (عزيز) ، وقد صرت مثله ، زائغ العينين ، أشعث الشعر ، أتلقى علاجى فى انتظام ، وأنا أعلم أنه فى أية لحظة الآن ، ستكتمل سيطرتهم على عقلى ، ولن أملك إلا طاعة أوامرهم .

ولكن هذه المذكرات ستكشف أمرهم ، إذا ما قرأها شخص لديه بعض الخيال ...

وعندئذ ستبدأ المقاومة ...

مقاومة الغزاة ...

لا ... ليسو غزاة ... إنهم السادة ... السادة الجدد ...

كما تأمرون أيها السادة ... سأمزق هذه المذكرات فورًا ، وسأنفذ أوامركم ، وأنقلكم عبر الهواء ، لكل من ألتقى به ...

أنا عبدكم المطيع أيها السادة ...

مرونى أنفذ ...

فأنتم السادة الآن ...

سادتى ...

وسادة الأرض ...

الجدد .

★ ★ ★

١٤ ـ الآخـــــر...

لا يمكننى احتمال كل هذا ...

لا يمكننى أبدًا ...

ذلك القاتل الوحشى قيدنى فى إحكام ، حتى لم أعد أستطيع تحريك طرف واحد فى جسدى كله ...

ولا يمكننى حتى إبعاد رأسى ...

أو إغلاق عينى ...

أنا مجبر على رؤية كل ما يرتكبه ، من أعمال وحشية دموية ...

لست أدرى حتى كيف فاجأنا ...

ولا كيف فعل بنا هذا ...

كنت ورفاقى نبحث عن مكان متوار ، يمكننا فيه أن ندخن بعض المخدرات ، دون أن يلمحنا أحد ...

ولقد عثرنا بالمصادفة على هذا المكان ...

منزل قديم متهدم ، تطل إحدى حجراته ، التى فقدت جدارًا أساسيًا ، على ساحة خالية ، تمتد لمسافة كيلومتر تقريبًا ...

ولقد بدا لنا المكان مثاليًا للغاية ...

مكان بعيد ...

خال ...

مهجور ...

لا يمكن أن يشعر بك أحد ، أو حتى يسمعك أحد فيه ...

وبالفعل ، بدأنا فى إعداد مجلسنا ، المطل على تلك الساحة الخالية ، وأشعل بعضنا النار ، فى حين بدأ البعض الآخر فى إعداد النرجيلة ، و ...

وفجأة ، ظهر هو ...

لم نكن قد بدأنا فى تدخين أية مخدرات ، كما قد يتبادر إلى ذهنك فى البداية ، ولم يكن أينا قد اقترب منها حتى ...

كنا جميعًا فى أتم الصحة والعافية ...

وعقولنا كلها يقظة ...

تمامًا ...

وعندما ظهر هو ، كان شرسًا صارمًا ، من اللحظة الأولى ...

وكان يحمل مسدسًا ...

فى البداية ، تصورنا أنه شخص يمازحنا ، حتى أن بعضنا قد أطلق ضحكات مرحة ، ودعابات لطيفة ...

إلا أنه لم يكن مازحًا ...

علمنا هذا ، عندما أدار عينيه الشريرتين فى وجوهنا ، بكل غضب الدنيا ...

عندما توقفنا عن الضحك والدعابة ...

وبدأ الخوف يتسلل إلى نفوسنا ...

فماذا يريد منا ؟!...

ماذا ؟!...

كنا خمسة شباب أقوياء ...

ولكنه كان يحمل مسدسًا ...

وتصورنا كلنا أن ما يستهدفه هو سرقتنا ، والاستيلاء على ما نملك ...

ولقد عرض عليه بعضنا هذا بالفعل ...

وجاءت إجابته ، لتفسر لنا كل شىء ...

جاءت عبر رصاصة من مسدسه ، أصابت رأس أحدنا مباشرة ...

ومع سقوط رفيقنا جثة هامدة ، أدركنا الحقيقة ...

إنه ليس سارقًا ...

إنه قاتل ...

رحنا نرتجف ، ونبكى ، ونتوسل ...

وما من مجيب ...

كان قاسيًا ، صارمًا ، ساديًا ، يستمتع برعبنا وعذابنا وتوسلاتنا وألمنا ...

وبكل وحشية الدنيا ، أمرنا أن نقيد بعضنا البعض ...

ومع الرعب الذى ملأ نفوسنا ، أطعناه ...

كنا نعلم أن القيود ستعنى أننا قد صرنا فى قبضته تمامًا ...

ولكننا لم نملك الاعتراض ...

وكان هذا ما ينشده بالضبط ...

القوة ...

والشعور بالقوة ...

وبكل مهابة الدنيا وخوفها ورعبها ، رحت أحدق فيه ، بعد أن انتهيت من تقييد آخر رفاقى ، عندما انتبهت إلى تلك النظرة الوحشية ، التى يرمقنى بها ...

لم أكن أدرى لحظتها ، أن اختياره قد وقع على ؛ لأكون شاهدًا على وحشيته وساديته ، قبل أن يحين دورى ...

ولست أدرى حتى كيف قيدنى ، ولكننى وجدت نفسى مكبلاً تمامًا ، وغير قادر على تحريك إصبع واحد ...

ولقد جذب جفنى إلى أعلى وأسفل بوسيلة ما ، فلم أعد قادرًا على إغلاق عينى أيضًا ...

كنت مضطرًا لمراقبته ، وهو يرتكب جرائمه الوحشية ...

وكان جسدى كله يرتجف ...

ويرتجف ...

ويرتجف ...

وفى برود سادى عجيب ، اتجه نحو أول رفاقى ، وأخرج من جيبه سكينًا ذا نصل طويل حاد ، راح يمرره على وجه رفيقى ، الذى راح ينتحب فى رعب ، والكمامة اللاصقة على فمه تمنعه من الاستنجاد ...

ثم بدأت اللعبة السادية ...

بطرق نصل السكينة الحاد ، راح ذلك السفاح يمزق وجه رفيقى ، بضربات سريعة سطحية ...

رأيت الدم يغرق وجهه ...

والرفيقان الآخران تتسع عيونهما فى رعب هائل ...

ثم جاءت الطعنة الأخيرة ...

بعد أن تمزق وجه رفيقى الأول تمامًا ، طعنه ذلك السفاح فى جانب عنقه ، طعنة سريعة غادرة قوية ...

وبعينى المذعورتين ، شاهدت النصل يغوص فى عنق رفيقى ، من الجانب الأيسر ، ثم يبرز من الجانب الأيمن ...

واتسعت عيناه فى ألم ورعب ...

ثم سقط جثة هامدة ...

وتدفقت الدماء من عنقه فى غزارة ...

وفى هدوء ، التفت السفاح إلى الثانى ...

وفى بطء أيضًا ، راح يمرر نصل خنجره ...

ليس على وجهه هذه المرة ، وإنما على صدره ...

وعبر الكمامة اللاصقة ، سمعت رفيقى يهمهم متوسلاً ، ويحاول الصراخ ، ولكن ذلك السفاح لم يبد ذرة واحدة من الاهتمام ...

ولا من الرحمة ...

لقد بدأ ، وبكل هدوء ، فى تمزيق صدر الثانى بنصل خنجره ، ورفيقى يتلوى ألمًا وعذابًا ...

ثم بدأ السفاح فى شق صدره ...

كان يعمل فى هدوء مذهل ، كما لو أنه يشق صدر لعبة من الفراء ...

وأمام عينى الذاهلتين ، رأيت قلب رفيقى الثانى ...

رأيته يبرز ، عبر ضلوعه المقطوعة وصدره الممزق ...

رأيته ينبض ..

وينبض ..

وتساءلت فى حيرة ، على الرغم منا ملأ جسدى من خوف ورعب : كيف يمكن أن ينبض قلب ، على هذا النحو المكشوف ؟!...

بل كيف يمكن أن يحيا ؟!...

وبكل رعب الدنيا ، شاهدت السفاح يمد يده ، ويمسك قلب صديقى داخل صدره ، ثم ينتزعه فى قوة ...

وانتفض جسد رفيقى الثانى ، قبل أن يسقط جثة هامدة ...

وأصيب الرفيق الثالث والأخير بحالة رعب ، لم أر لها مثيلًا ، وهو يحدق فى يد السفاح ، التى أمسكت قلب رفيقه ، وهو يتطلع إليه فى ازدراء ، ثم ألقاه بكل قوته ، نحو تلك الساحة الخالية ، قبل أن يلتفت إلى ضحيته الثالثة ...

كان الرعب قد بلغ من الثالث مبلغه ، حتى أنه راح يطلق صرخات هستيرية مذعورة مكتومة ، من خلف كمامته اللاصقة ، فجذبه السفاح من شعره ، وراح يتطلع إلى رعبه فى استمتاع صامت ، قبل أن يخالف أسلوبه السابق ، ويضع نصل سكينه الطويل على عنقه ، ويبدأ فى ذبحه ، بكل هدوء وبرود ...

وراح رفيقى الثالث ينتفض ..

وينتفض ...

وينتفض ...

وتفجرت الدماء من عنقه فى قوة ، وأغرقت ثيابه وثياب السفاح ، الذى واصل عمله بنفس الهدوء والبرود ، قبل أن ينهض واقفًا ، وهو يحمل رأس رفيقى الثالث من شعره ، وقد ظلت عيناه متسعتين من الرعب والألم ...

رأيت جسد رفيقى الثالث يسقط بلا رأس ، والسفاح يقف فى هدوء ، ممسكًا بالرأس ، الذى يقطر دمًا ، قبل أن يرفعه إلى وجهه ، وكأنما يريد أن يلقى عليه نظرة متشفية أخيرة ، قبل أن يلقيه أيضًا بكل قوته ، نحو تلك الساحة الخالية ...

وبعدها التفت إلى ...

وبكل رعب الدنيا ، راح جسدى يرتجف ..

لقد حان دورى ...

ولو أنه قتلهم بكل تلك الوحشية ، فماذا سيفعل بى ؟!...

ماذا ؟!...

ماذا ؟!...

اقترب السفاح منى فى بطء ، وانحنى يواجهنى مباشرة ، والتقت عيناه بعينى دون مواربة ، وأصبحت أرى ملامحه فى وضوح ...

رباه ! ... إننى أعرف هذه الملامح جيدًا ...

أعرفها بكل تفاصيلها ...

أعرفها حتمًا ...

واقترب منى السفاح بوجهه ...

واقترب ...

واقترب ...

و ...

« ما كل هذه البشاعة ؟!... »

سمعت العبارة فجأة ، وتلاشى معها ظلام الليل ، لأنتبه إلى أننى راقد على فراش نظيف ، فى حجرة قليلة الأثاث ، بها إضاءة جيدة ، وعلى مسافة خطوات منى ، يقف رجل فى معطف أبيض ، يقول لآخر ، فى ثياب مدنية :

ـ حالات انفصام الشخصية ، التى تبلغ هذا الحد ، لا يمكنها أن تتوقف عن تناول الدواء أبدًا .

سأله المدنى فى توتر :

ـ ما فائدة العلاج إذن ؟!

أجابه صاحب المعطف الأبيض فى حزم :

ـ الحفاظ على المريض فى حالة توازن ... فبدون العلاج ، يمكن أن يصنع المريض لنفسه عالمًا وهميًا خياليًا ، يحقق فيه ما يعجز عن تحقيقه ، بشخصيته العادية ، فى عالمه الفعلى

ألقى ذو الثياب المدنية نظرة على ، قبل أن يقول :

ـ أتعنى أن عجزه عن الانتقام من هؤلاء الأربعة ، الذين أهانوه وسط حيه السكنى ، هو الذى دفعه لتقمص شخصية السفاح الوهمى .

أجابه صاحب المعطف الأبيض فى حماس :

ـ بالضبط ... لقد تقمص فى خياله المريض ، تلك الشخصية الدموية البشعة ، التى استدرجتهم إلى منطقة مهجورة ، وقتلتهم جميعهم بلا رحمة ، كما سمعته يروى فى هذيانه .

أشار إلىَّ ذو الثياب المدنية ، قائلاً :

ـ فى عالمه الوهمى ؟!

كرر صاحب المعطف الأبيض :

ـ بالضبط .

التقط ذو الثياب المدنية نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ معذرة أيها الطبيب ، ولكننى كرجل أمن ، لم أستطع غض البصر ، عن أربع جرائم بهذه الوحشية ، رواها لى مختل عبر الهاتف ، مهما كانت تفسيراتك الطبية ، خاصة وأنه ، عندما وصلت سيارة النجدة ، إلى حيث أشار فى اتصاله ، كانت هناك دمى ممزّقة فى كل مكان ، وكان هو يقف هناك ، ممسكًا رأس دمية من القطن ، ويصر فى هستيريا واضحة ، على أنها رأس آخر ضحاياه .

تساءلت فى حيرة : عمن يتحدثون ؟!...

السفاح هو من فعل هذا ، وليس أنا !!...

إنهم مصابون بمشكلة نفسية حتمًا ...

لقد خلطوا بينى وبين الآخر ...

لديهم انفصام فى الشخصية بالتأكيد !!..

لست أنا من فعلها ...

إنه هو ...

ذلك السفاح ...

الآخر .

★ ★ ★



١٥ ـ جميل جمال ...

لا أحد يمكنه أبدًا أن يدرك أو يفهم ، لماذا أطلقت أم (جميل) على ابنها هذا الاسم ؟!..

التفسير الوحيد ، الذى توصلت إليه ، بعد جهد جهيد ، هو أنها اختارت اسمه ، من قبل أن تراه ، وانتقتـه له ، وهـو لا يزال بعد جنينًا فى رحمها ...

هذا لأن (جميل) ، ابن الحاج (جمال) ، عمدة قريتنا ، قد عانى من تشوه جنينى ، فى رحم أمه ؛ بسبب بعض الأدوية الخاطئة ، التى تناولتها فى أشهر حملها الأولى ، على الرغم من تحذير طبيب الوحدة الصحية لها بالابتعاد عن هذا ، فولد (جميل) بملامح مشوهة ، إلى حد مخيف ... وجه متغضن ، أشبه بوجه عجوز فى الثمانين ، وأنف أفطس ، يكاد لا يبرز من وجهه ، وشفة أرنبية مشقوقة ، وعينين ليستا على محور واحد ، فاليمنى أعلى من اليسرى بثلاث سنتيمترات على الأقل ، وبروز زائد عند كتفه اليسرى ، بالإضافة إلى ستة أصابع فى كل يد ...

ومنذ طفولته ، نفر منه كل سكان قريتنا ، وصاروا يخشون رؤيته ، ويتحاشون النظر إليه ، وأطفالهم يتعاملون معه بعدائية واضحة ، فيهتف بعضهم فى وجهه بأنه عفريت جاء من تحت الأرض ، فى حين يتمادى آخرون ، فيلقونه بالحجارة ، عندما تقع أعينهم عليه ...

ولأن هذا أصابه ببعض الجروح ، أكبرها كان فى مشاعره البريئة ، عندما لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره بعد ، فقد رأت أم (جميل) أن تعفى ابنها من عذابه ، فلم تعد تسمح له بالخروج من المنزل ، أو حتى الوقوف أو الجلوس أمامه ، وحشدت له كل وسائل التسلية المتاحة ، فى حوش المنزل الكبير ؛ حتى لا يضطر إلى الخروج ...

وكبر (جميل) ، وهو سجين فى منزله ، وكثيرًا ما كنت ألمحه يختلس النظر ، من خلف النافذة فى حسرة ، إلى الأطفال ، الذين يمرحون ويلعبون فى الطرقات ، وما أن ينتبه إلى ، حتى يختفى فى سرعة ، وكأنما يخشى أن أراه ، أو يخشى أن تزعجنى رؤيته ، فيظهر الامتعاض على وجهى ، أو أؤذى مشاعره دون أن أدرى ...

ولأن (جميل) لم يكن يستطيع الخروج من منزله ، فلم يذهب إلى المدرسة ، أو يتعلم حرفًا واحدًا طيلة سنوات عمره ، التى تجاوزت العشرين ببضعة أشهر ، وإن كنت قد لمحته ذات مرة يمسك كتابًا ، أظنه كان يحاول فهم ما به ، أو يطالع صوره على الأرجح ...

ولأننى أقيم على مقربة من منزل (جميل) ، فقد اعتدت رؤيته ، واعتاد رؤيتى ، ولم يعد يسارع بالاختباء ، كلما وقع بصرى عليه ، أو وقع بصره على ...

وذات يوم ، وعندما كان فى التاسعة من عمره ، لمحته يتطلع إلىّ فى اهتمام ، فابتسمت ، ولوحت له بيدى ...

فى البداية لمحت ذعرًا يطل من عينيه ، وكأنما لم يستطع تفسير حركة يدى ، ثم لم يلبث أن لوح بيده فى تردد ، فابتسمت شفقًا ، ولوحت له بيدى مرة أخرى ، ثم واصلت طريقى ، ونسيت الأمر كله ...

ولكن من الواضح أن (جميل) لم ينسه ..

ففى كل مرة ، كنت أمر فيها أمام منزله ، كان يلوح لى بيده ، ويمنحنى بفمه المشوه ابتسامة ، كانت - للأسف - تزيد ملامحه بشاعة ، ولكننى كنت أجيبه كل مرة بابتسامة ، مع تلويحة يد ...

خيل إلىَّ بعدها أن (جميل) صار ينتظر قدومى كل يوم ، حتى يحظى منى بتلويحة اليد ، مع تلك الابتسامة المشفقة ...

ثم سافرت بعدها للعمل فى واحدة من بلاد النفط ، عندما كان (جميل) فى الخامسة عشرة من عمره ، وقضيت هناك خمس سنوات ، لأعود إلى القرية وهو فى العشرين ، مازال حبيس حوش منزله ، يكتفى بالتطلع عبر النافذة ، عندما لا يكون هناك أحد ...

وعندما لمحنى (جميل) ، عند عودتى ، تهللت أساريره كلها ، وراح يلوح بيديه فى لهفة ، جعلتنى أرد تحيته ، وأنا أسأله ، ولأول مرة عن أحواله ...

ورأيت الدهشة تملأ ملامحه ، ودون أن يجيب ، منحنى ابتسامة كبيرة ، جعلت ملامحه تبدو أشبه بملامح الوحوش ، فى أفلام الرعب الأجنبية ...

كنت قد تزوجت ، قبيل سفرى للعمل ، من فتاة من خارج القرية ، وأنجبت منها ابنة جميلة ، كنت أفخر بالسير فى طرقات القرية ، وأنا أمسك يدها الصغيرة ، وأعرفها بمسقط رأس والدها ...

وكان (جميل) أحد أهم وأكبر مشكلاتى مع زوجتى الشابة ، عندما عدت إلى القرية ...

ففى أول مرة لمحته ، أطلقت صرخة ذعر ، وعدت مبتعدة ، وهى ترتجف وتبكى ، وبذلت يومها جهدًا كبيرًا ؛ لإقناعها بأن هذا (الوحش) كما وصفته ، لا يغادر منزله أبدًا ، وأنه ليس هناك داع على الإطلاق للخوف منه ، إلا أنها ، وعلى الرغم من هذا ، لم ترتح لسكننا إلى جوار (الوحش) ، ورجتنى أن نجد طريقًا آخر ، خلال غدونا ورواحنا ، نتجنب المرور بمنزله ...

وكان من الطبيعى أن أنفذ مطلبها ، وأن أحرص على ألا نمر بمنزل (جميل) أبدًا ، مهما كانت الأسباب ...

تصورت أيامها أنها ستكون آخر مرة أرى فيها (جميل) ...

ولكننى كنت مخطئًا ...

فذات مساء ، كنت أتنزه مع ابنتى (هدى) ، فى طرقات القرية كالمعتاد ، عندما خطر ببالى أن أريها تلك الساقية القديمة ، التى اعتدت الاستذكار عندها فى طفولتى ، وأيام شبابى الأولى ، فسرت ممسكًا يدها الصغيرة ، وهى تتقافز خلفى فى خفة كعادتها ، حتى بلغنا الساقية ، و...

وهناك ، كانت المفاجأة ...

ففى ظل الساقية القديمة ، الذى صنعه بدرًا فضيًا ، مكتمل الاستدارة فى السماء ، شاهدت (جميل) ...

كنت أتصور أنه لا يغادر منزله قط ، ولكنه كان هناك ، يجلس فى صمت وسكون ، ويتأمل البدر فى شرود ، وكأنما يبهره ضوءه الفضى الجميل الناعم ...

وعندما شعر (جميل) بقدومنا ، استدار إلينا ...

وارتجف جسدى كله ، على الرغم منى ...

فتحت ضوء القمر ، بدت ملامحه أكثر بشاعة من حقيقتها ، حتى لقد بدا بالفعل مثل وحش أسطورى ، ينتظر ضحيته القادمة ، فى ظل الساقية القديمة ...

ولوهلة ، استعاد ذهنى كل ما قرأته من قصص الوحوش ، وكل ما شاهدته من أفلام الرعب الأجنبية ، قديمها وحديثها ...

استعاد ذهنى ذلك الرابط العجيب ، الذى اشتركت فيه كل قصص الرعب تقريبًا ، بين الوحوش بكافة أنواعها ، واكتمال استدارة القمر فى السماء ...

استعاد ذهنى كل هذا ، فى لحظة واحدة ، وأنا أحاول إبعاد نظر (هدى) الصغيرة ، عن ملامح (الوحش) ...

وبكل فرحته لرؤيتنا ، فوجئت بابنتى الصغيرة (هدى) تلوح له بيدها ، وتمنحه ابتسامة بريئة جميلة ...

كانت ملامحه شديدة الوضوح لها ، وعلى الرغم من هذا فهى لم تخف ، ولم تشعر حتى بذرة واحدة من التوتر ...

ألقيت عليه تحية سريعة ، وأنا لا أستطيع كبح ذلك التوتر ، الذى سرى فى جسدى كله ، وجذبت ابنتى (هدى) فى عصبية ، وأنا أسير معها بخطى سريعة ، والمسكينة تتقافز خلفى ، محاولة اللحاق بخطواتى الواسعة ، مع ساقيها الصغيرتين الرقيقتين ...

وعندما اقتربنا من المنزل ، خففت من سرعتى قليلاً ، وعندئذ سمعت (هدى) تقول فى براءة مدهشة :

ـ جميل هو عمو هذا يا أبى .

فجرت عبارتها كل الدهشة فى أعماقى ، إلى حد مذهل ...

جميل هو ؟!... كيف رأت تلك الخلقة البشعة جميلة ؟!

كيف ؟!...

ألا يعرف الصغار الفارق بين القبح والجمال ؟!...

ألم تنضج معرفتهم بهذا بعد ؟!...

كان السؤال يواصل طرح نفسه فى أعماقى ، عندما كانت زوجتى تعد طعام العشاء ، وعلى الرغم من أننى حاولت عدم ذكر الأمر ، أو الإشارة

إليه ، إلا أن (هدى) راحت ترويه فى حماس ، جعل عينى زوجتى تتسعان عن آخرهما ، بكل رعب الدنيا ، ثم هاجت وماجت ، وصرخت فى وجهى ، وأقسمت ألا تترك (هدى) وحدها معى فترة أخرى ...

وحتى يمر الأمر فى سلام ، التزمت الصمت تمامًا ، مزمعًا ألا أناقشه معها ، قبل أن تهدأ أعصابها ، ويزول توترها ، فى غضون يوم أو يومين ...

وفى اليوم التالى ، تشبثت (هدى) بأمها ، حال استعدادها للخروج إلى السوق ، فلم تجد زوجتى مفرًا من أن تصحبها معها ، خاصة وأنه كان يوم عطلة بالنسبة لى ، وكنت أميل فيه للنوم ، حتى وقت متأخر ...

ولكن فجأة ، شعرت بزوجتى توقظنى ، وهى ترتجف من قمة رأسها ، وحتى أخمص قدميها ، وعندما فتحت عينى ، هالنى وجهها الشاحب ، وهالتنى عيناها الزائغتان ، فقفزت من الفراش أسألها :

ـ ماذا حدث ؟!

كان صوتها أكثر ارتجافًا من جسدها ، وهى تقول :

ـ كنا فى طريقنا إلى السوق ، عندما هاجمنا ثلاثة من الملثمين ، أمسك أحدهم (هدى) ، ووضع سكينًا كبيرة على عنقها ، وهو يطلب منى أن أعطيه كل ما معى ، وإلا ذبحها أمام عينى .

اتسعت عيناى فى رعب ، وأنا أصرخ :

ـ أين (هدى) ؟!.. أين ابنتى ؟!

برزت (هدى) من خلفها ، وهى تقول فى براءة طفولية :

ـ أنا هنا يا أبى .

احتضنتها بكل لهفتى ، وأنا أهتف مرتجفًا :

ـ حمدًا لله على سلامتك ... حمدًا لله على سلامتك .

ثم أدرت عينى إلى زوجتى ، مستطردًا فى انفعال :

ـ ليس من المهم أن يأخذوا أى شىء ... المهم أن ابنتنا سالمة .

بدت أكثر ارتجافًا ، وهى تقول :

ـ ولكنهم لم يأخذوا شيئًا .

امتزجت ارتجافتى بدهشتى ، وأنا أسألها :

ـ وكيف هذا ؟!...

مالت نحوى ، وهى تجيب بنفس الانفعال :

ـ لأنه جاء .

سألتها بكل توترى :

ـ من ؟!

بدت (هدى) الصغيرة شديدة الحماس ، وهى تجيب ، بدلاً من أمها :

ـ عمو الجميل ...

حدقت فيها بكل دهشتى ، ثم رفعت عينى إلى زوجتى ، التى قالت ، والانفعال لم يفارقها بعد :

ـ لست أدرى من أين جاء ، ولكنه كان شديد الغضب ، ولقد أمسك معصم صاحب السكين ، وكسره بحركة واحدة ، ثم التقط (هدى) قبل أن تسقط أرضًا ، وصرخ فى وجوه الملثمين ، فانطلقوا يعدون مبتعدين فى رعب ، وهم يطلقون صرخات رهيبة ، حتى ذلك الذى تحطم معصمه ، كان يجرى وكأن أشباح الدنيا كلها تطارده ...

حدقت ذاهلاً فى وجه زوجتى ، وهى تضيف ، ودموعها تنساب على خديها الجميلين :

ـ وبعدها أعطانى (هدى) ، فى منتهى الرفق والدعة ، وسمعت (هدى) تشكره فى سعادة ، ولدهشتى البالغة ، طبعت قبلة بريئة رقيقة ، على وجهه المشوه البشع . . . لحظتها تراجع فى دهشة ، ووضع يده على موضع قبلتها ، ثم انطلق يبتعد وسط الحقول ..

ثم ألقت جسدها على الفراش ، وهى تقول باكية :

ـ إننى لم أشعر بمثل هذا الرعب فى حياتى كلها .

قضيت ذلك اليوم كله ، أحاول التسرية عن زوجتى وابنتى ، أملاً أن أنسيهم تلك التجربة البشعة ، حتى كانت الحادية عشرة مساء ، عندما سمعت طرقات مترددة على باب المنزل ، وعندما فتحت الباب ، كانت دهشتى بالغة ...

لقد كان (جميل) ، يقف صامتًا ، يتطلع إلى فى قلق ، لم أتمالك نفسى معه ، وأنا أقول فى خشونة لم أتعمدها :

ـ ماذا تريد ؟!

برزت زوجتى خلفى ، وتطلعت إليه فى صمت مضطرب دون أن تنبس بنت شفة ، فى حين جاءت (هدى) تعدو ، ثم هتفت فى سعادة ، عندما رأته :

ـ عمو الجميل ...

أدهشنى أن ألمح فى عينيه لمحة حانية ، وهو يجذب يده من خلف ظهره ، ويمدها بشىء فيها نحو زوجتى ، فى تردد شديد ...

فى تلك اللحظة ، جمعت الدهشة البالغة بينى وبين زوجتى الشابة ... فذلك الشىء الذى قدمه لها (جميل) ، كان زهرة ...

زهرة واحدة بسيطة ، يمد يده بها نحوها فى تردد ، وهو يتحاشى النظر إلينا جميعًا ...

ولثوانٍ ، تجمد بنا المشهد كله ، ثم لم تلبث زوجتى أن مدت يدها تلتقط الزهرة ، وهى تغمغم :

ـ شكرًا .

استدار يبتعد عن الباب فى سرعة ، وكأنما أنهى مهمة ، تردد طويلاً فى القيام بها ...

أستعيد تلك الذكريات كلها ، بعد أن مر شهر واحد على هذا الحدث الأخير ، وبعد أن عدت إلى المنزل ، وسألت زوجتى ، وهى تنتهى من إعداد طعام الغداء :

ـ أين (هدى) ؟!

فأجابتنى فى بساطة عجيبة :

ـ تلعب فى الخارج ... اطمئن .. (جميل) معها.

لحظتها اتسعت عيناى فى دهشة ...

وابتسمت ...

ولحظتها فقط ، فهمت لماذا رأت (هدى) الجمال ، فى ملامحه المشوهة ...

رأته ؛ لأنها أطهر وأنقى منا جميعًا ...

رأته ؛ لأنها لم تنظر إلى وجهه ...

بل إلى قلبه ...

لم تر الجمال فى ملامحه المشوهة ، ولكنها رأت الجمال فى نفسه الطيبة ومشاعره الرقيقة ، وحبه للبراءة ...

رأت كل هذا ، مما لم نره نحن الكبار ، الذين أعمتنا الدنيا بتعقيداتها ...

رأته ببراءتها فى (جميل) ...

(جميل جمال) .

★ ★ ★

١٦ ـ بمنتهى الدقة ...

بكل توترها ، ألقت (ناهد) نظرة على ساعة يدها ، قبل أن تتلفت حولها ، وهى تقف عند ناصية ذلك الطريق ، الذى بدا أهدأ من المعتاد ، على الرغم من أن عقارب الساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة مساءً بعد ..

وفى قلق ، شابه بعض الغضب ، تساءلت : لماذا لم يحضر (أكرم) فى موعده ؟!...

ولماذا لا يحضر أبدًا فى موعده ؟!...

إنه يثير حنقها بأسلوبه هذا ...

لقد التقت ، خلال العامين الماضيين ، بآخرين فى نفس عمره تقريبًا ، ولكنهم كانوا أكثر التزامًا منه بكثير ...

كلهم كانوا يحضرون فى موعدهم ...

إلا هو ...

الباقون كانوا يحضرون أحيانًا قبل موعدهم ، وينتظرون حضورها ، أما هو ، فعلى الرغم من انبهاره الأولى بها ، عندما رآها أول مرة ، فى تلك (الكافيتريا) ، التى تعمل بها ، إلا أنه لم يحضر مرة واحدة فى موعده ...

أبدًا ...

وهى تكره الانتظار ...



نكرهه ، كما لا تكره أى شىء آخر ...

إنها ، وطيلة عمرها ، شديدة الدقة فى كل ما تفعله ...

كل شىء فى حياتها يسير بنظام ...

وبحسابات كثيرة ...

وربما أكثر مما ينبغى ...

فى بعض الأحيان تراودها فكرة أن سر تأخرها فى الزواج ، وقد تجاوزت الثلاثين ببضع سنوات ، هو أنها شديدة الدقة ...

والرجال كما اعتادتهم ، لا يميلون إلى هذا ...

الرجال الذين تختارهم على الأقل ...

وعملها فى (الكافيتريا) يعرضها للكثير من المضايقات ، ولكنها اعتادت هذا فى صبر وروية ، طالما ستظفر أخيرًا بما تريد ...

وهى تظفر دومًا بما تريد ...

وهى مازالت تذكر كيف حاول (أكرم) مغازلتها فى البداية ، وكيف أدهشه أسلوب صدها له ، بمنتهى الحزم والأدب معًا ...

ولقد حاول فى المرة الثانية استخدام أسلوب الإغراء ، عندما ترك لها بقشيشًا محترمًا ، وهو يمنحها ابتسامة ذات معنى ، ولكنها شكرته بكل أدب ، وانصرفت عن مائدته فى سرعة ...

ومن هنا جاءت محاولته الثالثة ...

لقد تحدث إليها بكل تهذيب ، وأخبرها أنه وجد فيها الأنثى التى يبحث عنها ، وعرض دعوتها إلى عشاء فى مطعم فاخر ؛ ليتعارفا أكثر ، باعتبار أنه يسعى لخطبتها ، وليس للعبث بها ..

ولقد رفضت دعوته على نحو شديد التهذيب ...

ولكن دون صرامة هذه المرة ...

وعبر زميلاتها ، علمت أنه يقوم ببعض التحريات الداخلية عنها ، وأنه علم أنها عزباء ، لم تتزوج قط ، وأنها يتيمة الأبوين ، وتعيش وحدها فى بيت للمغتربات ، على مقربة من (الكافيتريا) ..

ولقد تكرر عرضه مرة ثانية ...

وفى تلك المرة ، كان أسلوبه يجمع ما بين الضراعة والتهذيب ...

ومن عينيه ، أطلت نظرة ، كانت تنتظرها منذ البداية ...

نظرة حب ...

ومع تلك النظرة وحدها ، قبلت دعوته ...

وفى ذلك المطعم الفاخر ، المطل على نيل (القاهرة) ، بدا لها شديد الجدية ، وهو يتحدث عن نفسه ، ويطلب منها أن تتحدث عن نفسها ...

وفى ذلك اليوم أيضًا ، جاء متأخرًا ...

هى وصلت إلى المطعم فى موعدها بالضبط كعادتها ، وانتظرته نصف ساعة كاملة ، قبل أن يصل ، ويعتذر بأن هذا حدث بسبب الزحام ...

وعلى الرغم من أنه قد أخبرها يومئذ الكثير عن حياته ، لم تخبره هى إلا بما عرفه من زميلاتها فحسب ...

وبينما يوصلها إلى بيت المغتربات ، الذى تقيم فيه ، طلبت منه أن ينزلها على مسافة بعيدة ، حتى لا يراهما أحد ، ثم طالبته بأن يخفى أمر لقاءاتهما ، حتى ينحسم الموقف بينهما ، فى حين طلب هو منها أن يلتقيا مرة أخرى ؛ لمزيد من التعارف ...

وفى حجرة نومها ، أخرجت ذلك الدفتر الصغير ، الذى لا يفارقها أبدًا ، ودونت فيه اسمه ، ورقم سيارته الفاخرة ، التى تشف عن ثراء كبير ...

ودونت أيضًا تاريخ موعدهما التالى ...

وفى الموعد التالى ، وصل أيضًا متأخرًا ...

هى وصلت فى موعدها كالمعتاد ، وهو تأخر عشرين دقيقة ...

كالمعتاد أيضًا ...

وفى الموعد الثانى ، ذهبا معًا لمشاهدة فيلم سينمائى رومانسى جديد ...

ولقد فعل ، خلال مشاهدتهما للفيلم ، ما توقعته تمامًا ...

حاول ملامستها ، وملاطفتها ، و ...

وأوقفته فى حزم ، ولكن دون أن تحاول جرح مشاعره ...

وكما توقعت تمامًا ، ضايقه هذا كثيرًا ...

ومع خروجهما من دار العرض ، حاولت ملاطفته وإرضاءه ، وأخبرته أنها تشعر بالتوتر ، عندما يكونان فى مكان عام ...

وبسرعة ، عرض عليها أن يلتقيا فى هذه المنطقة الهادئة ...

ولقد ترددت بعض الوقت ، ثم وافقت ، وهى تخفض عينيها فى خجل ، ولكن صوته أنبأها بأن هذا قد أسعده كثيرًا ...

فى ذلك اليوم أيضًا ، دونت كل شىء فى دفترها الصغير ، ووضعت تاريخ اللقاء الثالث ، ثم أحاطته بدائرة كبيرة ...

واليوم ، يوم موعدهما الثالث ، لم يستطع الوصول فى موعده كالمعتاد ...

لقد وصلت فى موعدها ، بنفس الدقة التى اعتادتها ...

وهو تأخر ...

وعلى الرغم من ضيقها وغضبها ، فقد انتظرته ، لأنها لا تستطيع تفويت هذا الموعد بالذات ...

هذا لأنه ، بالنسبة إليها ، هو الموعد الحاسم ...

كانت قد ارتدت ثيابًا أنيقة ، ومعطف مطر من النوع المقاوم للماء ، وأضافت إلى يديها الصغيرتين قفازين من الجلد الطبيعى ، أضفيا عليها مظهرًا أكثر رقيًا من حقيقتها المتواضعة ...

وكانت تريده أن يرى كل هذا ..

خطتها ، التى وضعتها بمنتهى الدقة ، كانت تستلزم أن يراها ، فى أبهى حلة ، وأكمل زينة ...

هذا يجعل الأمور أكثر يسرًا وسهولة ...

دومًا ...

مضت خمس وعشرون دقيقة على انتظارها ، تعرضت خلالها لمضايقات بعض المارة وركاب السيارات ، قبل أن تظهر سيارته ...

كانت تشعر بغضب شديد ، إلا أنها لم تعاتبه ...

فقط دلفت إلى سيارته فى صمت ، عندما أوقفها أمامها ، وما أن أغلقت الباب خلفها ، حتى غمغم مبتسمًا :

ـ معذرة ، ولكن ...

قاطعته فى هدوء حاسم :

ـ لا داع للاعتذار ...

ابتسم أكثر ، وهو ينطلق بسيارته ، قائلاً :

ـ تبدين شديدة الأناقة الليلة .

غمغمت :

ـ لقد عرضنى هذا للكثير من المضايقات .

ضحك قائلاً :

ـ الناس معذورون ... كيف يمكن أن يروا كل هذا الجمال ، ثم يمضون فى صمت .

عقدت حاجبيها ، قائلة فى غضب :

ـ المفترض أن تغار .

هز كتفيه ، مجيبًا :

ـ إننى كذلك .

ثم التفت إليها مبتسمًا ، ومستطردًا :

ـ ولكننى مازلت أعذرهم .

مطت شفتيها الجميلتين ، دون أن تجيب ، فأطلق ضحكة أخرى ، قبل أن يسألها :

ـ إلى أين تحبين أن نمضى ؟!

غمغمت ، وهى تشيح بوجهها :

ـ إلى مكان هادئ .

سألها فى اهتمام :

ـ أية درجة من الهدوء ؟!

حمل صوتها الكثير من توترها ، وهى تجيب :

ـ مكان لا يرانا فيه أحد .



لمحت عينيه تتألقان ، وقد خيل إليه أنه قد أدرك مغزى ما ترمى إليه ، وبدا الحماس واضحًا فى صوته ، وهو يقول :

ـ على مقربة من هنا ، منطقة شديدة الهدوء ، وليس بها سكان تقريبًا ، ولن يرانا فيها أحد بالتأكيد .

انخفض صوتها ، وهى تقول :

ـ ألن يكون هذا خطيرًا ؟!... سمعت أن بعض البلطجية يتربصون بالسيارات ، التى تأتى إلى الأماكن المقفرة ، و ...

قاطعها بضحكة عالية ، وهو يقول :

ـ اطمئنى ... أنا أحمل مسدسًا .

أومأت برأسها ، دون أن تجيب ، ولاذت بالصمت ، وهو يقطع الشوارع الساكنة ، حتى بلغ منطقة مقفرة بالفعل ، فأوقف سيارته بين بنايتين ، وهو يقول ، فى صوت تقاطرت منه اللهفة :

ـ هنا لن يرانا أحد بالتأكيد .

قالها ، وهو يقترب منها ، فغمغمت دون مقاومة :

ـ أتحمل مسدسًا بالفعل ؟!

انتزع مسدسًا صغيرًا ، إيطالى الصنع ، من جراب تحت إبطه ، ولوح به أمامها ، قائلاً :

ـ ها هو ذا .

تطلعت إلى المسدس بلا انفعال ، وهى تغمغم :

ـ أيمكن أن يحمينا ؟!

هتف فى حماس :

ـ بالتأكيد .

هتف بها ، وهو يعيد المسدس إلى جرابه ، و ...

وفجأة ، اتسعت عيناه عن آخرهما ...

ومن عينيه المتسعتين ، تفجرت نظرة تجمع بين الألم والدهشة ...

وعندما حاول الالتفاف إليها ، وسحب مسدسه مرة أخرى من جرابه ، انتزعت هى ذلك الخنجر الصغير الرفيع ، الذى غرزته فى عنقه ، أثناء انشغاله بإعادة المسدس إلى جرابه ، ثم طعنته به مرة أخرى ، فوق عظمة القص تمامًا ...

وبلا أية مشاعر ، شاهدت نصل الخنجر كله يغوص فى عنقه ، مع نظرة الذهول فى عينيه ، وأمسكت معصمه بيسراها فى قوة ؛ لتمنعه من إخراج مسدسه ...

قاوم بضع لحظات ، ولكنها عاودت طعنه مرة ثانية ...

وثالثة ...

ورابعة ...



حتى توقفت مقاومته تمامًا ، وعيناه مازالتا مفتوحتين عن آخرهما ، وتحملان نفس نظرة الألم الذاهلة ...

وفى هدوء شديد ، وعندما اطمأنت إلى أنه قد لقى حتفه ، انتزعت الخنجر الصغير من عنقه ، ومسحته بمنديل ورقى فى هدوء ، وهى تخرج بعض المناديل المعطرة من حقيبة يدها الجلدية ، وتستخدم مرآة السيارة الداخلية ؛ لتمسح الدماء عن وجهها ، فى دقة شديدة ...

كان من الضرورة أن يبدو الأمر كحادث سطو كالمعتاد ؛ لذا فقد أخذت حافظة نقوده ، ومسدسه ، وأفرغت الحافظة من النقود ، التى زادت عن ألفى جنيه ، ووضعت النقود فى حقيبة يدها الصغيرة ، ثم ألقت الحافظة والمسدس فى كيس من البلاستيك الأسود ، أخرجته من جيب معطفها ...

وعندما غادرت السيارة ، خلعت معطف المطر الملوث بالدم ، والقفازين الجلديين ، وألقت كل هذا فى الكيس الأسود نفسه ، وهى تراجع خطتها الدقيقة ...

ستستقل واحدة من سيارات الأجرة ، على بعد خمسة أو ستة شوارع من المكان ، وستذهب إلى منطقة بعيدة تمامًا ، حيث تلقى الكيس الأسود فى الماء ، وثقل المسدس سيضمن غوصه فى الأعماق ، ثم تعود بعدها إلى حيث تقيم ، وبراءة الأطفال فى عينيها ...

وفى الغد ، ستخبر زميلاتها أنه شخص حقير ، حاول التحرش بها ، فتركته وحده وانصرفت ، وسيبرر لهن هذا ، عدم حضوره مرة ثانية ...

والنقود لن تنفقها مرة واحدة ... ستحتفظ بها لشهر أو شهرين ، حتى يتم قيد الحالة بأنها سطو مسلح ، أسفر عن مصرع الضحية ...

وفى هدوء ، وبينما تسير حاملة ذلك الكيس الأسود ، تذكرت ضرورة أن تضيف اسمه إلى قائمة ضحاياها ، فى ذلك الدفتر الصغير ...

فكل شىء ينبغى أن يسير فى دقة ...

فى منتهى الدقة .

★ ★ ★



١٧ ـ ليلة مثالية . . .

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة مساءً ، عندما ارتفع رنين هاتفى المحمول ، وأعلنت شاشته أن صديقى الغامض (نسيم) هو المتصل ، فضغطت زر الاتصال ، قائلاً ، فى شىء من المرح :

ـ (نسيم) ... كيف حالك ؟!... هل عدت إلى الظهور مرة أخرى ؟!

فاجأنى صوته شديد التوتر ، وهو يقول :

ـ (مراد) ... أريد أن أراك الآن .

سألته فى دهشة :

ـ ولماذا الآن ؟!

أجابنى بكل توتره :

ـ أرجوك ... لا تلق الكثير من الأسئلة ... إننى أحتاج إلى رؤيتك فورًا .

حاولت هضم الموقف كله ، وأنا أغمغم :

ـ فليكن ... ألنت فى منزلك ؟!

أجابنى فى لهفة غير طبيعية :

ـ بل فى القبو .

لم أكن قد سمعته يتحدث عن ذلك القبو من قبل ، لذا فقد سألته فى حذر :

ـ أى قبو ؟!

أجاب فى سرعة ولهفة :

ـ قبو منزل أسرتى القديم فى (الفيوم) ... سأعطيك العنوان .

لم تكن الدهشة قد فارقتنى بعد ، عندما ركبت سيارتى ؛ لأنطلق بها إلى (الفيوم) ؛ تلبية لنداء صديق ...

والواقع أن (نسيم) لم يكن صديقًا حميمًا كما قد تتصورون ، بل هو صديق تعرفته فى حفل عام ، أقامته شركة الأدوية التى يعمل بها ، منذ ما يقرب من عامين ، ولقد بدا شديد الطيبة والمودة ، على الرغم من وجهه الشاحب ، وعينيه الغائرتين ، وأسنانه الصفراء ، التى توحى بإهماله التام للمظاهر والنظافة الشخصية ...

يومها حدثنى كثيرًا عن الأبحاث التى يجريها ، على عدد كبير من مرضى الدم ، ومحاولاته لإيجاد بديل صناعى للدم البشرى ، يمكنه تعويض حالات النقص الدائم فيه ، ويستطيع ـ فى الوقت ذاته ـ مد خلايا الجسد بما تحتاج إليه من الأكسجين والغذاء ...

ولقد عارضته أيامها كثيرًا ، باعتبار أن الدم البشرى سائل حيوى ، يستحيل إيجاد بديل معملى له ، إلا أنه بدا شديد الاقتناع والحماس لأبحاثه ، إلى حد منعنى من إحباطه بآرائى المخالفة ..

بعدها اختفى (نسيم) لأكثر من ثلاثة أشهر ، قبل أن يعاود الاتصال بى مرة أخرى ؛ ليخبرنى فى حماس أن أبحاثه تتطور بشكل كبير ، وطلب لقائى للحديث عنها ...

وذات ليلة ، اكتمل فيها القمر ، وتوسط كبد السماء ، التقينا ، وتحدثنا كثيرًا وطويلاً ، وراح يشرح لى أبحاثه ونتائجها ، وأنا أستمع إليه فى اهتمام صامت ...

كان أكثر نحولاً وشحوبًا ، وكأنه لم يتناول طعامًا كافيًا ، خلال الأشهر الثلاثة ، إلا أنه أيضًا كان أكثر حماسًا وحرارة ...

التقينا بعدها خمس مرات ، على فترات متباعدة ، وفى كل مرة كان يزداد نحولاً وشحوبًا ، ويتطلع إلىَّ بنظرات عجيبة متوترة ، حتى خشيت أن تكون أبحاثه قد أرهقت عقله ، مع قلة ما يتناوله من طعام ، فلم يعد يستطيع التفكير على نحو سليم ...

أما اتصال الليلة ، فقد جاء بعد ستة أشهر من الانقطاع التام ، وعلى ذلك النحو العجيب الذى ذكرته ...

وعلى الرغم من هذا ، فهأنذا على مشارف مدينة (الفيوم) ، حيث أرادنى أن أكون ...

لم يكن التوصل إلى عنوان منزل والديه عسيرًا ؛ فهو منزل قديم ، تحيط به الحقول من كل جانب ، وطرازه يوحى بأن بناءه يعود إلى أكثر من قرن من الزمان ...

وعند باب المنزل ، استقبلنى (نسيم) فى توتر شديد ، وحاول أن يبتسم ابتسامة مضطربة ، وهو يقول :

ـ كنت أعلم أنك ستأتى .

قلت ، وأنا أصافحه فى حذر :

ـ لا يمكننى أن أتأخر على نداء صديق .

كان قد وصل إلى درجة مخيفة من الشحوب والنحول ، وصارت نظراته أشبه بنظرات المجانين ، وخاصة عندما ألقى نظرة عصبية ، على القمر المكتمل فى السماء ، وهو يغمغم :

ـ أعتقد أنها ليلة مناسبة تمامًا .

لم أدر ما الذى كان يعنيه بكلمة (ليلة مناسبة) هذه ، إلا أننى انتبهت إلى أن كل لقاء لنا كان يتم مع اكتمال القمر ، مما جعلنى أتساءل : أمصادفة هذه ، أم أن (نسيم) يعشق الليل والقمر على نحو ما ؟!...

لم يمنعنى هذا من اللحاق به إلى قبو المنزل ، والذى أدهشنى أن يحوى ما يشبه معملاً كيماويًا كاملاً ، على ذلك الطراز القديم ، الذى تراه فى أفلام الرعب ، فسألته فى دهشة :

ـ ماذا تفعل هنا ؟!

أجابنى فى سرعة واقتضاب :

ـ أجرى أبحاثى.

غمغمت وأنا أدير عينى فى المكان فى حيرة :

ـ هناك أجهزة حديثة أكثر دقة .

غمغم وهو يتجه نحو قارورة كبيرة ، تحوى سائلاً شفافًا ، له لون أحمر باهت :

ـ هذا يكفى .

صب بعض ذلك السائل الأحمر الشفاف فى وعاء صغير ، وهو يسألنى ، دون أن يلتفت إلى :

ـ ماذا تعرف عن مصاصى الدماء ؟!

صدمنى السؤال العجيب ، فحدقت فيه لحظات ، وأنا أغمغم :

ـ ما يعرفه كل متابع لأفلام الرعب الإنجليزية والأمريكية .. أنها كائنات ليلية ، شبه أموات ، لهم أنياب بارزة ، و ...

قاطعنى وهو يرج الوعاء ، الصغير فى رفق ، ثم يضيف إليه سائلاً آخر ، له لون أزرق باهت :

ـ هراء .. كل هذا من خيال (برام ستوكر) ، أول من ألف رواية عن مصاص الدماء ، الذى اقتبس اسمه من الكونت (دراكيولا) ، حاكم (تراسلفانيا) القديم[1] .

غمغمت فى حذر :

ـ هذا ما يعرفه الكل عن مصاصى الدماء الخرافيين .

وهنا التفت إلىّ ، وبدت عيناه زائغتين أكثر ، وهو يقول :

ـ هنا تكمن المشكلة ..

(١) حقيقة .

ثم مال نحوى ، وبدا صوته مخيفًا ، وهو يضيف :

ـ ليسوا خرافيين .

تراجعت فى دهشة ، مغمغمًا :

ـ ماذا ؟!

اعتدل ، والتقط محقنًا ، سحب بواسطته بعض الخليط الذى صنعه ، وهو يقول فى توتر :

ـ لم أكن أتوقع أن توصلنى أبحاثى إلى هذا ، ولكنهم كائنات حقيقية ، تعيش بيننا ، وتتغذى على دماء الضحايا ، التى يقع اختيارها عليها .

وتألقت عيناه ، وهو يضيف فى لهجة ، بدت أشبه بالجنون :

ـ ولكن ليس بواسطة أنياب حادة ، ومخالب ، وكل تلك الخرافات ، التى روجت لها الروايات وأفلام السينما ... إنهم يتعاملون بوسائل بشرية طبيعية ... وسائل هى السر فى أن أحدًا لم يكشف أمرهم ، طوال قرون من الزمان .

لذت بالصمت بضع لحظات ، وأنا أتطلع إليه ، قبل أن أسأله فى حذر :

ـ كيف يحصلون على دماء ضحاياهم إذن ؟!

لوح بيده الحرة فى الهواء ، وهو يمسك المحقن بيده الأخرى فى حرص ، هاتفًا :

ـ تمامًا كما يحصل أى بشرى عادى على الدماء

ثم مال نحوى بحركة حادة ، مستطردًا :

ـ هل سبق لك أن تبرعت بالدم ؟!

تراجعت مبتعدًا عنه ، وراودنى شعور بأننى قد أخطأت بالمجىء إليه ، وأنا أغمغم :

ـ ليس كثيرًا .

اعتدل بنفس الحركة الحادة ، وهو يقول :

ـ إنهم يغرسون إبرة سميكة فى عروقك ، ويسحبون كمية من الدم ، عبر أنبوب شفاف ، إلى وعاء يحوى مادة مانعة للتجلط ... أليس كذلك ؟!

غمغمت فى حذر أكبر :

ـ بلى .

هتف فى انفعال :

ـ هذا ما يفعله مصاصو الدماء بالضبط ... فى جيب كل منهم ، ستجد كيسًا فارغًا ، يحوى تلك المادة المانعة للتجلط ، وعندما يقع اختيارهم على الضحية المناسبة ، يغرسون الإبرة السميكة فى عروقها ... وبالتحديد فى وريدها العنقى ، ويسحبون الدم من جسدها .

اتسعت عيناى لحظات ، قبل أن أقول فى عصبية :

ـ هذا أمر لا يمكن حدوثه ... لا أحد سيستسلم لشخص يغرس إبرة غليظة فى وريده العنقى ... سيقاوم حتمًا .

رفع ذلك المحقن إلى جوار وجهه ، مجيبًا وعيناه تزدادان جنونًا :

ـ يقومون بتخدير الضحية أولاً .

تراجعت أكثر ، محدقًا فى ذلك المحقن ، وأنا أسأله فى عصبية :

ـ (نسيم) ... لماذا طلبت منى الحضور إلى هنا ؟!

ابتسم ابتسامة ، أضفت على مظهره شكلاً مخيفًا ، وهو يقول :

ـ ألا توافق معى ، على أنها ليلة مناسبة ؟!

قلت فى عصبية أكثر :

ـ (نسيم) ... إنك تحتاج إلى علاج طبى .

هز كتفيه فى لا مبالاة ، وهو يقول :

ـ كل ما أحتاج إليه هو الراحة ... لم أحصل على الراحة منذ فترة طويلة ... طويلة للغاية .

حاولت الابتعاد أكثر ، إلا أن أدوات معمله البدائى تصدت لمحاولتى ، فقلت بكل عصبيتى :

ـ (نسيم) ... لا تجبرنى على فعل أمر لا أريده .

ابتسامته هذه المرة كشفت أسنانه الصفراء القبيحة ، وهو يقول :

ـ أحقًا لا تريده ؟!

ثم رفع يده الحرة إلى أعلى ، وهو يقترب منى بمحقنه ، متابعًا فى نشوة عجيبة :

ـ ألم تنتبه إلى أنها ليلة مثالية ... القمر بدر ، والسماء خالية من السحب ، ونحن نقترب من منتصف الليل .

حدقت فى ذلك المحقن الذى يحمله فى تحفز ، وأنا أفكر فى أنه يدفعنى بالفعل إلى أمر لا أريده ، ولكنه واصل ، مع اقترابه منى أكثر :

ـ وهذا المنزل مثالى ... إنه وسط حقول كبيرة ، ويبعد مسافة كافية عن أقرب جار ، ونحن فى قبو مغلق ، و ...

قبل أن يتم عبارته ، انقض علىَّ فجأة بمحقنه ، الذى يحوى ذلك الخليط ، الذى أجهل ماهيته ، و ...

وبسرعة لم يتوقعها ، ملت بجسدى جانبًا ، وأمسكت معصم يده ، التى تحمل ذلك المحقن ، ولويته فى قوة ، وشاهدت محقنه يسقط أرضًا ، فلويت ذراعه خلف ظهره ، وأنا أقول فى قسوة :

ـ معلوماتك عن مصاصى الدماء ناقصة يا هذا .

كان يقاوم فى استماتة ، ولكن جسده النحيل الضعيف لم يسمح له بهذا ، فأضفت ، وأنا أدس يدى فى جيبى :

ـ إنهم يتمتعون بقوة تفوق قوة البشر ، وبسرعة استجابة غير طبيعية .

أخرجت من جيبى ذلك الكيس ، الذى يحوى المادة المضادة للتخثر ، والذى يمتد منه أنبوب قصير ، ينتهى بإبرة غليظة ، متابعًا :

ـ ونحن نفضل فى المعتاد تخدير الضحية أولاً ، ولكنك أجبرتنى على فعل ما لا أريده .

غرست الإبرة الغليظة فى عنقه ، وهو يصرخ :

ـ لقد كشفت أمرك منذ زمن ، وأبحاثى نشرتها على شبكة الإنترنت ، قبل وصولك إلى هنا ... العالم كله سيكشف أمركم ... العالم كله سيعرف بوجودكم .

أجبته فى سخرية قاسية ، وأنا أشاهد فى شراهة دماءه الطازجة ، تسيل عبر الأنبوب القصير ، إلى كيس الدم :

ـ ومن سيصدقك ؟!

لم أكن قد تناولت وجبة دم طازجة ، منذ زمن طويل ، ولكن (نسيم) لم يكن من طراز الضحايا الذى أفضله ، فهو شاحب نحيل ، يحوى جسده دماء ضعيفة قليلة ..

ولكننى كنت مضطرًا ...

فلقد كان على حق تمامًا ...

إنها ليلة مثالية ...

للغاية .

★ ★ ★

١٨ـ شباب إلى الأبد...

للوهلة الأولى ، بدا لمحرر صفحة الحوادث ، فى تلك الصحيفة اليومـية الشهيرة ، (ماجد مجدى) ، أنه أمام سبق صحفى كبيـر ، يمكن أن يقفز باسمه إلى الذروة ، عندما اتصلت على هاتفه الخاص ، وليس هاتف الجريدة ، زوجة العالم الشهير (سالم وهيب) ، الذى احتلت أخبار اختفائه الغامض مكـان الصدارة ، فـى كل الصحف تقريبًا ، خـلال الأسبوع الماضى ...

كانت الشرطة تكثف جهودها ؛ للبحث عن (سالم وهيب) ، الذى أعلن منذ ثلاثة أسابيع فحسب ، أنه إزاء كشف جديد ، سيقلب كل موازين العلم رأسًا على عقب ...

ولقد بذل كل إعلامى فى (مصر) جهدًا كبيرًا ، لمعرفة هذا الكشف الخطير ، إلا أن مقابلة الدكتور (سالم) بدت مستحيلة تمامًا ، إذ إن زوجته (نوال) ، سيدة المجتمع الشهيرة ، لم تسمح لهم بهذا قط ، وأخبرتهم بكل الحزم ، أن العالم الكبير يرفض الإدلاء بأى تصريح خاص ، قبل أن يعلن كشفه الخطير للعالم أجمع ...

ثم وفجأة ، وبلا مقدمات ، أخبرت السيدة (نوال) الشرطة عن الاختفاء المفاجئ لزوجها ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ...

فى البداية ، تصور بعض رجال الشرطة أن الزوجة قد قتلت زوجها ، منذ أن رفضت السمـاح لأى شخص برؤيتـه أو مقابلتـه ، أو حتى سمـاع

صوته ، عبـر أسلاك الهاتف ، إلا أن كل التحـريات أثبتت أن (سالم) وزوجته عاشقان منذ زمن طويل ، وأن السيدة (نوال) مازالت مبهورة بزوجها ، على الرغم من تجاوز كليهما منتصف الأربعينات ، وأنه من المستحيل أن تقدم على أى شىء ، يمكن أن يؤذيه ...

بالإضافة إلى هذا ، لم تعثر الشرطة ، أو أجهزة الأدلة الجنائية ، على أى أثر ، يشير إلى حدوث جريمة من أى نـوع ، فى المنزل ، أو المعمل الصغير الملحق به ، كما أن ذلك الحـزن ، الذى انهمر من عينى السيـدة (نوال) ، وهى تحتضن طفلهما الوحيد فى مرارة ، بدا صادقًا للجميع ، مما أثار الكثير من علامات الاستفهام حول اختفاء العالم ...

فلقد بدا كما لو أنه قد تلاشى تمامًا ...

ثيابه كلها فى موضعها ...

حافظة نقوده ..

سلسلة مفاتيحه ...

وحتى بطاقات ائتمانه ...

فكيف اختفى ؟!...

كيف ؟!...

كل هذا دار فى ذهن (ماجد) ، وهو يستقبل مكالمة السيدة (نوال) ، والتى طلبت منه الحضور إلى منزلها ، حتى تطلعه على ما لا تستطيع أن تطلع أحدًا عليه ...

وبأقصى سرعة استطاعها ، كان يدق باب فيلتها ، لتستقبله بنفسها ، قائلة فى حزن وانكسار ، وابنها الصغير يتشبث بيدها فى توتر ، وكأنه يخشى أن يختطفه منها أحد ...

« كنت أعلم أنك ستأتى مسرعًا ... »

قالتها فى هدوء حزين ، فازدرد (ماجد) لعابه فى صعوبة ، وغمغم :

ـ لم يكن من الممكن أن أتأخر .

دعته للدخول ، وجلست أمامه فى صالون الفيلا ، وهى تضع ابنها الصغير على ركبتيها ، فتشبث بها مرة أخرى ، وهو يتطلع إلى (ماجد) فى قلق ، فربتت عليه فى حنان ، محاولة تهدئته ، وهى تقول :

ـ ليس لدى من شك ، فى أنك تعلم لماذا أنت هنا .

غمغم (ماجد) ، محاولاً كتمان انفعاله :

ـ بشأن اختفاء الدكتور (سالم) .

أومأت برأسها إيجابًا ، وضمت إليها ابنها أكثر ، وهى تقول :

ـ بالضبط ... المجتمع كله منشغل بالبحث عن سر اختفائه ، ولقد استجوبتنى الشرطة ثلاث مرات ، وأخبرتهم فى كل مرة أننى مثلهم ، أجهل سر اختفائه .

غمغم (ماجد) :

ـ أعلم هذا .

تطلعت السيدة (نوال) إلى عينيه مباشرة ، قبل أن تقول فى حزم :

ـ ولكننى لم أكن صادقة فى هذا .

تراجع بحركة حادة ، واتسعت عيناه وهو يحدق فيها ، قبل أن يقول متلعثمًا :

ـ إذن فأنت تعلمين .

أومأت برأسها فى حزم ، وهى تضم طفلها إليها ، مجيبة :

ـ بالتأكيد .

قاوم ذلك الانفعال الشديد ، الذى سرى فى كيانه كله ، وهو يعتدل على مقعده ، ويسألها فى توتر :

ـ وهل تنوين إخبارى ؟!

أومأت برأسها مرة أخرى ، مجيبة :

ـ لهذا طلبت مقابلتك ، فزوجى كان يطالع ما تكتبه دومًا ، ويقول : إنك من أكثر من يكتبون فى هذا المجال صدقًا والتزامًا .

أومأ برأسه ، وهو يزدرد لعابه ، دون أن يستطيع النطق بكلمة ، فتابعت هى فى هدوء ، لا يتناسب حتمًا مع الموقف :

ـ اختفاؤه يرتبط بذلك الكشف الكبير ، على نحو مدهش ، ولكنه كان يخبرنى دومًا أنه يحتاج إلى إجراء ولو تجربة واحدة على البشر ، قبل أن يعلن كشفه .

اندفع يسألها فى لهفة :

ـ وما هذا الكشف بالضبط ؟!

صمتت لحظات ، متطلعة إليه ، قبل أن تجيب فى حزم :

ـ حلم البشرية منذ الأزل ... الإكسير ... إكسير الشباب .

تراجع فى مقعده كالمصعوق ، يحدق فيها ذاهلاً مستنكرًا ، وكأنما تصور أن المرأة قد أصيبت بنوع من الجنون ، بسبب اختفاء زوجها المفاجئ ، وبدا من نظراتها أنها قد استوعبت ما دار فى ذهنه ، فهزت رأسها ، واحتضنت ابنها أكثر ، وكأنها تحميه منه ، وهى تقول :

ـ أعلم أن هذا قد يبدو أشبه بالجنون ، ولكن المؤسف أنه حقيقة ... (سالم) توصل بالفعل إلى عقار يعيد الحيوية والشباب لخلايا الجسد ، بحيث ينقص بيولوجيًا عدة سنوات من العمر ، قدرها هو بعشر سنوات تقريبًا ، من النتائج التى حصل عليها ، من تجاربه على حيوانات المعمل .

غمغم (ماجد) :

ـ ولكن هذا .

قاطعته فى حزم :

ـ حقيقة يا أستاذ (ماجد) ... حقيقة ستفسر لك كل شىء ، لو أنك فقط حررت عقلك ، وقررت قبولها .

ظل صامتًا بضع لحظات ، يواصل تحديقه فيها ، قبل أن يقول فى توتر :

ـ فليكن ... ما علاقة هذا باختفائه .

مطت شفتيها ، وألقت نظرة حانية على طفلها ، قبل أن تقول :

ـ لقد أيقظنى ذات يوم ، قرب الفجر ، ليخبرنى أنه قد أجرى التجربة على نفسه ، وتناول العقار ، الذى يبدأ تأثيره خلال ساعات قليلة ... ليلتها أصابنى الفزع ، وعاتبته على ما فعل ، ولكنه كان حنونًا للغاية ، وهو يخبرنى أنه واثق من نجاح عقاره ، وسرعان ما سأدرك هذا .

غمغم (ماجد) ، وهو يحاول ازدراد لعابه فى صعوبة :

ـ هل ... هل قتله العقار ؟!

هزت رأسها نفيًا ، وهى تجيب :

ـ على العكس ... لقد نجح نجاحًا مبهرًا ؛ ففى العاشرة من الصباح التالى ، بدا تأثيره شديد الوضوح ... لقد زالت تجاعيد وجهه القليلة ، وصارت بشرته صافية ، واختفى الشيب ، الذى كان قد بدأ يسرى فى شعره ، وبدا أكثر حيوية ونشاطًا ، إلى حد جعله يشبه صورته ، عندما كان فى الثالثة والثلاثين من العمر .

هتف (ماجد) مبهورًا :

ـ مدهش .

ابتسمت ابتسامة حزينة ، وطبعت قبلة على جبين طفلها ، قبل أن تقول :

ـ هكذا بدا الأمر فى البداية ، مما جعله يطير سعادة ، وأخبرنى أنه سيعد جرعة أخرى لى ، حتى ننعم معًا بشباب أبدى ، ونعوض ، تلك الأيام ، التى ضاعت فى تجاربه وأبحاثه .

بدا مبهورًا بضع لحظات ، قبل أن يسأل فى توتر :

ـ ما علاقة هذا باختفائه إذن ؟!... هل علمت جهة ما بكشفه العظيم ، فقررت التخلص منه ؟!

هزت رأسها نفيًا مرة أخرى ، وقالت فى حزن :

ـ مطلقًا ... إنه ، وعلى الرغم من سعـادته ، لم يعلـن عن كشفـه هذا لأية جهة ، وإنما عكف على صنع جرعة ثانية ، مؤكدًا أن الكشف سيذهل العالم ، عندما نظهر معًا فى المؤتمر الصحفى أصغر سنًا ، ويرى العالم كله عبقرية كشفه .

سألها (ماجد) ، وقد ازداد انفعالاً :

ـ ماذا حدث إذن ؟!

تنهدت بكل الحزن والأسى ، قبل أن تجيب :

ـ فى صباح اليوم التالى ، أصابنى الذعر ، عندما شاهدت شابًا يافعًا يخرج من معمله ، وعلى وجهه كل علامات الأسى ، ليفاجئنى بأنه (سالم) زوجى ، وبأن العقار مازال مستمرًا فى تأثيره ، ولم يتوقف عند حدود السنوات العشر التى توقعها ، بل يواصل عمله ، حتى صار هو فى أوائل العشرينات من عمره .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، مغمغمًا :

ـ يا إلهى !...

واصلت بكل الحزن والأسى :

ـ الذعر الذى أصابه ، كان أضعاف الذعر الذى أصابنى ، ولقد أخبرنى أنه سيبذل قصارى جهده ؛ لإنتاج عقار مضاد ، يوقف عمل الإكسير ، فى أسرع وقت ممكن .

صمتت لحظة ، لم يجرؤ هو فيها على نطق حرف واحد ، قبل أن تكمل :

ـ ولكن ذاكرته كانت تنخفض بدورها ، وتتناسب مع ما كان عليه ، فى العشرينات من عمره ، وارتبك عمله ، وفشلت محاولاته ، و ...

عادت إلى صمت مفعم بالحزن لحظات ، قبل أن تضيف فى اقتضاب :

ـ ولم ينجح عقاره المضاد .

اتسعت عينا (ماجد) عن آخرهما ، وهو يغمغم :

ـ وماذا حدث بعدها ؟!

زفرت زفرة حارة ، وهى تجيب :

ـ واصل العقار عمله .

سألها فى صعوبة :

ـ إلى أى مدى ؟!

ابتسمت ابتسامة شاحبة حزينة ، وهى تهـز رأسها ، وغمغمت ، وهـى تطبع قبلة أخرى على جبين طفلها :

ـ من حسن الحظ أننا لم ننجب .

اتسعت عينا (ماجد) أكثر ، وهو يحدق فى طفلها ، مغمغمًا ، فى لهجة أقرب إلى الذعر :

ـ ولكن هذا ..

بدت ابتسامتها أكثر شحوبًا ، وهى تقول :

ـ من العجيب أن كل محققى الشرطة لم ينتبهـوا إلى هذا ... وكلهـم تصوروا أن الطفل الذى أرعاه هو ابننـا ، ولم يخطـر ببال أحدهم ، ولـو لحظة واحدة ، أنه (سالم) ... زوجى .

قفز من مقعده ذهولاً ، وهو يحدق فى الطفل ، وانتبه فجأة ، إلى أنه يبدو أصغر سنًا مما كان عليه ، عندما وصل إلى المنزل ، وانعقد لسانه ، فلم يستطع النطق بكلمة واحدة ، فى حين تابعت هى :

ـ زوجى الذى أحببته من كل كيانى ، والذى سأظل أحبه وأرعاه .

بصعوبة بالغة ، غمغم محدقًا فى الطفل :

ـ وتريديننى أن أنشر هذا ؟

هزت رأسها ، قائلة :

ـ أردت فقط أن يشاركنى شخص ما الحقيقة . . . ويمكنك نشر ما تريد ؛ لأننى اخترت التوقيت فى دقة ؛ فمع موعد النشر ، لن يمكنك إثبات أى شىء .

قال فى صعوبة :

ـ هناك تحاليل للحامض النووى ، و ...

قاطعته فى حزم :

ـ كل هذا لن يفيد .

هتف :

ـ ولماذا ؟!

كانت ثياب الطفل قد اتسعت ، وبدا وكأنه فى الثالثة من عمره فحسب ، عندما طبعت قبلة أكثر حنانًا على جبينه ، مجيبة :

ـ لأنه سيكون عندئذ ، قد ...

بترت عبارتها ، لتزدرد لعابها فى صعوبة ، ثم تكمل مرتجفة :

ـ تلاشى .

ومن فرط ذهوله ، لم ينطق (ماجد) بكلمة واحدة ...

أية كلمة .

★ ★ ★



١٩ ـ كم مهمل ...

انفعال عجيب ، ذلك الذى استقبل به (حمدى) زميل عمره (فؤاد) ، فى تلك الليلة ..

ولكنه انفعال لم يدهش (فؤاد) لحظة واحدة ...

فمنذ كانا زميلين فى كلية العلوم ، لم يتغير كلاهما قط ...

(فؤاد) هادئ دومًا ، شديد الصبر فى كل ما يخطط له ، شديد الذكاء على نحو ملحوظ ...

(حمدى) أيضًا كان دومًا شديد الذكاء ، إلى حد بهر كل أساتذته ، ولكنه ، على عكس (فؤاد) ، كان دومًا قليل الصبر ، كثير الانفعال والحماس ، فى كل ما يدرسه ويفعله ، ويخطط له ...

وبعد تخرجهما ، وعلى الرغم من عبقريتهما ، ومن أنهما كانا على رأس دفعتهما بفارق ملحوظ ، لم يتم تعيين أيهما كمعيد فى الكلية ؛ لأن ابنى اثنين من أساتذة الكلية ، ممن يقلّون عنهم ذكاءً ، فازوا بالمنصبين لأسباب واهية ، لم تقنع أيهما ...

وفى الوقت الذى اكتفى فيه (فؤاد) بوظيفة باحث ، فى المعهد القومى للبحوث ، براتب محدود ، إلى جوار عمله كاستشارى علمى ، لعدة شركات خاصة ، رفض (حمدى) التعيين فى أية وظيفة ، حكومية أو خاصة ، واستغل الثروة التى ورثها عن والده الراحل ؛ لينشئ لنفسه معمل أبحاثه الخاص ، فى فيلا الأسرة القديمة فى (قويسنا) ...

ومنذ أكثر من عامين ، يتحدث (حمدى) فى حماس عن اختراع جديد ، سيجعله أشهر عالم فى الكرة الأرضية كلها ، وسيرشحه حتمًا للفوز بجائزة (نوبل) فى العلوم ...

ولأن (حمدى) يتحدث دومًا فى حماس وانفعال ، أيًا كان ما يتحدث عنه ، لم يهتم (فؤاد) كثيرًا ، بحديثه ، وواصل حياته على نحو طبيعى ...

حتى كان هذا اليوم ...

لقد اتصل به (حمدى) فى حماس شديد ، وأخبره أنه قد أنهى اختراعه ، ويريده أن يكون شاهدًا على تجربته الأولى ...

وعلى الرغم من مشاغل (فؤاد) العديدة ، قرر ألا يخذل زميل عمره ، وقاد سيارته فى السادسة مساءً ، إلى فيلا عائلة (حمدى) فى (قويسنا) ...

كان يعرف المكان جيدًا ، منذ كان والد (حمدى) الراحل يدعوه إلى ما أسماه عزبته ، حيث كانت الفيلا خارج مدينة (قويسنا) ، ومحاطة بفدانين من الفواكه ، كان لهما الفضل فى رفض (حمدى) للعمل ، وعدم احتياجه للمال ...

وعندما وصل (فؤاد) إلى الفيلا ، وقبل أن يطرق بابها ، لفت انتباهه جسمان كبيران ، أشبه بكشكى هاتف قديمين ، تم وضعهما إلى جوار سور الفيلا ، وتم إيصالهما بكابلات كهربية للضغط العالى ..

وما أن رآه (حمدى) ، حتى هتف بكل انفعاله :

ـ كنت أعلم أنك ستأتى .

غمغم (فؤاد) ، فى حذر لم يدر له سببًا :

ـ كان من الضرورى أن أفعل .

كان (حمدى) يلهث من فرط الانفعال ، وهو يميل نحوه ، قائلاً :

ـ لقد فعلتها ... حققت حلم العلماء ، منذ عشرات السنين .

سأله (فؤاد) بنفس الحذر :

ـ أى حلم منها ؟!... العلماء لهم الكثير من الأحلام .

اعتدل (حمدى) ، ولهث أكثر ، وهو يجيب :

ـ الانتقال الآنى .

ارتفع حاجبا (فؤاد) فى شدة ، وهو يحدق فيه بعينين اتسعتا عن آخرهما ، من فرط الذهول ...

الانتقال الآنى هو بالفعل حلم العلماء ، منذ عشرات السنين ...

حلم الانتقال فى الزمان والمكان آنيًا ...

حلم أن تكون فى (مصر) ، وتدخل جهازًا خاصًا ، يفكك أجزاء جسمك ، وينقلها كالموجات اللاسلكية ، إلى جهاز مماثل فى (سوريا) ...

أو حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية ...

والأهم ، أن يفعل هذا فى لحظة واحدة ...

شىء أشبه بالسحر والخرافة ...

ولكن هكذا العلم ، وهكذا التكنولوجيا ...

فى البداية تكون فكرة أشبه بالحلم ...

ثم نظرية مبهرة ، تؤيدها معادلات رياضية وفيزيائية ...

وبعدها ، وفجأة ، تصبح حقيقة ...

حقيقة تبهر الناس وتدهشهم فى البداية ، ثم سرعان ما يعتادونها ، ويستخدمونها فى حياتهم اليومية ، ويضيع انبهارهم بها ، ويبحثون عن الانبهار التالى ...

والتالى ..

والتالى ...

وهكذا ...

ومتابعته لدنيا العلم والتكنولوجيا أثبتت له هذا ...

ففى العقد الأول فقط ، من القرن العشرين ، تحول الكثير من الخيال إلى حقيقة ...

العالم الروسى (شيرنوبروف) ، اخترع آلة الزمن ، عام ١٩٩٧ م[1] .

والدكتور (محمد على) حول الاختفاء من خيال إلى حقيقة ، عام ٢٠٠٠[2] ....

---

(١) حقيقة علمية .

(٢) حقيقة علمية .

وحتى التصغير ، حققه علم (المونوبول) ، و(الفيمتوثانية) ، جعلها الدكتور (أحمد زويل) حقيقة علمية ...

وها هو ذا (حمدى) يحدثه عن الانتقال الآنى ...

وانتقلت إليه عدوى الانفعال ، وهو يسأله :

ـ ولكن كيف ؟!... كيف فعلتها يا (حمدى) ؟!..

أجابه بكل حماسة :

ـ هذه قصة طويلة يا صديقى ... المهم أننى قد فعلتها .

ثم عاد يميل نحوه ، مكملاً :

ـ كانت التضحيات كبيرة .

غمغم (فؤاد) فى قلق :

ـ أى نوع من التضحيات .

أطلق (حمدى) ضحكة انفعالية ، وهو يقول :

ـ ليس ما يدور فى ذهنك ، فلسنا فى فيلم رعب أمريكى ... كل ما فى الأمر أننى اضطررت لبيع نصف الحديقة .

ثم غمز بعينه ، مضيفًا :

ـ عمل كهذا ، يحتاج إلى نفقات باهظة .

قالها ، وهو يجذبه من يده فى حماس ، إلى الكشكين المجاورين لسور الفيلا ، وهو يقول فى سعادة عجيبة :

ـ انظر إليه ؟!... ألا يبدو جميلاً .

تطلع (فؤاد) إلى الكشكين قبيحى المظهر ، وهو يقول فى حذر :

ـ بالفعل .

بدا (حمدى) أكثر حماسًا ، وهو يقول :

ـ ذلك إلى اليمين هو المرسل ... يدخل الشخص فيه ، ويغلقه فى إحكام ، ويتم تشغيل الجهاز آليًا ، ليفكك ذرات جسده ، وينقلها إلى المستقبل ، الموجود فى اليسار .

نقل (فؤاد) بصره بين الكشكين ، قبل أن يسأله فى قلق :

ـ وأين موضوع التجربة ؟!... من ستختبر عليه جهازك ؟!

تراجع (حمدى) خطوتين ، وأشار إلى صدره ، وهو يجيب فى زهو :

ـ أنا .

اتسعت عينا (فؤاد) ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ أية حماقة هذه ؟!... لو تصورت أننى سأساعدك على هذا ، فأنا ...

قاطعه (حمدى) فى انفعال :

ـ أنت هنا فقط لتكون شاهدًا على التجربة ؛ فكل شىء يعمل آليًا ، فور إحكام إغلاق الباب ... كل شىء .

سأله (فؤاد) بنفس العصبية :



ـ هل أجريت أية تجارب سابقة ، قبل أن تجازف بتجربة الجهاز على نفسك ؟!

هتف بكل حماس :

ـ بالطبع .

ثم هز كتفيه ، وهو عاجز عن السيطرة على انفعاله ، وهو يكمل :

ـ كان هذا جزءًا من التضحيات ، التى حدثتك عنها ؛ فأول ما أخضعته للتجربة ، كان قطى الصغير (ميرو) ... هل تذكره ؟!

لم يجب (فؤاد) السؤال ، وإنما سأله :

ـ وهل نجحت التجربة ؟!

مط (حمدى) شفتيه ، وأجاب فى أسف :

ـ بل كانت كارثة .

جف حلق (فؤاد) ، وهو يسأله :

ـ كيف ؟!... ماذا أصابه ؟!

أجابه بنفس الأسف :

ـ تلاشى ... لست أدرى كيف ، ولكنه اختفى من المرسل ، ولم يصل أبدًا إلى المستقبل ... ربما تلاشت ذراته فى الهواء ، أو ...

لم يتم عبارته ، فسأله (فؤاد) ، وقلقه يتصاعد :

ـ أو ماذا ؟!

أطلق ضحكة عصبية ، ولوح بيده فى الهواء ، وهو يقول :

ـ المهم أن التجارب التالية كانت ناجحة ... ناجحة تمامًا .. انظر إلى المعادلات .

راح يضغط أزرار الكمبيوتر الملحق بالمرسل ، وعينا (فؤاد) تراجع تلك المعادلات الفيزيائية المعقدة فى لهفة ...

وفى تلك اللحظة بالذات ، كان عليه أن يعترف أن (حمدى) يفوقه ذكاءً بكثير ...

لقد كسر تقريبًا ، ثلاث نظريات فيزيائية ، وأثبت نظريتين أخريين ؛ لكى يتوصل إلى المعادلات شديدة التعقيد للانتقال الآنى ...

وبكل الانفعال ، الذى صنعه به هذا ، أشار إلى رقم صغير ، متسائلاً :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

ألقى (حمدى) نظرة لامبالية على الرقم ، وهو يجيب :

ـ كم مهمل ... مجرد كم مهمل ، لا تأثير له على المعادلات الأصلية .

ثم عاوده الحماس ، وهو ينزع بعض ثيابه ، قائلاً :

ـ المهم الآن هو أن تستعد ؛ فستشاهد أول تجربة انتقال آنى بشرية فى التاريخ .

كان يستعد لدخول المرسل بالفعل ، بعد أن أعد كل شىء ، عندما سأله (فؤاد) ، وقلبه يخفق فى قوة :

ـ كيف تنتقل ذرات الجسد فى الهواء ، دون أن تبعثر ؟!

أطلق (حمدى) ضحكة حماسية ، وهو يقول :

ـ لا تضيع الوقت يا صديقى ، سأخبرك كل شىء عند عودتى ... واطمئن . . . هذا لن يستغرق سوى لحظات .

هم (فؤاد) بإلقاء سؤال قلق آخر ، ثم لم يلبث أن أطبق شفتيه ، وراح يراقب فى اهتمام وانتباه شديدين ...

وبنفس الحماس ، دخل (حمدى) كشك الإرسال ، ولوح له بيده وهو يبتسم فى ثقة ، ثم أغلق الباب ، وأحكم إغلاقه ، و ...

وارتجف جسد (فؤاد) فى شدة ، عندما بدا وكأن عدة صواعق كهربية قد انطلقت داخل كشك الإرسال ، فى حين بدأ جسد (حمدى) يتلاشى ، حتى اختفى تمامًا ، وتوقفت الصواعق ...

وبسرعة ، انتقل بصر (فؤاد) إلى كشك الاستقبال ، ونبض قلبه فى عنف شديد ...

ونبض ...

ونبض ...

ولم يظهر (حمدى) ...

ثوان مضت ...

ثم دقائق طالت ...

ولم يحدث شىء ...

وبكل الهلع ، اندفع (فؤاد) نحو كشك الاستقبال ، وهو يهتف :

ـ (حمدى) ... أين أنت ؟!

لم يدر ما إذا كان من الممكن أن يسمعه أو لا ؟!...

بل لم يدر حتى أين يمكن أن يكون ؟!...

ولكنه ظل يصرخ باسمه بلا انقطاع ...

وبعد مرور نصف الساعة ، دون أن يظهر (حمدى) ، أصيب (فؤاد) بحالة من الذعر الشديد ، وراح يدور حول الكشكين ، وكأنما يبحث عن أى أثر لصديقه ، الذى اختفى تمامًا ..

إنه ذلك الكم المهمل ، الذى لم يضعه (حمدى) فى اعتباره ...

لابد وأنه يؤثر فى عملية الانتقال الآنى ...

ولكن كيف ؟!...

كيف ؟!...

كان يميل بجسده كله ، وهو يلقى السؤال فى أعماقه ؛ ليلقى نظرة على ذلك الفراغ الصغير ، الذى يفصل الكشكين عن الجدار ، عندما اتسعت عيناه عن آخرهما ، وتراجع فى عنف كالمصعوق ، وهو يصرخ :

- مستحيل !!!...

فمن السور الحجرى السميك ، خلف كشك الاستقبال ، كان يبرز جزء من ذيل كثيف الفراء ...

وإلى جواره كانت تبرز نهاية يد ، خلت أصابعها من الحياة ...

يد (حمدى) ، الذى نجح اختراعه تمامًا ، مع فارق ضئيل ، صنعه ذلك الكم المهمل البسيط ...

لقد انتقل انتقالاً آنيًا بالفعل ، بنفس الوسيلة التى انتقل بها قطه السابق (ميرو) ...

انتقل من كشك الإرسال ...

وإلى قلب السور الحجرى السميك ...

مباشرة .

★ ★ ★

٢٠ـ قطـــرات المـاء...

« أنت قتلتنى ... »

قالتها (سلوى) ، وهى تقترب سابحة فى الهواء ، من زوجها (عامر) ، الذى التصق بجدار ذلك المنزل القديم ، صارخًا :

- ابتعدى عنى .

كانت صرخته تحمل ذلك الارتجاف الشديد ، الذى شمل جسده كله ، وهو يحدق فى شبح زوجته ، الذى واصل سباحته فى الهواء نحوه ، وهى تواصل ، دون أن تفتح شفتيها :

- خدعتنى بنزهة رومانسية ، على نيل (القاهرة) ، ثم ربطت ذلك الحجر الكبير فى ساقى ، بعد أن هاجمتنى ، وكبلت حركتى .

أخفى وجهه بذراعيه ، وهو يهتف ، فى صراخ مرتجف ، أقرب إلى البكاء :

- إليك عنى ... أتوسل إليك .

كانت تقترب أكثر وأكثر ، متابعة حديثها ، وكأنها لا تسمعه :

- توسلت إليك أن ترحمنى ... رجوتك أن تتركنى أحيا ... تضرعت إليك أن تبقى على حياتى ، من أجل ابنتى الوحيدة ، ولكنك صممت أذنيك ، وحملتنى قسرًا ، وألقيت بى فى النيل .

انهار على ركبتيه ، وهو يقول :

ـ الرحمة ... كنت أدافع عن نفسى .. أنت قلت : إنك ستبلغين الشرطة ، ولم يكن أمامى سوى ...

قاطعته ، وهى تدنو ، حتى صار وجهها الشبحى ، المائل إلى الزرقة ، فى مواجهته مباشرة ، وهى تتمتم :

ـ امتلأ صدرى بالماء ، ورحت أغرق ، وأغرق ... وأغرق ...

صرخ وهو يضرب ذراعيه فى الهواء :

ـ ابتعدى .

ثم استيقظ دفعة واحدة ..

كان العرق يغمر جسده القوى ، على الرغم من برودة الطقس ، وراح يلهث فى شدة ، وهو يتلفت حوله فى ذعر ، قبل أن يغلق عينيه ، مغمغمًا فى ارتجاف :

ـ ذلك الكابوس اللعين مرة أخرى .

هز رأسه فى قوة ، وكأنما ينفض عنه ذلك الكابوس ، الذى يؤرق نومه ، واعتدل يجلس على طرف الفراش ، ويواصل لهاثه بعض الوقت ، قبل أن يغمغم بكل توتره :

ـ ألا يفارقنى أبدًا .

تأمل الأثاث الرث من حوله ، والجدران المتشققة ، التى بدت آثار الرطوبة فيها واضحة ، ورفع عينيه إلى السقف الخشبى القديم ، قبل أن يضيف :

ـ لقد تركت كل شىء ، وعدت إلى حيث بدأت ، فلماذا يطاردنى الكابوس نفسه ؟!... لماذا ؟!

نهض فى تباطؤ ، يشعل ذلك الموقد القديم ، ويضع فوقه إناءً من الألومنيوم ، وضع فيه بعض الماء ، وتراجع يسترجع ذكرياته ...

من هنا بدأ ...

من هذا المنزل المتهالك ، الذى نشأ وترعرع فيـه ، مع أبويـن يجدان قوت يومهما بالكاد ، وعذاب جعله يكره فقـره ، منذ نعومة أظفاره ، ويسعى للخلاص منه ...

وبأى ثمن ...

وفى الخامسة عشرة ، بدأ فى تحقيق ما يصبو إليه ، واحترف سرقة الملابس ، التى يضعها أصحابها لتجف ، فى منازل الطوابق السفلى ، ثم سرعان ما انتقل إلى سرقة المنازل نفسها ، عندما يغيب عنها أصحابها ، قبل أن يبدأ ، مع سن العشرين ، فى احتراف مهنة أقل خطورة ، من وجهة نظره ...

النصب والاحتيال ..

استعان بالثياب الأنيقة ، التى سرقها من قبل ؛ ليمنح نفسه مظهرًا لا يشف عن أصله ، وراح يرتاد الأماكن الفاخرة ، مع رصيد سرقاته المنزلية ، ويتعامل على النحو الذى يبعث فى نفسك الثقة ، شأن أى نصاب ...

وفى الخامسة والعشرين ، استحق عن جدارة لقب (نصاب محترف) ، بعد أن نجح فى الاحتيال على مواطنين عاديين ، والاستيلاء على مدخرات عمرهم ، ثم على رجال أعمال صغار ، ليصعد إلى مرتبة النصب على رجال أعمال كبار نسبيًا ، و ...

وهنا ، التقى بزوجته (سلوى) ..

منذ اللحظة الأولى ، أدرك أنها صيد ثمين للغاية ، فهى أقل من متوسطة ، فى مستوى الجمال ، تميل إلى البدانة ، وأرملة لواحد من كبار المقاولين ، ولديها منه ابنة واحدة ، فى السادسة من عمرها ...

فى البداية ، وضع خطة للاحتيال عليها ، وإيهامها بأنه رجل أعمال جديد ؛ فى محاولة للاستيلاء على مبلغ ذى ستة أصفار منها ...

ولكن (سلوى) لم تكن بالصيد السهل ...

كانت سيدة أعمال ذكية ، متمرسة ، وليست من النوع الذى يسهل الإيقاع به ...

ولكنه ، وكأى نصاب ، لا يستسلم فى سهولة ، ثم إنه يتمتع بوسامة طبيعية ، تؤهله لتحويل دفة العملية إلى جانب آخر ...

وهكذا بدأ الاحتيال عليها ، على نحو بطىء ؛ بحيث أوهمها بأنه واقع فى غرامها ، وأوحى إليها بأنه عاجز عن مفاتحتها فى هذا ...

وخلال عام كامل من الصبر ، أدى دوره على خير ما يرام ...

زهور جميلة غالية ، تصلها فى عيد مولدها ...

صورتها تسقط من جيبه أمامها ، بمصادفة ملفقة ، ويستعيدها فى سرعة ، متصنعًا الخجل ، بعد أن يثق تمامًا فى أنها قد لمحتها ...

كلمات حانية رقيقة كلما التقيا ...

ثم أخيرًا ، وبعد أن أيقن من أنها قد التقطت الطعم ، توجه إليها ، وكله خجل وحياء ، يطلب منها قبول دعوته إلى عشاء متواضع ..

كانت تلك هى المرة الأولى ، التى لمس فيها يدها ، ثم تراجع كمن صعقه تيار كهربى ، وراح يلهث بالاعتذار والأسف ...

وابتسمت هى ...

ابتسامتها جعلته يشعر بالظفر والانتصار ...

وبعد شهر واحد ، تم زفافهما ...

وخلال عام كامل ، بدا لها مثالاً للزوج الحنون ، يعاملها بكل رقة ، ويفاجئها بهداياه كل حين وآخر ، فى مناسبات خاصة ، أو حتى دون مناسبات ، ويداعب ابنتها الوحيدة ويلاعبها طوال الوقت ، حتى شعرت (سلوى) بأن القدر قد أنعم عليها بالزوج الذى تحلم به كل امرأة ..

حتى كان ذلك اليوم ، الذى كشفت فيه أمره ...

كان يستغل ثقتها الشديدة ، ويستولى على كل ما يقع تحت يديه من أموالها ، ومن قطع مجوهراتها ، ثم يكـون أول من يقف إلى جوارها ، ويصر على إبلاغ الشرطة ، واتهام سفرجى أو خادمة ..

ولكن حياته السابقة ، لم تكن لتتركه يواصل لعبته القذرة ...

ذات يوم ، اصطدم بأحد عملاء شركتها ، ممن كانت له معه قصة احتيال سابقة ...

ومنه عرفت (سلوى) حقيقته ، ولأول مرة ...

فى البداية لم تصدق ، ثم بدأت فى ترتيب الأحداث والوقائع ، وبعدها واجهته ، وطالبته بإعادة كل ما سرقه منها ، وإلا أبلغت الشرطة بأمره ...

ولأنه محتال محترف ، نجح فى تهدئتها ، وطلب منها أن يخرجا فى نزهة ، رومانسية أخيرة ، تذكرهما بشهر عسلهما ، وبعدها سيعيد إليها كل شىء ، ويختفى من حياتها تمامًا ..

ولكنه لم يف بوعده ، ولم يختف من حياتها ...

هى التى اختفت من حياته ...

وإلى الأبد ..

قتلها بدم بارد ، وعاد وحده إلى منزل الزوجية ، واستولى على كل ما استطاع الوصول إليه ، من الأموال والمجوهرات ، قبل أن يختفى تمامًا ...

كان يعلم أنه أول من ستتجه إليه أصابع الاتهام ، وأن الشرطة ستبحث عنه حتمًا ، ولكنه كان بلا سوابق ، وكل الأوراق التى استخدمها للزواج منها ، كانت مزورة غير صحيحة ، والشرطة لن تعثر على الزوج القاتل أبدًا ...

ثم من سيبحث عنه هنا ؟!

فى تلك المنطقة العشوائية الفقيرة ، التى نشأ وتربى فيها ...

من ؟!...

صب الماء بعد غليانـه ، على قليـل من الشاى ، تنـاوله على مهل ، وألقى نظرة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الثالثة صباحًا ، وتطلع لحظات إلى فراشه ، ثم قرر العودة إلى النوم من جديد ...

« أنت قتلتنى ... »

فى هذه المرة ، كانت (سلوى) تقترب منه ، سابحة فى الهواء ، والماء يقطر من شعرها القصير ، وكأنها قد خرجت من الماء على التو ، فتراجع ، وهو يهتف :

ـ اتركينى لحالى ... ماذا تريدين منى ؟!

بدا له وكأنه يسمع صوت الرعد من بعيد ، وصوت المطر ينهمـر ، ويغمر شعرها القصير المتلبد ، وهى تزداد قربًا ، قائلة :

ـ الجزاء دومًا من جنس العمل .



صرخ :

ـ أنت أجبرتنى ... لو لم تهددى بإبلاغ الشرطة ، لصار كل شىء على ما يرام لكلينا .

تقاطر الماء من شعرها أكثر وأكثر ، وجسدها الشبحى يسبح فى الهواء ، مقتربًا منه ، مكررًا :

ـ سألتك أن ترحمنى فلم تفعل ... أنت قاتل ... قاتل .

ضرب ذراعيه فى الهواء ، وهو يصرخ :

ـ وأنت لست هنا ... أنت مجرد شبح .

اقترب شبحها منه أكثر وأكثر ، فحدق فى وجهها الأزرق فى رعب ، وبدا له وكأن الماء قد صار يسيل من رأسها فى غزارة ، وهى تكرر :

ـ الجزاء لابد وأن يكون من جنس العمل ...

كان وجهها الذى يزداد زرقة يبـدو مخيفًا ، إلى حد جعله يرتجـف ، من قمة رأسـه وحتى أخمص قدميه ، وتمنى أن يخـرج من هـذا الكابـوس الرهيب ، ففتح فمه ليقول شيئًا ...

أى شىء ...

ولكن حرفًا واحدًا ، لم يخرج من بين شفتيه ...

وكما يحدث فى الكوابيس ، خيل إليه أن جسده كله قد تخشب ، ولم يعد يستطيع تحريك إصبع واحد منه ...

حتى فمه ، الذى انفتح ، لم يستطع إغلاقه مرة أخرى ...

واقترب شبحها منه أكثر ...

وأكثر ...

وأكثر ...

وبصوت بدا وكأنه يخرج من أعماق قبر قديم ، قالت :

ـ أغرقتنى ، وعليك أن تدفع الثمن ...

أصبح وجهها الآن فوقه مباشرة ، وعينـاه تحدقان فى عينيها ، اللتين بدتا كجمرتين من لهب ، وسط وجه شديد الزرقة ...

وسال الماء غزيرًا من شعرها على وجهه ...

شعر به يغمره ...

ثم شعر به يتساقط عبر فمه المفتوح ...

ويملأ حلقه ...

حاول أن يسعل ...

أو حتى يغلق فمه ...

ولكنه لم يستطع ...

والماء يسيل فى حلقه ...

ويسيل ...



ويسيل ...

« هذه أول حالة أراها فى حياتى ... »

غمغم طبيب الصحة بالعبارة بكل دهشته ، وهو يرفع عينيه إلى السقف المبتل ، الذى مازالت بقايا أمطار الأمس تتساقط منه ، قبل أن يضيف :

ـ لم أر فى حياتــى من قبل شخصًا ، يموت غرقًا فى فراشه !! ... الماء تساقط من السقف ، فى حلقه مباشرة .

التفت ثلاثة من رجال تلك المنطقة العشوائية حــول فراش (عامر) ، الذى حمل جثته مفتوحة العينين عن آخرهما ، وفمه الذى يسيل منه ماء المطر ، وغمغم أحدهم فى خشوع :

ـ هكذا عثرنا عليه .

وافقه الطبيب بإيماءة من رأسه ، وهو يقول :

ـ هذا يبدو واضحًا ، إلا أننى مازلت أتساءل : كيف بقى فى هذا الوضع ، والماء يملأ فمه ؟!... فى الحالات الطبيعية ، يسعل المرء ، ويدير رأسه بعيدًا عن الماء المتساقط ... أو حتى يستيقظ ، ولكنه بقى على موضعه ، حتى مات غرقًا .

وهز رأسه فى قوة ، وهو يضيف ، مخرجًا قلمه لتوقيع شهادة الوفاة :

ـ أظن أن هذا سيبقى لغزًا ... لغزًا بلا حل ... على الإطلاق .

ووقع شهادة الوفاة .

★ ★ ★

٢١ ـ ذاكـــرتى ...

من أنا ؟!...

كان هذا أول سؤال طرحته على نفسى ، عندما استعدت وعيى ، فى تلك المنطقة المقفرة ، مع مغيب الشمس ...

أول ما رأته عيناى ، عندما فتحتهما ، هو قرص الشمس الأحمر ، وهو يتوارى خلف الجبال فى الأفق ...

كانت هناك الكثير من الجبال من حولى ، كما لو أننى وسط منطقة جبلية ، فى صعيد (مصر) !!... أو ربما فى (سيناء) !!...

لم أكن أدرى ؟!..

كنت أجهل تمامًا ما الذى أتى بى إلى هذا المكان !...

ولماذا ؟!...

بل كنت أجهل حتى من أنا !!!...

كنت أشعر بصداع شديد يكتنف رأسى ، وبألم فى مؤخرة عنقى ، كما لو أننى قد تلقيت ضربة ما ، فى وقت ما ...

وربما كان هذا ما أفقدنى وعيى ...

وذاكرتى ...



توقفت فى مكانى ، لا أدرى أين أذهب بالضبط ، فقد بدا كل ما يحيط بى متشابهًا ، حتى لا يمكننى تحديد إلى أى اتجاه ينبغى أن أسير ...

ولم أكن أستطيع البقاء فى مكانى ، فى الوقت ذاته ؛ لذا فقد أخذت الاتجاه ، الذى لا ترتطم عينى فى نهايته بجبل ما ، ومضيت قدمًا إليه ...

وبينما أسير بلا هدى ، رحت أعتصر عقلى ، محاولاً إنعاش ذاكرتى ...

« ماذا تريدون منى ؟!... »

تذكرت صرختى المذعورة ، وعربدت فى رأسى ذكرى رجال يهاجموننى ، فور هبوطى من سيارتى أمام منزلى ... أذكره جيدًا ...

إنها فيلا صغيرة ، فى حى شديد الهدوء ، من أحياء (المعادى) ...

عظيم ... هذا يعنى أن ذاكرتى فى طريقها إلى العودة ...

كان الظلام يطبق فى سرعة ، تساعده فى هذا الجبال العالية ، فى غرب الطريق ، الذى أسير فيه ، مما جعل الخوف يتسرب إلى نفسى ، من أن أفقد القدرة على الرؤية ، فلا يعود لسيرى من هدف ...

ولكن القمر بدأ يبرز فى السماء ...

ومن حسن حظى أنه كان بدرًا ، مما جعل ضوءه الفضى ينير الطريق أمامى ، ويزيل منى بعض الخوف ، وإن أضافت تلك الظلال الضخمة ، التى تلقيها الجبال ، جانبًا آخر إلى مخاوفى ، مما جعلنى أرفع عينى إلى القمر المضىء ، الذى بدا لى أشبه بمصباح كبير مضاء ، و ...

« ماذا تفعلون بى ؟!... »

استعاد عقلى فجأة ، تلك الصرخة المذعورة التى أطلقتها ، وأنا أحدق فى دائرة الضوء الكبيرة ، فوق رأسى مباشرة ، وهم يقيدوننى إلى مائدة تشبه موائد الجراحة ...

بل كانت بالفعل مائدة جراحية ...

وهم يلتفون حولى ، بتلك الثياب الخضراء ، التى يرتديها الجراحون فى المعتاد ، والقفازات المطاطية تغطى أيديهم ، والكمامات الطبية تخفى وجوههم ...

« لا تقلق ... إنها مجرد تجربة علمية .. »

قالها أحدهم ، فصرخت - حسبما أذكر - بكل التوتر والذعر :

- ومن أخبركم أننى فأر تجارب ؟!

أذكر جيدًا ألم تلك الإبرة ، التى انغرست فى ذراعى ، مع ذلك الصوت ، الذى بدا وكأنه يأتى من أعماق سحيقة :

- اهدأ ، وسيكون كل شىء على ما يرام .

ثم بدأت ذاكرتى تنسحب ...

وتنسحب ...

وتنسحب ...



من أنا ؟!..

عدت أطرح السؤال على نفسى ، التى امتزج فيها الخوف بالتوتر الشديد ، مع استعادتى لتلك الذكريات ، التى لا تدعو أبدًا إلى الارتياح ...

ما تلك التجربة ، التى كانوا يتحدثون عنها ؟!...

ولماذا يجرونها على ؟!...

ولأى هدف ؟!...

« ما تقوله أشبه بالخيال العلمى ، يا دكتور (حسنى) ... »

استعدت فجأة تلك الذكرى ، التى لا ترتبط بما استعدته من قبل ...

« لا يوجد مستحيل فى العلم يا دكتور (مندور) ... »

كنت أستعيد حوارًا بين رجلين ، ربما سمعتهما يتبادلانه ...

أو أننى كنت أحدهما ...

لست أدرى ! ...

« الاستنساخ لم يعد خيالاً ، بل أصبح حقيقة واقعة ... »

« ومازال استخدامه على البشر غير قانونى ، فى كل دول العالم ... »

« هذا عندما يرتبط بالأسلوب التقليدى ، الذى يتم فيه محو الكروموسومات تمامًا من البويضة ، وزرع خلية غير جنسية فيها ، ثم إعادة زرعها فى رحم آدمى ؛ ليتواصل نموها ، كأى جنين طبيعى ... »

« هذا ما تحتمه قواعد الطبيعة ، أما الفكرة التى تتحدث عنها ، فهى علميًا مستحيلة ... »

« كل علم تحقق عبر التاريخ ، أكدوا يومًا أنه مستحيل ... »

عند هذه النقطة ، غابت عنى الذاكرة مرة أخرى ...

ولكننى أذكر هذا الحوار جيدًا ...

وبكل تفاصيله ...

وجسدى بدأ يشعر بالإرهاق ، من طول السير وشدة التوتر والخوف ...

من أنا ؟!...

مرة ثالثة طرحت على نفسى السؤال ...

أأنا أحد طرفى ذلك الحوار ، الذى استعادته ذاكرتى ، أم أننى كنت ...

توقف السؤال فى رأسى فجأة ، وقفز اسم جديد إلى ذاكرتى ...

(مصطفى) . . . المساعد الطبى فى معمل الأبحاث ...

لم تكن هناك مرآة ، يمكننى فيها رؤية ملامحى ، مما قد يساعدنى على استعادة ذاكرتى ، وتحديد هويتى ..

أأنا (مصطفى) ، المساعد الطبى ، الذى أجروا عليه تلك التجربة ؟!...

وما تلك التجربة بالضبط ؟!...

أهو أمر خاص بعلم الاستنساخ ؟!...

ولكن ما شأنى أنا بهذا ؟!...

بل من أنا من الأساس ؟!...

« ستفقد ذاكرتك بعض الوقت ... »

رباه !! ... تذكرت على التو تلك العبارة ...

« ستبدو لك الأمور مشوشة ، وسيرتبك عقلك تمامًا ؛ لأنه لم يمر بما ينبغى أن يمر به ، ولكن لا تقلق ... »

أذكر العبارة ، ولا أذكر مطلقًا قائلها !!

ولا لماذا قيلت !..

ومتى !...

توقفت فجأة ، وخفق قلبى فى قوة ، وأنا أحدق فى نقطة ما ، على مرمى البصر ...

بقعة ضوء صغيرة ...

مصدر ضوئى يتحرك ، على مسافة لا يمكننى تقديرها بالضبط ...

ولكنه يحمل لمحة الأمل ، التى كنت فى أمس الحاجة إليها ...

ولست أدرى ما إذا كنت واهمًا ، أم أنها بالفعل حقيقة ...

ذلك المصدر الضوئى توقف ...

إنها سيارة ولا شك ...

هذا يعنى أننى بالقرب من طريق رسمى ...

أو أن أحدهم يبحث عنى ...

وفى كل الأحوال ، فقد سارعت الخطى ، حتى يمكننى الوصول إلى حيث ذلك المصدر الضوئى ، قبل أن يبتعد ...

« لو صحت تجربتك ، لن تكفى جائزة (نوبل) ؛ لتقدير عملك ... »

« أو ربما لن تكفى عقـوبة الإعدام ؛ لتجاوزى كل القوانيـن الطبية العالمية .. »

« لا يمكن أن يعاقبوا عالمًا فذًا ، على كشف مذهل كهذا ... »

« الخلاف بين العلم والقانون ، خلاف تاريخى يا زميلى العزيز ... »

« ولكن تجربتك هذه مذهلة ... مذهلة بحق ... »

مرة أخرى ، أستعيد الذكريات الخاصة بتلك التجـربة ، التى أجهل ماهيتها ! ... وهذا ربما يعنى أنها ترتبط بى ، على نحو أو آخر ...

زدت من سرعة خطواتى ، محاولاً بلوغ بقعة الضوء ، قبل أن تفارق مكانها ، وشعرت بقليل من الارتياح ؛ عندما أدركت أننى أقترب منها ...

وأنها ثابتة فى موقعها ...

بدأت ساقاى تشعران بالتعب والضعف ، وأصبحت سيطرتى على اتزانى تحتاج إلى بذل جهد خرافى ، وعيناى ترهقهما الرؤية إلى حد كبير ، إلا أننى استنفرت كل إراداتى ؛ للوصول إلى بقعة الضوء ، التى راحت تقترب ...

وتقترب ...

وتقترب ...

وفجأة ، قفزت إلى ذهنى فكرة ، جعلتنى أتوقف دفعة واحدة ، وأنا ألهث ، من فرط الانفعال والإرهاق ، وحدقت فى تلك البقعة المضيئة جيدًا ...

لقد كنت على حق ...

لست وحدى من أسعى إليها ...

هى أيضًا تتجه نحوى مباشرة ..

وبسرعة تفوق سرعتى ...

ومع اقترابها ، اتضحت معالمها أكثر ...

لم تكن بقعة ضوء واحدة ، بل بقعتين ، تسيران معًا ، وتفصلهما مسافة قصيرة ...

إنهما مصباحا سيارة تقترب ...

خفق قلبى فى قوة ، وأنا أتابع اقترابها ، ورحت ألهث أكثر ، مع تصاعد انفعالى الشديد ...

هناك شخص ما يبحث عنى بالفعل ...

ويعلم أين أنا ...

و ...

« من أنا ؟!.. »

يا إلهى !.. أذكر جيدًا أننى قد طرحت السؤال ، على أولئك الرجال ، فى حجرة العمليات ، التى لست أدرى لماذا وضعتمونى فيها !! ...

والعجيب أننى لست أذكر جوابهم مطلقًا !! ...

أو أننى لم أتلق منهم أية إجابة ...

إذن فأنا لا أعانى من فقدان الذاكرة ، منذ استعدت وعيى فحسب ..

لقد فقدتها من قبل هذا ! ...

فقدتها ، عندما كنت هناك ...

على مائدة العمليات الجراحية ...

فجأة ، وعند هذه النقطة ، انتابنى فزع بلا حدود ...

إنهم يبحثون عنى ، ربما لأننى هارب من شىء ما ...

أو لأننى مصاب بشىء ما ...

وربما بجنون ما ...

تلك الفكرة الأخيرة ، قضت على ما تبقى من جهدى ، فجلست القرفصاء ، ودفنت وجهى بين كفى ، ورحت أنتحب بلا دموع ...

ثم غمر ذلك الضوء الساطع وجهى ، فرفعت كفى عنه ، وحدقت فى تلك السيارة ، التى توقفت على قيد أمتار منها ، وفتحت أبوابها ، وهبط منها ثلاثة رجال ...

فى البداية لم أتبين ملامحهم جيدًا ، حتى اقتربوا منى ، وقال أحدهم فى ارتياح :

ـ إذن فقد استعدت ذاكرتك .

حدقت فى ثلاثتهم ، وذاكرتى تنتعش فجأة ...

إننى أعرفهم جيدًا ...

المساعد الطبى (مصطفى) ، والدكتور (مندور) ، والدكتور (حسنى) ، و ...

ولكن هذا مستحيل ! ...

لا يمكن أن يكون الثالث هو الدكتور (حسنى) !!...

لأننى أنا الدكتور (حسنى) ...

صرخت محاولاً النهوض :

ـ من أنت ؟!...

اقترب منى ثلاثتهم ، ومال ذلك الذى ينتحل شخصيتى نحوى ، وهو يقول مشفقًا :

ـ أنا الدكتور (حسنى) ... أنا أصلك .

أصلى ؟!... انتفضت كل ذرة فى كيانى ، مع سماع إجابته ، خاصة وأننى قد استعدت ذاكرتى كاملة دفعة واحدة ...

ليست ذاكرة الخلايا الأولية ، التى تعود إلى الدكتور (حسنى) ، الذى صنعونى كنسخة منه ، ولكن ذاكرتى أنا ، بعد شعورى بالوعى ، عندما اكتمل تكوينى المعملى ...

أسلوب النمو الفائق ، الذى استخدموه لإنعاش خلايا (حسنى) ، واستنساخى كنسخة ناضجة ، طبق الأصل منه ، فى زمن قصير ، جعلنى أنهض متصورًا أننى هو ، حتى أننى ارتديت بعض ملابسه ، التى يتركها احتياطيًا فى المعمل ، وأخذت مفاتيح سيارته ، وقدت السيارة إلى منزله ...

ولكنهم أطبقوا علىَّ هناك ، وأعادونى إلى المعمل ، وأجروا لى جراحة صغيرة ، لست أدرى سببها بالضبط ...

وعندما أفقت ، هربت مرة أخرى ، و ...

فقدت الذاكرة ...

« خلاياك تنهار ... »

قالها أصلى فى أسى ، وهو يتطلع إلىَّ مشفقًا ، قبل أن يضيف فى ألم :

ـ يبدو أن الطبيعة ترفض ما نفعله ، وليس القانون وحده ... صحيح أنك نسخة طبق الأصل منى ، ولكن تأثير النمو الفائق مؤقت للأسف ... خلاياك ستنهار كلها ، حتى يذوب جسدك ، كما لو كان قطعة من الثلج ، تركت فى طقس ساخن ...

أدركت عندئذ لماذا عجزت عن النهوض ...

لقد بدأ جسدى يذوب بالفعل ...

ولم تعد هناك فائدة من استعادة ذكرياتى ..

أو حتى ذكريات الدكتور (حسنى) ...

فذاكرتى مثل جسدى ...

ستذوب ...

بدأت الرؤيا تتشوش أمامى ، إلا أنها لم تمنعنى من رؤية الرجال الثلاثة ، وهم يتطلعون إلىَّ بكل الأسف والألم والندم ، وأنا أذوب أمامهم ، تمامًا كما وصف الدكتور (حسنى) الأصلى الأمر ...

كقطعة ثلج ، فى طقس دافئ ...

وآخر ما حملته ذاكرتى ، هو صوت الدكتور (حسنى) ، وهو يغمغم :

ـ أنا حقًّا آسف ... اغفر لى .

ثم ذاب كل شىء ...

تمامًا .

★ ★ ★

٢٢ ـ براءة الأطفال فى عينيه ...

« يا لها من مدينة صغيرة ... »

غمغم (وحيد) بالعبارة فى ضجر ، وهو يجوب شوارع تلك المدينة الصغيرة ، من مدن صعيد (مصر) ...

كان قد انتدب إلى هناك ، فى مهمة تفتيش محدودة ، المفترض أن تستغرق أسبوعًا واحدًا ، ولولا بدل الانتقال الكبير ، الذى منحته إياه الشركة ، مقابل هذا ، لما دفع نفسه دفعًا إلى السفر ، إلى تلك المدينة الصغيرة ، من مدن صعيد (مصر) ، فى منتصف شهر يوليو ، حيث تبلغ حرارة الطقس مداها ...

وأول ما فعله ، عندما وصل إلى تلك المدينة ، هو أن بحث عن مكان مناسب ، يمكنه قضاء هذه الأيام السبعة فيه ...

ولأنها مدينة صغيرة ، لم يجد بها سوى فندقين فحسب ...

أحد الفندقين كان أشبه بالبنسيونات القديمة ، تشم فور دخوله رائحة الزمن ، ويزعجك ضوءه الخافت ، وتثير حفيظتك أبسطته القديمة ، وأثاثه الذى يعود إلى عشرين عامًا على الأقل ...

أما الفندق الآخر ، فقد بدا أكثر حداثة ، وأكثر نظافة ، والإضاءة فيه ساطعة مريحة ...

الذى أدهشه بحق ، هو أن سعر الإقامة فى الفندقين كان متقاربًا للغاية ، حتى أنه أبدى دهشته هذه ، لموظف الفندق الأفضل ، فتردد الرجل لحظة ، ثم أجابه بابتسامة عريضة ، بدا من الواضح أنه يخفى بها شيئًا ما :

ـ كل سائح له ما يفضله .

لم يشعر أبدًا أنها مدينة سياحية ، تستحق مثل هذا القول ، إلا أنه افترض أن بعض السائحين ربما يقضون ليلتهم فى تلك البلدة ، ثم يستقلون أحد سيارات الأجرة ، إلى المدينة السياحية الكبيرة ، التى تبعد عنها نصف الساعة فحسب ، توفيرًا للنفقات ...

ودون أن يطرح مزيدًا من الأسئلة ، استأجر حجرة فى الفندق الأحدث ...

ولقد أدهشه كم تحوى حجرته من وسائل الترفيه ، على الرغم من رخص إيجارها ..

كانت حجرة كبيرة ، تطل على الساحة الرئيسية للمدينة ، بها سرير عريض ، ودولاب كبير ، وتلفاز ممتاز ، وجهاز تكييف هواء ...

هز كتفيه ، وهو يغتسل ، ويستبدل ثياب السفر ، ثم خرج ليؤدى عمله فى التفتيش الروتينى ، على فرع شركته هناك .

قضى نصف اليوم فى أعمال روتينية معتادة ، ثم بدأ يلملم أوراقه فى حقيبته الجلدية القديمة ، التى يعتز بها كثيرًا ، وبينما يستعد للانصراف ، سأله سكرتير فرع الشركة مبتسمًا :

ـ إن لم يكن لديك مكان للإقامة ، فسيسعدنى استضافتك فى منزلى .

شكره فى شىء من الصرامة ، وهو يقول :

ـ لقد استأجرت حجرة فى فندق (....) ...

فوجئ بوجه السكرتير يمتقع لحظة ، قبل أن يسأله فى تردد :

ـ ولماذا هذا الفندق بالذات ؟!

أجابه بنفس الصرامة ، التى بدت وكأنها أسلوبه المعتاد فى الحديث :

ـ ليست أمامى خيارات كثيرة ... إما هو ، أو الفندق الآخر القديم المطل على السوق .

تردد السكرتير لحظة ، ثم قال فى حذر :

ـ الخيار الثالث أن أستضيفك فى منزلى .

كان يكره أن يتعامل بهذا الود ، مع موظف مكتب أتى للتفتيش عليهم ، فقال فى صرامة شديدة ، وهو يحمل حقيبته وينصرف :

ـ كلا ... الفندق أفضل .

كان الطقس قد اعتدل مع نهاية النهار ، فقرر أن يتجول قليلاً فى المدينة ، وكم أدهشه أنها مدينة صغيرة للغاية ، أمكنه أن يقطع كل شوارعها تقريبًا ، خلال ساعتين فحسب ، قبل أن يصيبه الملل ، ويقرر العودة إلى الفندق ، والحصول على قدر واف من النوم .

وعندما وصل إلى الفندق ، وطلب مفتاح حجرته ، ناوله إياه موظف الاستقبال نفسه ، والذى لم ينه نوبته بعد لسبب ما ، وهو يتطلع إليه فى قلق حذر ...

تجاهل كل هذا ، وافترض أن الجميع ، فى بلدة صغيرة كهذه ، يعرفون بعضهم البعض حتمًا ، ووجود شخص غريب بينهم ، سيثير تساؤلاتهم وقلقهم بالتأكيد ..

وفى حجرته ، ألقى حقيبته الجلدية على مقعد مجاور للباب ، وألقى ثيابه على مقعد آخر ، واغتسل مرة ثانية ، ثم رقد على فراشه ، يشاهد برامج التلفاز بعض الوقت ، قبل أن يغلبه النوم ، و ...

« عمو ... هل تلعب معنا ...؟ »

أطفال صغار أبرياء ، يحيطون به ، وعلى وجوههم ابتسامات كبيرة ، وبين يدى أحدهم كرة صغيرة ، يتناسب حجمها مع ضآلة جسده ، يلوح له بها ، داخل حديقة واسعة غناء ...

« لم ألعب الكرة منذ زمن طويل ... »

أجاب الطفل مبتسمًا ، فمنحه الطفل ابتسامة تفيض بالبراءة ، وهو يقول :

ـ هل يزعجك أن نلعب إذن ؟!

شعر براحة شديدة ، مع ابتسامة الطفل ، فلوح بيده ، قائلاً :

ـ على العكس ... ستسعدنى مشاهدتكم ، وأنتم تلعبون وتمرحون ...

« شكرًا يا عمو ... »

قالها الصغير ، وهو يعدو نحو رفاقه الصغار ، الذين راحوا يتبادلون الكرة ، ويمرحون ، ويلعبون ، وارتفعت ضحكاتهم البريئة فى المكان ، وكان لها صدى جميل فى أذنيه ، وصدى أجمل فى قلبه ، و ...

« حقيبتك يا عمو ... »

التفت إلى ذلك الطفل ، الواقف إلى جواره ، يناوله حقيبته الجلدية القديمة ..

وانتفض قلبه بين ضلوعه فى قوة ...

فالطفل كان يحمل الحقيبة ، ويمد يديه الصغيرتين بها إليه ، وهو يبتسم ابتسامة كلها براءة ، فيما عدا أنه كان ... يحترق ...

نعم ... كانت النيران تشتعل فى ثيابه ، وتلتهم جسده الصغير ، وإن لم يبد عليه أدنى أثر للألم ، و ...

وانتفض جسده كله ، وهو يهب من نومه ، صارخًا :

ـ لا ... لا ... النار .

انتبه فجأة إلى أنه نائم فى فراشه ، وأن كل هذا لم يكن سوى كابوس ، فبسمل وحوقل ، ومد يده ليلتقط كوب ماء من جواره ، و ...

وارتطمت يده بشىء ما ، أسقطه الارتطام أرضًا بصوت مسموع ...

أسرع يشعل المصباح الصغير ، المجاور للفراش ، وانحنى يلقى نظرة على ذلك الشىء الذى أسقطه ، واتسعت عيناه عن آخرهما ...

لقد كان ذلك الشىء حقيبته ...

حقيبته الجلدية القديمة ، التى يعتز بها كثيرًا ...

ولثوان ، ظل يحدق فيها ذاهلاً ...

ما الذى أتى بها على فراشه ؟!...

إنه يذكر جيدًا ، أنه ألقاها على أقرب مقعد للباب فور دخوله !! ...

ليس لديه أدنى شك فى هذا !...

حاول أن يجد تفسيرًا للموقف ، إلا أن الحقيبة التى يراها ملقاة على الأرض أمامه ، منعت عقله من إيجاد أى تفسير ...

ترى هل سار وهو نائم ، وأحضرها إلى فراشه ، دون أن يدرى ؟!..

هل ؟!..

كانت ساقاه ترتجفان ، عندما هبط من فراشه ، والتقط الحقيبة ، وأعادها إلى المقعد المجاور للباب ، ثم ألقى نظرة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الثانية والنصف صباحًا ، وغمغم فى عصبية :

ـ ماذا أصابك ؟!... إنه كابوس ... مجرد كابوس .

عاود الاستلقاء على الفراش ، وتناول جرعة ماء ، ثم أغلق عينيه ، محاولاً العودة إلى النوم ..

« عمو ... هل تلعب معنا ؟!... »

نفس الطفل الصغير ، يبتسم فى براءة ، ويمد يده إليه بالكرة الصغيرة ، ولكنه فى هذه المرة ، غمغم فى اقتضاب :

ـ كلا ...

ظل الطفل يبتسم فى براءة ، وهو يسأله :

ـ وهل يزعجك أن نلعب .

صاح فيه فى حدة :

ـ العبوا كما تريدون ، لا شأن لكم بى .

تلاشت ابتسامة الطفل ، وانقلبت ملامحه إلى حزن شديد ، وترك باقى الأطفال لعبهم ، وتراصوا خلفه ...

ثم بدأ الكل فى البكاء ، فى آن واحد ...

وتراجع هو فى رعب ...

فالدموع المنهمرة من عيونهم ، لم تكن دموعًا ...

كانت قطعًا صغيرة من اللهب ، تتساقط من أعينهم الواسعة البريئة ؛ لتشعل الأرض من حولهم ... وراحت رقعة النيران تتسع من حولهم ...

وتتسع ...

وتتسع ...

ومرة أخرى ، انتفض جسده فى عنف ، واستيقظ بحركة حادة ...

ومرة أخرى ، لدهشته وذعره ، ارتطم بحقيبته القديمة ...

وفى هذه المرة ، صرخ :

ـ لا ... مستحيل !

أخذ جسده يرتجف فى شدة ، وهو يحدق فى الحقيبة ، الملقاة إلى جوار فراشه ، قبل أن يغمغم مرتجفًا :

ـ أسير نائمًا حتمًا ... لا ريب أن هذا ما حدث .

كان جسده كله يرتجف ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، وهو يحمل الحقيبة ، ويعيدها إلى المقعد المجاور للباب ، وهو يغمغم :

ـ الإرهاق ... هو الإرهاق حتمًا ... سمعت أن الإنسان يسير أثناء نومه ، عندما يصبح فريسة للإرهاق الشديد .

كانت عقارب ساعته تشير إلى الثالثة والنصف ، أى أنه لم يستغرق فى نومه الثانى سوى ساعة واحدة ، فوضع جسده على الفراش ، وهو يواصل غمغمته :

ـ الكوابيس لا تنتاب المرء ، إلا عندما يكون مرهقًا ، أو يتناول وجبة دسمة قبل النوم ... ولو أننى حصرت أفكارى فى شىء جميل ، لن تهاجمنى الكوابيس مرة أخرى حتمًا .

راح يعتصر عقله ، محاولاً استرجاع كل حدث جميل مفرح ، مر به فى حياته ، ولكن هذا الجهد أرهقه بشدة ، فأسبل جفنيه ، بعد أن تجاوزت عقارب الساعة الرابعة ، و ...

نام ...

« عمو ... هل تلعب معنا ... »

لم يصدق نفسه هذه المرة ...

إنه الطفل الصغير ذاته ، يمد إليه يده بكرته الملونة ، التى تتناسب مع ضآلته ، ويبتسم نفس الابتسامة البريئة ...

« اذهب عنى ... لا أريد أن أراك ... »

تراجع الطفل فى ذعر غاضب ، وفوجئ هو بأن كل الأطفال قد التفوا حوله ، وكلهم يقولون فى آن واحد ، وبأسلوب حمل كل براءتهم :

ـ أنت سيئ يا عمو ... مثل كل من سبقوك .

ثم فجأة ، اشتعلت أجسادهم كلها دفعة واحدة ...

وهب هو من فراشه مذعورًا ...

فى هذه المرة ، اختلف الأمر ...

لم يرتطم بحقيبته القديمة ، التى ظلت مستقرة على ذلك المقعد ، المجاور للباب ...

وفى حركة واحدة ، اعتدل يجلس على طرف فراشه ، وهو يبسمل ويحوقل مرة أخرى ، ولهث بشدة ، وهو يغمغم :

ـ ما الذى يحدث هنا ؟!... ما الذى يحدث فى هذه الحجرة ؟!..

لم يكن حتى قد انتهى من كلمته الأخيرة ، عندما تدحرج ذلك الجسم الصغير ، من أسفل الفراش ، وعبر بين قدميه مباشرة ...

وبكل رعب الدنيا ، اتسعت عيناه ...

لقد كان كرة ...

نفس الكرة الملونة الصغيرة ، التى يمد الطفل يديه بها إليه ، فى كل مرة ...

حدق فيها فى ذهول ، مغمغمًا :

ـ أمازلت نائمًا ؟!... أهذا جزء من كابوسى ؟!

كان كيانه كله يرتجف ، عندما انحنى يلمس الكرة ، ثم يرتد بكل عنف الدنيا ...

إنها كرة حقيقية ...

ولقد شعر بملمسها الجلدى الرقيق ..

إنها حقيقة ...

وهذا مستحيل ! ...

مع ذهوله ورعبه ، تناهى إلى مسامعه صوت ضحكات طفولية بريئة ، أسفل فراشه ...

وعلى الرغم من الرعب ، الذى سيطر على كيانه كله ، مال يلقى نظرة أسفل الفراش ، قبل أن يرتد بمنتهى العنف ، على النحو الذى أسقطه أرضًا ...

فأسفل فراشه مباشرة ، كانت تلك الحديقة الغناء الواسعة ، والأطفال يلعبون ويمرحون فيها ...

وفى هـدوء ، اقترب منه ذلك الطفل المشتعل ، وهو يبتسم ابتسامتـه البريئة ، ويمد يديه الصغيرتين إليه ، قائلاً :

ـ الكرة لو سمحت يا عمو ...

وهنا أطلق هو صرخة رعب مدوية ، وقفز واقفًا على قدميه ، واندفع يعدو نحو باب الحجرة يفتحه ، ويعدو فى ممر الفندق ، وهو يصرخ :

ويصرخ ...

ويصرخ ...

« لابد من إغلاق هذا الفندق ... »

قالها مدير شرطة السياحة فى صرامة ، فأجابه صاحب الفندق مرتجفًا :

ـ لقد كلفنا ثروة .

أجابه مدير شرطة السياحة فى غضب :

ـ ولكنها سابع حالة انهيار عصبى ، يصاب بها نزيل فى فندقك ، بعد أول ليلة يقضيها فيه ، وسرعان ما ستنهار سمعة الفندق ، ولن يستأجر أحد حجرة واحدة فيه .

غمغم صاحب الفندق :

ـ ولكن . . .

قاطعه مدير شرطة السياحة بكل توتره :

ـ كان من الخطأ أن تبنى فندقك ، فى موضع ملجأ الأيتـام ، الذى احترق عن آخره منذ عامين ، ولقى نصف أطفاله مصرعهم ... من الخطأ تمامًا .

فى هذه المرة ، أحنى صاحب الفندق رأسه ، ولم يعترض ...

أبدًا .

★ ★ ★

تمت بحمد الله



رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى ، يرمز إليه بالرمز (ن - ١) .. حرف (النون) ، يعنى أنــه فئـة نادرة ، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه ؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة ، من المسدس إلى قاذفة القنابل .. وكل فنون القتال ، من المصارعـة وحتى التايكوندو .. هذا بالإضافة إلى إجادتـه التامـة لستّ لغات حيَّة ، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكُّر و(المكياج) ، وقيادة السيارات والطائرات ، وحتى الغواصات ، إلى جانب مهارات أخرى متعدِّدة .

لقد أجمع الجميع على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات ..

ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة ، لقب (رجل المستحيل) .

د . نبيل فاروق

١ - لوجـراند...

لم يستطع (قدرى) كبح تلك الدمعة الساخنة ، التى تحررت من عينه ، وسالت على وجنته ، وهو يعد حقيبته ؛ استعدادًا للسفر فى الصباح التالى ، والعودة إلى الوطن ...

كان يشعر بالإحباط ؛ لأنه لم يستطع حسم مصير (أدهم) و(منى) ...

منذ اختفى (أدهم) مع (منى) ، عقب إصابتهما ، فى حفل زفافهما ، من جـراء تلك القنبلة ، التى زرعتهـا فتاة المخـابرات الصينية السابقـة (تيا) ، اختفى كل أثر لهما ...

حتى المخابرات المصرية ، لم تنجح فى العثور عليهما ...

ولكنه هو وحده ، لم ييئس أبدًا ...

ظل مؤمنًا بأنهما على قيد الحياة ، وأنه سيلتقى بهما يومًا ...

وربما لهذا سافر من (القاهرة) إلى (أسوان) ، ومنها إلى (فرنسا) ؛ بحثًا عن أى طرف خيط ، يمكن أن يقوده إليهما ...

وكانت أعنف مغامرة خاضها فى حياته ...

تلك الذكرى المشوَّشة فى أعماقه ، قبل فقدانه الوعى ، عقب انقلاب سيارة رجل المخابرات المصرى (نادر) ، فى الطريق من (مارسيليا) إلى (باريس) ، كانت تؤكد له أنه قد سمع صوت صديق عمره ...

صوت (أدهم) ...

ولكنه لا يستطيع الجزم بهذا ...

على الإطلاق ...

وها هو ذا مضطر للعودة إلى الوطن ، دون أن يحسم الأمر ...

ودون أن يطمئن ...

كان غارقًا فى مشاعره ، عندما سمع طرقات هادئة على باب حجرته ، فأسرع يمسح دموعه ، قبل أن يفتح الباب ...

ثم تراجع فى دهشة ...

فأمامه مباشرة ، وقف (ريو) ، ذلك السائق الفرنسى ، الذى شاركه مغامرته ، مبتسمًا ، وهو يحمل لفافة كبيرة ، قائلاً :

ـ بنسوار مسيو (قدرى) .

مضت لحظة من الدهشة ، قبل أن يغمغم (قدرى) :

ـ (ريو) ... كيف علمت مكانى ؟!... المفترض أن ...

قاطعه (ريو) ، وهو يناوله تلك اللفافة الكبيرة ، قائلاً :

ـ مسيو (لوجراند) يرسل لك تحياته .

التقط (قدرى) اللفافة فى تلقائية ، وهو يسأله فى لهفة :

ـ (لوجراند) ؟!... هل أخبرته أننى أريد أن ألتقى به ؟!

ابتسم (ريو) ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ـ عندما يحين الوقت المناسب ، سيلتقى هو بك مسيو (قدرى) .

ثم مال يغمز بعينه ، مضيفًا :

ـ ومدام (لوجراند) أيضًا .

قالها ، ثم اندفع ينصرف فى سرعة ، قبل أن يلقى عليه (قدرى) سؤالاً آخر ...

ولثوان وقف (قدرى) أمام باب حجرته المفتوح ، وهو يحمل تلك اللفافة الكبيرة ، قبل أن يدفع الباب بقدمه ، ثم يضع اللفافة على المائدة ويفتحها ، فانبعثت منها رائحة شهية ، وسقطت منها بطاقة ملوَّنة ، أسرع يلتقطها ، ويلقى نظرة عليها ...

وانتفض جسده بكل قوته ...

فالبطاقة كانت تحمل كلمات قليلة ، بخط يعرفه جيدًا ...

كلمات تقول :

ـ اشتقنا إليك كثيرًا يا صديقنا العزيز ... سنلتقى قريبًا بإذن الله ... مع تحيات الزوجين (كازانسخى) ... ملحوظة : (آدم) الصغير يرسل إليك تحياته أيضًا ؛ فهو مبهور بما نرويه له عنك ... شهية طيبة .

حدَّق فى الكلمات ، وجسده كله ينتفض انفعالاً ، وقلبه يخفق بكل قوته ، قبل أن يصرخ بكل سعادة الدنيا :

ـ إنهما على قيد الحياة ... إنهما سالمان وعلى قيد الحياة

وبكل جسده الضخم ، راح يرقص فى حجـرته ، وهو يطلق ضحكات عالية ، قبل أن يندفع نحو ذلك الطعام الشهى ، الذى حوته تلك اللفافة الكبيرة ، هاتفًا :

ـ ما زلت تذكرين ذوقى فى الطعام يا عزيزتى الغالية (منى) ...

ولأوَّل مرة ، منذ ما يزيد عن أربعة أشهر ، راح يلتهم ما أمامه من طعام ...

بكل شهية الدنيا ...

وكل سعادة الدنيا ...

كلها[1] .

★ ★ ★

تعالى وقع أقدام سريعة ، عبر الممر الرئيسى ، الذى يقود إلى مكتب مدير المخابرات العامة ، الذى سمع طرقات مألوفة ، على باب الحجرة ، فقال دون أن يلتفت إلى الباب :

ـ ادخل يا سيد (حسام) .

دلف (حسام) ، نائب مدير المخابرات إلى المكتب ، وبدا توتر ملحوظ على ملامحه ، على نحو جعل مدير المخابرات يسأله فى اهتمام قلق :

ـ ماذا لديك من جديد يا (حسام) ؟!

(١) راجع قصة (أدهم) المغامرة رقم (٢٣) من سلسلة الأعداد الخاصة .

لوَّح (حسام) بتقرير فى يده ، وهو يجيب :

ـ برنامج التعرف الجديد على الوجوه يا سيادة الوزير ... إنه أقوى بخمس مرات مما كان لدينا سابقًا ...

غمغم المدير فى ترقب :

ـ فليكن .

تابع (حسام) :

ـ كنا نختبره فى القسم الفنى ، عندما فكَّر أحد الفنيين هناك ، فى تجربته مع فيلم آلة التصوير ، فى تلك المدرسة الخاصة فى (بئر سبع) .

تزايد قلق مدير المخابرات ، وإن ظل مستترًا فى أعماقه ، وهو يقول :

ـ أتعنى ذلك ، الذى كشف وجه (منى) ، أسفل قناع العجوز ، وهى تستعيد (آدم) ابن (ن – ١) من هناك .

حمل صوت (حسام) كل توتره ، وهو يجيب بإيماءة من رأسه ، مكملاً :

ـ البرنامج الجديد يتعمَّق أكثر يا سيادة المدير ، ولهذا فقد كشف ما تحت وجه (منى) .

اعتدل المدير بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ تحت وجه (منى) ؟!... ما الذى يعنيه هذا ؟

وضع (حسام) التقرير أمام المدير ، وهو يقول :

ـ إنها لم تكن (منى) يا سيادة المدير ... لقد كان قناعًا مزودجًا ... أحدهم افترض أننا سنستخدم هذه الوسيلة ، فأوهمنا أنها (منى) .

انعقد حاجبا المدير فى شدة ، وهو يطالع الصور التى أمامه ، قبل أن يرفع عينيه إلى (حسام) ، قائلاً بكل صرامة :

ـ اجمع رؤساء الأقسام فورًا ... من الواضح أننا أمام أخطر خدعة واجهتها المخابرات فى تاريخها ، ولا يمكننا السكوت على هذا ..

وتم تنفيذ الأمر على الفور ...

فالخدعة كانت بالفعل شديدة الخطورة ...

إلى أقصى حد ...

★ ★ ★

« ماذا فعلت بالضبط يا (صروف) ؟!... »

هتف بها المديـر المالـى لشركة (أميجـو) الأمريكيـة ، فى وجـه (أدموند صروف) ، مسئول النقل ، الذى بدا عليه الاضطراب ، وهو ينهض مغمغمًا :

ـ وماذا فعلت يا مستر (كارل) .

صاح به (كارل) فى غضب :

ـ الأوراق التى معى ، تثبت أنك قد قمت بتصرفات مالية غير مقبولة ، دون الرجوع إلىَّ ، أو إلى المدير التنفيذى .

اضطرب (صرُوف) أكثر ، وبدا اضطرابه واضحًا ، فى ارتعاشة يده ، وهو يجيب :

ـ كانت صفقة جيدة يا مستر (كارل) ... ملياردير طلب استعمال طائرة الشركة الخاصة ؛ لنقل سيدة عجوز إلى (مصر) ، وأنت تعلم كم يهتم سنيور (أميجو) بكل ما يخص (مصر) .

صاح فيه :

ـ سنيور (أميجـو) مختفٍ تمامًا ، منـذ عدة أشهر ، وأنت تعلم أن مجلس الإدارة قد اتخذ قرارًا بنقل مستر (كلارك) إلـى منصب رئيس مجلس الإدارة ، لحين تحديد موقف سنيور (أميجو) ، أو ظهور من تنتقل إليه المسئولية القانونية .

غمغم (صرُوف) :

ـ ولكن سنيور (أميجو) ...

ضرب المدير المالى سطح مكتب (صرُوف) براحته فى قوة ، وهو يصيح فى وجهه :

ـ لا تـردد اسـم سنيـور (أميجـو) علـى هـذا النحـو ... صحيـح أنـه يمتلك النصيب الأكبر ، من أسهم هذه المؤسسة ، إلا أنه هناك مئات من حملة الأسهم ، يمكنهم توجيه الاتهام إلينا ، لو راودهم الشك فى حساب المصروفات .

ثم استند براحتيه على سطح المكتب ، وهو يميل بنصفه العلوى كله نحو (صروف) ، صائحًا فى حدة :

ـ أنا مضطر لتوجيه الاتهام إليك ، قبل أن يوجهه حملة الأسهم إلينا .

امتقع وجه صروف ، وهو يقول :

ـ كنت مضطرًا يا مستر (كارل) ... كنت تحت تهديد مخيف .

تراجع الرجل فى دهشة شديدة ، وهو يردد :

ـ تحت تهديد مخيف ؟!... أى تهديد هذا ؟!

انهار (صروف) على مقعده ، وهو يقول :

ـ لقد هدَّد بقتل زوجتى ... وأصابها بعدة إصابات بالفعل ...

هتف به الرجل ذاهلاً :

ـ من هو يا (صروف) ؟!... من فعل هذا ؟!

رفع (صروف) إليه عينين مغرورقتين بالدموع ، وهو يقول بصوت مختنق :

ـ يطلقون عليه اسم (لوجراند) ... وهو رجل قاس ، لا يعرف الرحمة ، و ...

لوهلة رأى المدير المالى ما يشبه الوميض ، عند المبنى المقابل ، عبر زجاج حجرة مكتب (صروف) ، وقبل أن يتساءل عن ماهيته ، سمع صوت تحطم زجاج ، ثم اندفع (صروف) إلى الأمام بحركة عنيفة ، وسقط ليرتطم رأسه بسطح مكتبه ، الذى انتشرت فوقه فى سرعة ، بقعة من الدماء ، التى تنزف من مؤخرة رأسه ...

وتراجع المدير المالى فى ذهول شديد ، ثم راح يصرخ ...

ويصرخ ...

ويصرخ ...

بلا انقطاع ...

★ ★ ★

أوقف (ريو بتشولى) ، أشهر سائق تاكسى فى (باريس) سيارته ، التى تم تجديدها بالكامل ، أمام تلك البناية ، التى تبعد مائة متر تقريبًا عن برج (إيفل) ، وهبط منها فى هدوء ، وهو يربت على مقدمتها ، كما لو كانت حبيبة عمره ، وتطلع إليها فى حب واضح ، قبل أن يعدل هندامه ، ويتجه نحو مدخل البناية ، قائلاً للحارس الواقف أمامها :

ـ كنت أبحث عن حجرة خالية .

أجابه الحارس فى هدوء شديد :

ـ فى أى طابق تريدها ؟!

شدَّ (ريو) قامته فى اعتداد ، وهو يجيب :

ـ الثالث تحت الأرضى .

أفسح له الحارس المجال بنفس الهدوء ، فدلف (ريو) إلى البناية ، والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يتجه نحو المصعد القديم فى الطابق الأرضى ، وهو يقول للحارس الثانى ، الواقف إلى جواره :

ـ (لوجراند) فى انتظارى .

غمغم الحارس الثانى :

ـ أعلم هذا .

ثم فتح له باب المصعد فى احترام ، فدلف إليه (ريو) ، ووقف داخله ساكنًا ، دون أن يضغط أية أزرار ، وعلى الرغم من هذا ، فقد راح المصعد يهبط به ، عبر ممر ضيق ، حتى توقف بعد طابقين تحت مستوى الأرض ..

وفى هدوء ، غادر (ريو) المصعد إلى ممر طويل مضاء ، يقف به حارسان ، اتجه نحوه أحدهما ، وراح يفتشه فى سرعة ودقة ، تشفان عن خبرته الطويلة فى هذا المجال ، قبل أن يعتدل ، قائلاً فى خشونة :

ـ إنه فى انتظارك .

قالها وهو يشير إلى باب فى نهاية الممر ، اتجه نحوه (ريو) ، ووضع راحته كلها على شاشة خضراء مجاورة له ، فتحرك عليها خيط من الضوء ، يفحص بصمات يده كلها ، قبل أن يضاء مصباح أخضر فوق اللوحة ، وينفتح باب الحجرة أمامه ...

كانت حجرة كبيرة ، بالغة الذوق والأناقة ، يجلس فى ركنها رجل فخم المظهر ، فى نهاية الأربعينات من عمره ، يرتدى بدلة كاملة ، ورباط عنق ، يزينه دبوس كبير من الماس ، وعلى ساقيه يرقد كلب صغير الحجم ، تداعبه يده طوال الوقت ، وأمامه شاشة كبيرة ، مقسّمة إلى عدة مشاهد ، يتابعها كلها فى آن واحد ...

ودون أن يلتفت إلى (ريو) ، سأله فى صرامة :

ـ هل أنهيت مهمتك ؟!

أومأ (ريو) برأسه إيجابًا ، وقال فى زهو ، هو جزء من شخصيته :

ـ لن يعثروا أبدًا على ذلك الألمانى .

سأله (لوجراند) بنفس الصرامة :

ـ تأكّدت من عدم عثورهم عليه ؟!

لوّح (ريو) بيده ، فى حركة مسرحية ، وهو يجيب :

ـ إنه يرقد بسلام فى قاع (السين) ، وحوله حجر يزن نصف طن .

ثم أضاف ممازحًا :

* (ريو) لا يلوث يديه بالدماء أبدًا .

صمت لحظة ، ثم تساءل فى فضول :

ـ ولكن لماذا قضينا عليه ؟!.. ألم يكن يعمل لحسابنا ؟!...

رمقه ذلك الرجل ، الذى يطلقون عليه اسم (لو جراند) ، بنظرة تشف عن عدم تقبل ذلك الأسلوب ، قبل أن يقول :

ـ ولحساب غيرنا أيضًا .. ذلك الوغد تصوّر أنه يستطيع لعب دور مزدوج ، ثم ينجو بفعلته .. أما أنت فقد أحسنت لعب ذلك الدور المزدوج ... تلك الصينية مازالت تصر على أنك (أدهم صبرى) ، فى تحقيقات النيابة .

قهقه (ريو) ضاحكًا ، على نحو لم يرق للرجل ، قبل أن يلوح بيده مرة أخرى ، على ذلك النحو المسرحى ، قائلاً :

ـ وذلك البدين أيضًا تصوَّرنى كذلك لبعض الوقت . . . ثم تصوَّر أننى آت من قبل ذلك الـ (صبرى) ، عندما أعطيته سلة الطعام ، التى أرسلتها أنت له .

صمت (لوجراند) لحظات ، قبل أن يقول فى بطء ، ويده مازالت تداعب كلبه الصغير فى نعومة :

ـ قناعتهم بهذا ، هى التى ستوقف بحثهم عنه .

سأله (ريو) فى حيرة :

ـ وبِمَ يفيدك توقف بحثهم عنه ؟!

صمت (لو جراند) طويلاً ، قبل أن يجيب فى بطء :

ـ لن تفهم . .

انفرجت شفتا (ريو) ليقول شيئًا ، ثم سرعان ما عاد يطبقهما ...

فصحيح أنه قد تلقى تدريبات عنيفة ، إبان عمله كعميل للمخابرات الروسية ، ولكنِ مع عقلية رجل مثل (لو جراند) ، لن يمكنه بالفعل أن يفهم ما يدور داخل رأسه ...

لن يمكنه أبدًا .

★ ★ ★

٢ ـ تحقيـق . . .

دسَّ المهندس (سالم إبراهيم) ، جار (أدهم) النوبى مفتاحه ، فى ثقب باب شقته ، والتقط نفسًا عميقًا ، وهو يلقى نظرة بائسة على باب شقة (أدهم) ، فى نهاية الممر ، وهو يغمغم فى أسى :

ـ سامحنى يا صديقى ... كنت مضطرًا .

أدار المفتاح ، ودفع باب شقته ، ومال يضىء الصالة ، عندما سبقته يد إلى زر الإضاءة ، فانبعث الضوء ، على نحو ارتجف معه (سالم) ، وخاصة مع رؤية الرجل الوقور ، صارم النظرات ، الذى يجلس على المقعد الكبير ، فى مواجهة الباب ، والذى قال فى هدوء ، لم يخل من الصرامة ، وهو يلامس أصابع كفيه أمام وجهه :

ـ تأخَّرت فى العودة يا سيد (سالم) .

اتسعت عينا (سالم) فى رعب ، وهم بالتراجع ، إلا أنه فوجئ بشخص يمسك ذراعيه من الخلف ، ويدفعه داخل الشقة ، ثم يغلق بابها خلفهما فى قوة ، فى حين استطرد ذلك الوقور الصارم :

ـ إننا ننتظر عودتك ، منذ أكثر من ساعة .

أدار (سالم) عينيه فى وجوههم فى ذعر ، قبل أن يهتف فى صوت مختنق :

ـ نقودى كلها فى البنك ، وكل ما أمتلكه هنا

قاطعه الوقور بكل صرامة :

ـ السيد (حسام) ، من المخابرات العامة المصرية .

انتفض جسد (سالم) فى عنف أكثر ، وهو يردد فى رعب :

ـ المخابرات العامة ؟!

ثم سعل مرتين فى قوة ، قبل أن يقول فى ضعف :

ـ أنا رجل مريض ، و ...

قاطعه (حسام) بنفس الصرامة :

ـ هراء .

حدَّق فيه (سالم) فى ذهول ، فنهض (حسام) من مقعده ، واتجه إليه فى خطوات هادئة ، مواصلاً :

ـ نعترف أنك قد أحسنت لعب دور المريض ، وأنت تلتقى بالسيد (قدرى) فى (أسوان) ، ولكننا راجعنا ملفك الطبى ، وتحرينا عن أدائك فى موقع عملك ، وتيقنا ، بما لا يدع مجالاً للشك من أن قصة مرضك هذه وهمية ، لا صلة لها بواقعك الصحى .

اتسعت عينا (سالم) عن آخرهما ، وهو يستمع إليه ، وتراخت ركبتاه ، فعجزت ساقاه عن حمله ، فأجلسه ذلك الذى يمسك به من الخلف ، على مقعد قريب ، اتجه إليه (حسام) وهو يتابع :

ـ أما حسابك البنكى ، فقد أضيفت إليه مليـون دولار ، عبر أربـع تحويلات مختلفة ، وذلك قبل شهر واحد من لعب دورك .

انهار (سالم) ، وهو يقول باكيًا :

ـ كانت صفقة العمر ، ولم تبد لى غير قانونية ... السيد (أدهم) اختفى بالفعل ، وكل ما طلبوه منى هو ادعاء مرضى بالذاكرة ، ومقابلة السيد (قدرى) صديق السيد (أدهم) ، وإيهامه بأننى التقيت صديقه منذ شهر واحد ... ولم يبد لى هذا ضارًا ، أو حتى يسىء إلى السيد (أدهم) ؟!

جلس (حسام) على مسند مقعد مجاور ، وهو يسأله :

ـ السيد (قدرى) قال فى تقريره : أنك قد التقيت به فى القرية النوبية ، بعد أن التقى بك بوقت قليل .

هزَّ (سالم) رأسه فى أسف ، وخفض عينيه الباكيتين ، وهو يجيب من وسط دموعه :

ـ السيد (قدرى) استأجر زورقًا أهليًا ، أما أنا فقد تم نقلى بزورق تجارى قوى إلى القرية ، وفى منزل عائلتى هناك استبدلت ثيابى ، والتقيت به ، حاملاً الاسم الذى يعرفوننى به فى القرية ... حامد .

سأله (حسام) :

ـ وماذا عن القصة ، التى رويتها له ؟!

هتف (سالم) ، وهو يرفع عينيه إليه :

ـ قصة حقيقية ... السيد (صروف) أتى مع زوجته (مارى) بالفعل ، ولكنها لم تكن مريضة كما وصفتها ، ولكننى فعلت ما طلبوه منى

بدا الاهتمام فى صوت (حسام) ، وهو يسأله :

ـ وتلك التى تحمل اسم (جوزفين) ، أو (جوزى) .

أجاب منهارًا :

ـ لقد أتت لزيارتهما بالفعل . . . أقسم أننى أقول كل ما أعرفه .

تبادل الرجال نظرة صامتة ، فى حين مال (حسام) نحوه ، وهو يقول :

ـ بقى أن تخبرنا ، من هم هؤلاء ، الذين طلبوا منك كل هذا ؟!

أجاب (سالم) فى انفعال :

ـ لست أدرى ... أقسم أننى لست أدرى ... لم ألتق بهم أبدًا .

اعتدل (حسام) ، وهو يقول بكل صرامة :

ـ فعلت كل هذا ، من أجل أشخاص ، لم تلتق بهم قط ؟!

هتف (سالم) ، وقد بلغ انهياره مبلغه :

ـ الاتصالات كانت تتم ، عبر شبكة الإنترنت ، ولقد حوَّلوا إلى حسابى أربعمائة ألف دولار أمريكى بالفعل ، قبل أن أبدأ مهمتى .

تطلع إليه (حسام) طويلاً فى صمت ، قبل أن ينهض فى حزم ، قائلاً :

ـ سنحتاج إليك معنا يا سيد (سالم) ... خبراؤنا سيحتاجون للجلوس معك بعض الوقت .

لوَّح (سالم) بذراعيه فى قوة ، وهو يهتف فى رعب :

ـ لن أحتمل أى عنف :

ـ ارتفع حاجبا (حسام) ، وهو يقول فى دهشة :

ـ عنف ؟!

ثم ربَّت على كتف (سالم) ، مستطردًا :

ـ من الواضح أنك ضحيـة أفلام السينما الرديئة يا رجل ... أجهـزة المخابرات ، فى العالم كله ، لا تلجأ أبدًا إلى العنف فى استجوابها ، فالعنف يمنحك فقط ما تريد سماعه ، حتى وإن لم يكن حقيقة ، وأجهزة المخابرات تسعى دومًا خلف الحقيقة ... اطمئن .

قال (سالم) فى توتر :

ـ لماذا تريدوننى معكم إذن ؟!

أجابه (حسام) فى حزم :

ـ لأن ما نسعى خلفه ، يحتاج منا إلى جمع أدق المعلومات ، عن كل خطوة تمت ، فى أكبر خدعة واجهناها .

ولكن المهندس (سالم) ظل يرتجف ...

فهو لم يقنع بما سمعه ...

أبدًا ...

★ ★ ★

نهض (آدم) ، ابن (أدهم صبرى) من فراشه ، محدقًا فى ذلك الرجل الأنيق ، الذى يقف عند باب حجرته ، متطلعًا إليه بابتسامة كبيرة ، وسأله فى شىء من الضيق :

ـ من أنت ؟!

أجابه الأنيق فى هدوء :

ـ أقرب الناس إليك .

سأله الطفل فى حيرة :

ـ ماذا تعنى ؟! ... وأين أمى ؟!... تلك العجوز ، التى اصطحبتنى من مدرستى ، أخبرتنى أننى سأذهب إلى أمى ، ولكنها أتت بى إلى هنا ، بدلاً من هذا .

اتجه الأنيق نحوه فى هدوء ، وجلس إلى جواره على طرف الفراش ، وهو يسأله فى رفق :

ـ هل تحب أمك ؟!

أجابه الطفل فى تردّد قلق :

ـ بالطبع ... إنها أمى ، وإن كنت لا أراها إلا قليلاً ... كل الأطفال يحبون أمهاتهم ... أليس كذلك ؟!

ابتسم الأنيق ، وهو يجيب :

ـ بلى .

ثم داعب رأس الطفل مرة أخرى فى رقة ، قبل أن يسأله :

ـ وهل أخبرتك أمك عن أبيك ؟!

صمت الطفل لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ ليس الكثير ... ولكنها قالت إنه رجل عظيم .

سأله فى نعومة :

ـ وهل رأيت صورته ؟!

هزَّ الطفل رأسه نفيًا فى أسى ، وترقرقت دمعة من عينيه ، وهو يجيب :

ـ طلبت ذلك من أمى أكثر من مرة ، ولقد وعدتنى أن تفعل .

وسالت دمعة من عينه ، مع استطراداته :

ـ ولكنها لم تفعل أبدًا .

ضم الأنيق رأس الطفل إلى صدره ، وربَّت عليه فى حنان ، وهو يقول :

ـ لن تحتاج إلى هذا بعد الآن .

ثم أبعده عنه قليلاً ، وهو يبتسم فى وجهه ، مضيفًا :

ـ أنا أبوك .

اتسعت عينا الطفل فى انفعال ، وغمغم فى لهفة وسعادة :

ـ أنت ؟!... أنت أبى ؟!

عاد الأنيق يضمه ، وهو يجيب :

ـ نعم ... أنا أبوك يا (آدم) ... والجميع هنا يخاطبوننى باسم (لوجراند) .

ولو رفع الطفل عينيه ، فى تلك اللحظة ، لشاهد التماعة مخيفة فى عينى ذلك ، الذى أخبره على التو أنه أبوه ...

التماعة ظافرة شريرة ...

للغاية ...

★ ★ ★

انهمرت دموع (مارى توماس) فى غزارة ، وهى تقف أمام رجل المباحث الفيدرالية الأمريكى ، الذى ظل صامتًا بضع لحظات ، قبل أن يقول فى رفق :

* مسز (صروف) ... أعلم أنه موقف عصيب ، ولكن واجبى يحتم علىّ أن أسألك : هل لزوجك أعداء ؟!...

حمل صوتها كل الحزن ، وهى تجيب ، من وسط دموعها :

ـ ولماذا يكون له أعداء ؟!... (صروف) كان شخصًا بسيطًا ملتزمًا طيلة عمره .

قال رجل المباحث الفيدرالية ، فى شىء من الحزم :

ـ ولكن تصرفاته المالية الأخيرة ، فى شركة (أميجو) ، لم تكن فوق مستوى الشبهات .

هزَّت رأسها نفيًا فى قوة ، وهى تقول :

ـ أشك فى هذا .

قال رجل المباحث الفيدرالية فى صرامة :

ـ الناس لا يلقون حتفهم برصاص قناص ، دون أى سبب .

رفعت عينيها إليه ، مجيبة فى صرامة عصبية :

ـ ولِمَ لا ؟!... هل نسيت قناص التسعينيات ، الذى أطلق النار على رءوس العديد ، ممن لا يعرفهم حتى[1] .

انعقد حاجباه فى صرامة ، دون أن يحر جوابًا ، ودام صمته لبضع ثوان ، قبل أن يقول فى توتر :

ـ ولكنه لم يكتف عندئذ بقتيل واحد .

بدا عليها الغضب ، دون أن تجيب ، فالتقط نفسًا عميقًا فى يأس ، قبل أن يقول ؛ وهو يناولها بطاقته الخاصة :

ـ على أية حال ، يا مسز (صروف) ، هذه بطاقتى ، ونحن نسعى لكشف حقيقة مصرع زوجك ، فإن تذكَّرت أى شىء ، يمكن أن يقودنا إلى هذا ، أو يفيدنا فى التوصّل إليه ، لا تتردَّدى فى إبلاغنا .

التقطت البطاقة ، وهى تغمغم :

ـ سأفعل .

---

(١) واقعة حقيقية .



استدار رجل المباحث الفيدرالية لينصرف ، عندما سمع صوتًا مكتومًا من خلفه ، جعله يعود إليها بالتفاتة سريعة ، ففوجئ بعينيها متسعتين عن آخرهما ، وهى تترنَّح فى شدة ...

وكان هناك ثقب فى زجاج النافذة خلفها ...

ثقب مشابه تمامًا لذلك ، الذى كان فى زجاج نافذة مكتب زوجها عند مصرعه ...

وفى نفس اللحظة ، التى سحب فيها مسدسه بحركة غريزية ، تهاوت (مارى) بين ذراعيه جثة هامدة ، بنفس الوسيلة التى لقى بها زوجها مصرعه ...

وهنا بالتحديد ، تهاوت نظرية القناص العشوائى ...

إنها عملية تصفية متعمَّدة ومدروسة ...

بمنتهى الدقة ...

★ ★ ★

« وماذا عن تلك الصينية ، التى تصوَّرت أننى ذلك المصرى ؟!... »

ألقى (ريو) سؤاله فى شغف فضولى ، فربَّت (لوجراند) على كلبه الصغير ، قبل أن يجيب فى هدوء :

ـ القاضى أصدر حكمه عليها بالإعدام ، وسيتم التنفيذ صباح السبت .

ابتسم (ريو) وهو يقول :

ـ بهذه السرعة ؟!

أجابه فى هدوء :

ـ كانت هناك أدلة عديدة ، والكثير من شهود الإثبات ، ودفاعها بدا أشبه بالهلوسة ، وخاصة عندما اتهمتك بأنك شخص آخر .

قهقه (ريو) ضاحكًا ، ولوَّح بكفه ، قائلاً :

ـ كدت أنفجر ضاحكًا ، وهى تحاول إثبات أن وجهى مجرَّد قناع ، والادعاء يجذب بشرتى وشعرى ، ويراجع أوراقى .

التقط (لوجراند) نفسًا عميقًا ، وهو يقول :

ـ هذا يثبت أن الخدعة كانت متقنة للغاية ، حتى أنها خدعت فتاة مخابرات صينية سابقة .

لوَّح (ريو) بيده ، فى حركة مسرحية كعادته ، وهو يقول :

ـ لأن (ريو) كان يلعب دور البطولة .

رمقه (لوجراند) بنظرة صارمة ، قبل أن يقول :

ـ لا تنس أن أبى هو من علمك كل ما تعرفه .

انحنى (ريو) بحركة مسرحية ، قائلاً :

ـ وكان أفضل معلم .

صمت (لوجراند) لحظات ، قبل أن يقول فى مقت :

ـ قبل أن يقضى ذلك المصرى عليه .

تطلع إليه (ريو) ، وهو يغمغم :

ـ لهذا تكرهه إلى هذا الحد .



ـ لم يجب (لوجراند) ، وهو يواصل مداعبة كلبه الصغير ، فتابع (ريو) ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ سلبك والدك ، فسعيت لسلبه ابنه ... الولد يتصوَّر أنك أبوه ... أليس كذلك ؟!

حمل صوت (لوجراند) كل الصرامة ، وهو يقول :

ـ تتحدَّث كثيرًا يا (ريو) ، وهذا لا يروق لى .

تراجع (ريو) فى توتر ، وهو يغمغم :

ـ معذرة .

صمت (لوجراند) لحظات ، قبل أن يقول بكل صرامة :

ـ رجال (نيويورك) أغلقوا كل الأبواق هناك ، وصارت خدعتنا محمية تمامًا ، فيما عدا بوق واحد .

شعر (ريو) بقلق شديد ، وهو يتراجع أكثر ، مغمغمًا ...

التفت إليه (لوجراند) فى بطء ، قائلاً فى حزم :

ـ (جوزى) .

وعلى الرغم من أن هذا قد خالف كل توقعاته ومخاوفه ، سرت فى جسد (ريو) قشعريرة باردة ...

كالثلج ...



بدا مدير المخابرات العامة المصرية شديد الاهتمام ، وهو يجلس على رأس مائدة الاجتماعات فى مكتبه ، قائلاً للرجال الملتفين حولها :

ـ التحقيقات الدقيقة ، مع المهندس (سالم) ، لم تضف الكثير إلى ما أدلى به من معلومات ، ولكنها أكَّدت ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أنه هناك منظمة قوية ، سعت لإمدادنا بمعلومات مغلوطة ، عن اختفاء (ن - ١) و(منى توفيق) .

قال أحد الرجال ، وهو يراجع تقريرًا أمامه :

ـ الحقائق الوحيدة لدينا ، هى لجوء سيادة العميد وزوجته المصابة ، إلى شقيقه الوحيد ، الدكتور (أحمد صبرى) ، وسفرهما معًا بجوازى السفر ، اللذين زوَّدهما بهما السيد (قدرى) ، فى عملية سابقة ، تحت اسم السيد والسيدة (كازانسخى) .

أضاف آخر :

ـ سجلات المطارات تقول : أن السيدة (كازانسخى) كانت تعانى من إعياء شديد ، حتى أنها طلبت مقعدًا متحركًا ، دفعه السيد (كازانسخى) بنفسه ، حتى وصلا إلى الطائرة ، وسجلات الطائرة نفسها أكَّدت أن حالتها الصحية لم تكن على ما يرام ، طوال الرحلة إلى (المجر) .

تراجع (حسام) فى مقعده ، وهو يقول :

ـ الأخطر من هذا ، أنه باستثناء المهندس (سالم) ، تم اغتيال كل من شارك فى هذه الخدعة ، وكأن من وراءها ، لا يريدون ترك أى دليل خلفهم .

أشار المدير بيده ، قائلاً :

ـ اغتيال كل من شاركوا فيها ، هو دليل فى حد ذاته

أخرج (حسام) من الملف أمامه صورة ، رسمها القسم الفنى فى الجهاز ، وهو يقول :

ـ هذا رسم دقيق ، تعرَّف عليه المهندس (سالم) ، باعتباره تلك العجوز ، التى قدمت تحت اسم (جوزفين رينيه) ... ولقد راجع مكتبنا فى (باريس) الرسم ، مع سجلات الشرطة والإدارة المدنية وإدارة تراخيص السيارات فى (فرنسا) ، وتوصلوا إلى أنها ممثلة مسرحية مغمورة ، تحمل اسم (كاثرين موليبه) ، والرجال فى طريقهم إليها الآن .

تراجع المدير فى مقعده ، قائلاً :

ـ عظيم ... ماذا تبقى لدينا الآن .

« أنا ... »

سمعوا كلهم ذلك القول الغاضب الصارم ، فالتفتوا إلى مصدره فى آن واحد ، قبل أن ترتسم الدهشة على وجوههم .

فالواقف عند الباب كان آخر شخص يتوقعون رؤيته ، فى هذه اللحظة بالذات ...

على الإطلاق .

★ ★ ★

٣ ـ الدليــل ...

انكمشت (كاثرين موليبه) فى خوف ، وهى تحدق فى الرجلين ، اللذين طرقا بابها ، وهتفت فى صوت مختنق ، يموج بالارتجاف :

ـ أنا لم أفعل شيئًا .

ابتسم أحد الرجلين ، وهو يقول :

ـ ومن قال إنك فعلت ، يا نجمة .

ارتجفت شفتاها ، وهى تغمغم مبهورة :

ـ نجمة ؟!... أنا مجرَّد ... مجرَّد ...

قال الرجل الثانى فى احترام :

ـ أنت (كاثرين موليبه) ، أعظم من اعتلى مسارح (باريس) .

بدا عليها حماس منفعل ، وهى تشير بيدها المعروفة ، هاتفة :

ـ قدمت أيضًا عرضًا فى (بردواى) .

قال الأوَّل :

ـ عظيم مدموازيل (موليبه) ... ولكنه ليس أعظم من الدور ، الذى قمت به فى (مصر) .

ارتجف جسدها الضئيل كله ، واتسعت عيناها فى رعب ، وهى تتراجع محدقة فيهما ، ومغمغمة :

ـ من أنتما ؟!

أجابها الثانى ، وهو يسد مسار الباب بقدمه ؛ حتى لا تغلقه بغتة :

ـ نحن من هناك .

وأضاف الأوَّل فى حزم :

ـ من (مصر) .

ارتجف جسدها وصوتها ، وهى تقول :

ـ أنا لم أفعل شيئًا ... فقط ما طلبوا منى فعله ... هم أعطونى جواز السفر ، وعدة رزم من الدولارات ، مقابل أن أسافر إلى (مصر) ، منتحلة شخصية امرأة تدعى (جوزفين رينيه) ، وهذا كل ما فعلته .

سألها الثانى فى اهتمام :

ـ نريد أن نعرف من هم ، وكيف تم الاتصال بينك وبينهم ؟!..

تراجعت ، محاولة إغلاق الباب فى وجهيهما ، ولكن قدم الثانى حالت بينها وبين هذا ، والأوَّل يقول فى صرامة :

ـ سنحصل على الأجوبة ، بوسيلة أو بأخرى مدموازيل (موليه) .

هتفت فى رعب :

ـ سيقتلوننى إن فعلت ... أنتم لا تدركون مع من تتعاملون .

قال الثانى بكل صرامة :

ـ بل أنت من لا يدرك مع من يتعامل الآن .

هتفت منهارة :

ـ ولكنهم لا يعرفون الرحمة ، وسفك الدماء بالنسبة إليهم ، أسهل من إشعال سيجارة .

قالتها ، ثم سقط فكها السفلى رعبًا ، وهى تحدق فى نقطة ما ، بين كتفى الرجلين ، فى نفس اللحظة ، التى تناهى فيها إلى مسامع الرجلين ، صوت صرير إطارات سيارة ، فالتفتا خلفهما فى سرعة ، وكل منهما يستل مسدسه ...

ومع صرخة الرعب ، التى انطلقت من بين شفتى (كاثرين موليه) ، دوت الرصاصات فى المنطقة ...

وانهمرت كالمطر ...

★ ★ ★

« كيف دخلت إلى هنا ؟!... »

قالها مدير المخابرات فى صرامة شديدة ، فدلف (قدرى) بجسده الضخم إلى الحجرة ، وهو يجيب ، فى غضب واضح :

ـ هل نسيت يا سيادة الوزير ، أنك ومنذ عام تقريبًا ، أصدرت قرارًا لمدير مكتبك ، بمنحى صلاحية دخول مكتبك ، فى أية لحظة .

تراجع المدير فى مقعده ، وهو يقول :

ـ ذكرنى بإلغاء هذا القرار فورًا .

صمت (قدرى) لحظات ، حاول خلالها ابتلاع غضبه ، قبل أن يتساءل :

ـ لماذا لم تتم دعوتى إلى هذا الاجتماع ؟!

أجابه المدير فى صرامة :

ـ منذ متى يتم إلقاء مثل هذا السؤال ؟!

بدا (قدرى) حزينًا ، وهو يقول :

ـ ولكننى أكثر من يعرف (أدهم) و(منى) ، وأكثر من يدرك أنهما على قيد الحياة .

تنحنح (حسام) ، قبل أن يقول :

ـ الأمور هنا لا تعتمد على المشاعر الشخصية يا سيد (قدرى) ، وأنت أكثر من يدرك هذا .

حمل صوت (قدرى) الكثير من الانفعال ، وهو يقول :

ـ ولكننى واثق من أن (أدهم) هو من أنقذنى ، عندما سقطت بنا سيارة السيد (نادر) فى (فرنسا) ... من المستحيل أن تخطئ صوت صديق عمرك .

قال (حسام) :

ـ إلا إذا كان هناك من يجيد تقليد صوته .

أشار (قدرى) إلى رأسه ، وهو يهتف :

ـ ليس مع (قدرى) .

قال مدير المخابرات فى صرامة :

ـ اجلس يا (قدرى) ... ما دمت هنا ، فستنضم إلينا فيما نفعل .

ثم استطرد فى قوة ، وهو يلوح بسبَّابته فى وجهه :

ـ شريطة ألا تقحم مشاعرك الشخصية فى الأمر .

هم (قدرى) بقول شىء ما ، عندما ارتفع رنين هاتف (حسام) ، فالتقطه فى سرعة ، وهو يسأل :

ـ هل تم الأمر ؟!

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستمع إلى محدثه ...

فقد كان ما يتلقاه هامًا وخطيرًا ...

إلى أقصى حد ...

★ ★ ★

حمل صوت (لوجراند) كل غضبه ، وهو يهتف فى وجه (رينو) :

ـ كيف حدث هذا ؟!

أجابه (رينو) فى اضطراب :

ـ عندما وصل الرجال إلى منزل (كاثرين) ، لم تكن العجوز وحدها ... كان هناك رجلان يتحدثان إليها .

هتف به (لوجراند) :

ـ وهل يصنع هذا فارقًا ؟!... لماذا لم يطلقوا النار عليهم جميعًا ؟!

أجابه (ريو) فى سرعة :

ـ هذا ما فعلوه بالفعل ... ولكن ...

اضطرب وتردّد فى شدة ، فصاح به الرجل فى غضب :

ـ ولكن ماذا ؟!

اضطرب (ريو) أكثر ، وهو يجيب :

ـ ولكنهما كانا محترفين ، وعلى نحو لم يعهده رجالنا فى خصومهم حدث تبادل إطلاق نيران ... أحد الرجلين أصيب فى ذراعه .

سأله (لوجراند) ، فى صرامة غاضبة :

ـ وماذا عن رجالنا ؟!

تردّد (ريو) لحظات ، قبل أن يجيب ، فى صوت خافت :

ـ لقوا مصرعهم .

هتف (لوجراند) مستنكرًا :

ـ الخمسة ؟!

أومأ (ريو) برأسه إيجابًا فى صمت ، شاركه فيه (لوجراند) فى غضب مكتوم ، قبل أن يغمغم :

ـ وماذا عن ـ (كاثرين) ؟!

خفض (ريو) عينيه ، مجيبًا فى خزى :

ـ حملها الرجلان معهما إلى ... إلى ..

صرخ فيه (لوجراند) غاضبًا :

ـ هل سأنتزع الكلمات من بين شفتيك انتزاعًا ؟!

أجاب (ريو) فى سرعة متوترة :

ـ إلى السفارة المصرية .

انعقد حاجبا (لوجراند) فى شدة ، ولاذ بالصمت لدقيقة كاملة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ هذا ينقل العملية إلى مستوى آخر تمامًا ...

ومرة أخرى ، لم يفهم (ريو) ...

إطلاقًا ...

★ ★ ★

ارتجفت (كاثرين) على نحو واضح ، وهى تجلس أمام مندوب المخابرات المصرية ، فى سفارة (مصر) فى (باريس) ، مرددة فى انهيار :

ـ أرادوا قتلى ... هؤلاء الأوغاد سعوا لقتلى ، بعد كل ما فعلته من أجلهم .

ربَّت مندوب المخابرات على كتفها مهدئًا ، وهو يقول :

ـ ولكنك نجوت يا مدموازيل (موليه) ، وأنت هنا الآن فى أمان .

نظرت إليه من خلف منظارها السميك ، وهى تتساءل مرتجفة :

ـ أتعتقد هذا حقًّا ؟!

اعتدل مجيبًا فى ثقة :

ـ دون أدنى شك .

انكمشت فى مقعدها ، مغمغمة :

ـ ولكنهم يستطيعون الوصول إلى أى مكان .

شدَّ قامته ، قائلاً بمنتهى الحزم :

ـ إلا هنا .

ثم مال نحوها ، مستطردًا :

ـ ولقد رأيت بنفسك كيف تعاملنا معهم .

انكمشت أكثر فى مقعدها ، على الرغم من عدم تعليقها بحرف واحد ، فصمت مندوب المخابرات لحظة ، قبل أن يسألها :

ـ مدموازيل (موليه) ... أنت لا تتعاملين مع شبكة الإنترنت ، ولا يوجد هاتف محمول مسجَّل باسمك ، وهاتفك الأرضى لم يتلق أية مكالمات ، خلال الأشهر الثلاثة الماضية ، فكيف تم اتصالهم بك ؟!

رفعت عينيها إليه فى حذر ، مجيبة فى تردد :

ـ أحدهم جاء إلى منزلى .

سألها فى اهتمام :

ـ هل أخبرك عن اسمه ؟!

هزَّت رأسها نفيًا ، مجيبة :

ـ منحنى اسمًا وهميًّا بالتأكيد .

ثم أضافت فى حماس :

ـ ولكننى أستطيع رسم ملامحه .

دفع رجل المخابرات أمامها رسمًا للجنرال (ديجول)[1] ، يحمل توقيعها ، وتاريخًا يعود إلى بداية الستينيات ، وهو يقول مبتسمًا :

ـ هذا ما كنا ننتظره منك .

---

(١) (شارل ديجول) (٢٢ نوفمبر ١٨٩٠ - ٩ نوفمبر ١٩٧٠) : جنرال ورجل سياسة فرنسى ، تخرج من المدرسة العسكرية ١٩١٢م، له عدة مؤلفات حول الاستراتيجية والتصور العسكرى ، قاد مقاومة (فرنسا) ، فى الحرب العالميــة الثانيــة ، ورأس حكومة (فرنسا) الحرة فى (إنجلترا) ١٩٤٣م ، وصار رئيسًا لـ (فرنسا) بعد التحرير (٨ يناير ١٩٥٩ - ٢٨ إبريل ١٩٦٩م) .

هتفت فى دهشة :

ـ هل كنتم تعلمون ؟!

وضع أمامها رزمة من الأوراق وأقلام الفحم ، وهو يجيب :

ـ لست أعتقد أنها مهارة ، يمكن أن يمحوها الزمن .

« الرسم دقيق ، ولقد عثرنا على تشابه ، فى سجلات الإدارة المدنية فى (باريس) .. »

قالها فنى الكمبيوتر ، وهو يدير شاشته نحو رجل المخابرات ، مكملاً :

ـ جان ميشيل ، تاجر قطع غيار يخوت ، لا سوابق له ، ومسيرة حياته بلا شبهات .

سأله رجل المخابرات :

ـ وماذا عن أحواله المالية ، خلال الأشهر الماضية ؟!

جرت أصابع المهندس الفنى ، على أزرار الكمبيوتر فى سرعة ، قبل أن يشير إلى الشاشة ، مجيبًا :

ـ حصل على مليون دولار ، خلال الأشهر الثلاثة الماضية ، عبر ثلاث دفعات منتظمة .

انعقد حاجبا رجل المخابرات ، وهو يغمغم فى حيرة :

ـ مليون دولار ، مقابل الاتصال بـ (كاثرين) !!... ترى من يمكن أن ينفق كل هذا ؟!... ولماذا ؟!..

لم يدر رجل المخابرات ، وهو يطرح سؤاليه ، أن السؤال الأكثر أهمية منهما هو لماذا ؟!...

حقًا لماذا ؟!..

★ ★ ★

« لأنه هناك أدلة جديدة ، تثبت أن موكلتى لم تكن هى من أطلق النار .. »

أجاب المحامى (لوريل هاجارد) بهذه العبارة ، سؤال المدعى العام الفرنسى ، الذى أطل الشك من عينيه ، وهو يقول :

ـ مستر (هاجارد) ... دعنى أسألك أوّلاً : هل أنت مؤهل للترافع ، أمام المحاكم الفرنسية ؟!

وضع (هاجارد) ورقة رسمية أمامه ، وهو يجيب :

ـ منذ ثلاث سنوات يا سيدى ، وهذه أوراق اعتمادى .

مال المدعى العام ، وهو يسأله فى حزم :

ـ وهل تعلم أنه قد صدر حكم نهائى بشأن موكلتك بالفعل .

شدَّ (هاجارد) قامته ، وهو يقول :

ـ ينص القانون الفرنسى ، على أنه فى حالة ظهور أدلة جديدة ، يقبل بها المدعى العام ، يمكن أن تعاد المحاكمة .

تراجع المدعى العام ، وهو يسأله :

ـ وهل ظهرت تلك الأدلة المزعومة ؟!

أجابه (هاجارد) فى حزم :

ـ المسدس ، الذى يحمل بصمات موكلتى ، والذى تطابقت رصاصاته مع تلك الرصاصات ، التى استخرجت من الجثتين ، ليس مسجلاً باسم موكلتى .

لوَّح النائب العام بيده ، قائلاً :

ـ هذا ليس دليلاً ..

مال (هاجارد) نحوه ، وهو يقول :

ـ ولكنه مسجَّل باسم الشاهد الأساسى فى الجريمة ... (ريو بتشولى)

انعقد حاجبا المدعى العام ، وهو يعتدل فى مقعده ، قائلاً :

ـ كان هناك شهود آخرون .

ابتسم (هاجارد) ، وهو يجيب :

ـ كلهم رحلوا يا سيدى ... ولدى ما يثبت أنهم قد تقاضوا مبالغ كبيرة ليفعلوا ... هناك الكثير من الشكوك ، حول أنها كانت ثمنًا لشهادتهم الزور .

انعقد حاجبا المدعى العام لدقيقة أو يزيد ، وهو يفكر فى عمق ، قبل أن يهزَّ رأسه فى قوة وحزم ، قائلاً :

ـ آسف يا مستر (هاجارد) ... لم تعطنى سببًا واحدًا مقنعًا كفاية ؛ لإعادة محاكمة متهمة ، صدر الحكم بإعدامها بالفعل .

اعتدل (هاجارد) ، وهو يسأل فى حزم :

ـ أهذا قرارك النهائى ؟!

ضرب المدعى العام سطح مكتبه بقبضته ، وهو يجيب فى صرامة :

ـ ولن أتراجع عنه أبدًا .

ران الصمت عليهما لحظات ، قبل أن يميل (جراهام) ، ويستند براحتيه على سطح مكتب المدعى العام ، قائلاً :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فستصدر أمرًا بالإفراج عن (تيا) .

انتفض جسد المدعى العام ، وهو يهتف فى غضب :

ـ محال .

اعتدل (هاجارد) ، وقال بكل صرامة :

ـ لقد تلقيت أوامرى بتأخير هذا للنهاية ، وأعتقد أنه قد حان الوقت لإظهاره .

قالها ، ووضع صورة أمام المدعى العام ، الذى اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يطلق شهقة قوية ...

فالصورة جعلت كيانه كله يرتجف ...

حتى النخاع .

★ ★ ★



٤ ـ الرجـل ...

تشبَّث (جان ميشيل) بحقيبته الجلدية الصغيرة ، وهو يسرع الخطى ، مغادرًا قصره ، فى قلب (باريس) ، وهو يقول لسكرتيره فى توتر :

ـ (آلان) ... أخبر الجميع أننى سافرت ، فى رحلة عمل إلى (تايوان) ، وأنك لا تعلم موعد عودتى بالضبط .

لحق به (آلان) لاهثًا ، وهو يقول :

ـ ولكن التذكرة ، التى حجزتها لك ، ليست إلى ...

هتف به (جان) لاهثًا ، وهو يسرع إلى سيارته :

ـ لا تنطقها ... وإياك أن تخبر أحدًا بها ... قل ما أخبرتك به فقط .

توقف (آلان) لاهثًا ، وهو يغمغم :

ـ كما تأمر مسيو (ميشيل) ... كما تأمر .

دلف إلى السيارة ، وهو يهتف بسائقه :

ـ إلى المطار يا (شارل) .

انطلقت به السيارة ، مبتعدة عن القصر ، فقال وهو يطل من نافذتها ، فى خوف واضح :

ـ لا تتخذ الطرق المباشرة يا (شارل) ... اتخذ طرقًا فرعية ، لم نعتد السير فيها .

أومأ السائق برأسه إيجابًا ، وانحرف بالسيارة إلى طريق جانبى ، ومنه إلى آخر ، حتى بلغ أطراف (باريس) ، فسأله (جان) فى قلق :

ـ هل يمكن أن يقودنا هذا إلى المطار ؟!

أجابه السائق ، وهو ينحرف بالسيارة إلى ما بين أشجار غابة كثيفة :

ـ مطلقًا مسيو (ميشيل) .

اتسعت عينا الرجل فى ارتياع ، والتصق بمقعده ، وهو يهتف فى رعب :

ـ لست (شارل) !!... أين (شارل) ؟!

أجابه السائق ، وهو يوقف السيارة وسط الغابة :

ـ اطمئن ... (شارل) بخير ... فقط فاقد الوعى ، فى صالة منزله .

كاد (جان) يموت رعبًا ، وهو يسأله منهارًا :

ـ ومن أنت ؟!... هل جئت لتقتلنى ؟!

أجابه السائق ، وهو يلتفت إليه ، ويخلع قبعته شبه الرسمية :

ـ بالنسبة للجزء الأوَّل من سؤالك ، سيدهشك أن تعلم من أنا .

لم تكد استدارته تكتمل ، ويرى (جان ميشيل) وجهه فى وضوح حتى أطلق شهقة رعب قوية ، وتراجع حتى كاد يغوص فى مسند مقعده الخلفى ..

فقد كان ما يراه مذهلاً ...

بحق ...

★ ★ ★

امتلأت نفس الحسناء الصينية (تيا) ، بمزيج من الدهشة والقلق ، عندما تم إطلاق سراحها على نحو رسمى ، وتسليمها لمحاميها (لوريل هاجارد) ، الذى لا تدرى من أين اكتسب هذه الصفة ، وهى لم تلتق به من قبل قط !!...

الذى أدهشها أكثر ، أن الإفراج عنها تم بأمر مباشر من المدعى العام الفرنسى ، والذى تم الاتصال به ، من قبل مدير السجن ، فأكد الأمر ، وطلب تنفيذه على الفور ...

ولكنها لم تطرح سؤالاً واحدًا ، مما يدور فى ذهنها ، طوال إجراءات الإفراج ، حتى عبرت البوَّابة الخارجية للسجن ، واستقرَّت إلى جوار المحامى فى سيارته ، التى انطلق بها مبتعدًا ، وهو يقول :

ـ الأوامر لدى أن ننطلق إلى المطار مباشرة ، فستقلع طائرتنا إلى (سويسرا) ، خلال ساعتين على الأكثر .

قالت فى توتر :

ـ أوامر من ؟!... ومن أنت بالضبط ؟!

أجابها فى مرح :

ـ أوامر السيدة ، التى دفعت مبلغًا ضخمًا ؛ لإخراجك من هذا الفخ ... وأنا محاميها الخاص منذ سنوات .

ثم التفت إليها ، وغمز بعينه ، مضيفًا :

ـ من الواضح أنك تساوين لديها الكثير .

استرخت (تيا) فى مقعدها ، وهى تغمغم :

ـ أكثر مما تتصوَّر بكثير .

أطلق ضحكة عالية ، وسيارته تنطلق نحو المطار ...

وبأقصى سرعة ...

★ ★ ★

« (جان ميشيل) ليس فى قصره ... »

قالها أحد رجال المخابرات المصرية فى (باريس) ، فسأله مندوب المخابرات فى اهتمام :

ـ أين ذهب ؟!

كان ينتظر الجواب من زميله ، إلا أن (كاترين) أسرعت تجيب فى توتر :

ـ هرب .

التفت إليها الاثنان فى دهشة ، وسألها مندوب المخابرات فى اهتمام :

ـ ماذا تعلمين عن هذا الأمر ؟!

هزَّت رأسها نفيًا ، وهى تجيب :

ـ لست أعلم شيئًا ، ولكن إنقاذكم لى صنع ضجة كبيرة ، ولا ريب فى أن أخبارها بلغت مسامعه ، فأدرك أن الجهة التى دفعته للاتصال بى ،

تسعى لتصفية كل من شارك فى هذا ، ومن الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يبادر بالهرب .

تطلع إليها الاثنان لحظات فى صمت ، قبل أن يغمغم مندوب المخابرات :

ـ يبدو أنك أكثر ذكاءً ، مما يبدو عليك مدموازيل (موليبه) !!

ابتسمت ابتسامة شاحبة ، وهى تقول :

ـ وكيف يبدو الأذكياء فى رأيك ؟!

تبادل نظرة مع زميله ، قبل أن يجلس على المقعد المقابل لها ، ويسألها فى رفق :

ـ مادمت ذكية هكذا ، هل تعلمين لمن يمكن أن يعمل ، رجل أعمال ، فى حجم (جان ميشيل) ؟!

هزّت رأسها نفيًا ، قبل أن تجيب :

ـ لماذا تتصوَّر أنت والآخر ، أنه لدى معرفة بهذا الأمر ؟!

انعقد حاجباه ، وهو يسألها فى اهتمام :

ـ الآخر ؟!... أى آخر ؟!

أجابته فى هدوء :

ـ لستم أوَّل من يلقى علىّ هذه الأسئلة ... من قبلكم جاء رجل ...

قاطعها فى لهفة :

ـ أى رجل ؟!

أدهشتها لهفته ، فقالت فى ارتباك :

ـ رجل طـويل ، رياضى القوام ، عريض المنكبيـن ... سألنـى نفس الأسئلة ، وبنفس الترتيب ، كما لو أنه ... لو أنه ...

كان من الواضح أنها تبحث عن المصطلح المناسب ، فقال رجل المخابرات الآخر ، يكمل عبارتها :

ـ كما لو أنه واحد منا .

هتفت فى حماس :

ـ بالضبط .

تبادل رجلا المخابرات نظرة مفعمة بالانفعال ، قبل أن يسألها مندوب المخابرات فى اهتمام :

ـ هل يمكنك رسم وجهه ؟!

أجابته فى ثقة :

ـ بالطبع .

والتقطت قلمًا من أقلام الفحم ...

وبدأت ترسم ...

بمنتهى الدقة ...

* * *



انعقد حاجبا رئيس الوزراء الفرنسى فى شدة ، وهو يطالع الورقة ، التى قدّمها له المدعى العام ، قبل أن يرفع إليه عينيه مستنكرًا :

ـ استقالة ؟!... ولكن لماذا ؟!... أنت أفضل مدع عام عرفناه ، منذ زمن طويل !!

حمل صوت المدعى العام كل الأسى ، وهو يقول :

ـ لم أعد كذلك ، يا سيادة رئيس الوزراء ... لقد خالفت القانون ، وخالفت ضميرى بالدرجة الأولى .

انعقد حاجبا رئيس الوزراء أكثر ، وهو يسأله :

ـ ما معنى هذا بالضبط ؟!

خفض المدعى العام عينيه فى انكسار ، وهو يجيب :

ـ لقد أصدرت أمرًا بإطلاق سراح تلك الصينية ، التى صدر ضدها حكم بالإعدام منذ شهرين .

هتف رئيس الوزراء ، فى دهشة مستنكرة :

ـ مستحيل !!

حمل صوت المدعى العام لمحة بكاء ، وهو يقول مستنكرًا :

ـ اختطفوا زوجتى وابنتى يا سيادة رئيس الوزراء ، وقتلوا الحارسين أمام منزلى ، دون ذرة من الرحمة أو الشفقة ، وهددونى بذبحهما دون تردد ، إن لم أنفذ الأمر فورًا :

صمت رئيس الوزراء بضع لحظات ، وهو يتأمّله مشفقًا ، قبل أن يسأله فى خفوت :

ـ وهل تم إطلاق سراحهما بالفعل ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ وسافرت مع محاميها إلى (سويسرا) ، منذ أقل من ساعة .

ازدرد رئيس الوزراء لعابه فى صعوبة ، قبل أن يغمغم :

ـ وهل استعدت زوجتك وابنتك ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، فالتقط رئيس الوزره نفسًا عميقًا ، ونهض من خلف مكتبه ، قائلاً :

ـ وبالنسبة لتلك الصينية ، ليس لدى من شك ، فى أن أثرها سيتلاشى تمامًا ، بعد خروجها من (سويسرا) .

غمغم المدعى العام :

ـ بالتأكيد ... ولكن هذا لا يمنع من أننى ...

قاطعه رئيس الوزراء فى حزم :

ـ لقد تم إعدام تلك الصينية .

رفع المدعى العام رأسه إليه فى دهشة ، فتابع فى حزم أكثر :

ـ هذا هو البيان الرسمى ، الذى سيتم إبلاغه للصحف ... تم إعدامها ، ودفن جثتها وسط مقابر مجهولى الهوية .

اعترض المدعى العام :

ـ ولكن يا سيادة رئيس الوزراء ...

قاطعه مرة أخرى فى صرامة :

ـ لن نخسر أفضل مدع عام عرفته (فرنسا) ، من أجل خدعة قذرة كهذه .

هزَّ المدعى العام رأسه فى أسى ، مغمغمًا :

ـ ولكن ... ولكننى ...

مرة ثالثة ، قاطعه رئيس الوزراء :

ـ ولكنك ستعود لممارسة عملك ، وسينسى كلانا ما قيل أو حدث اليوم ، ولن نتحدث بشأنه مرة أخرى أبدًا ... هيا ... اذهب لتحظى بقدر مناسب من النوم ، فيما تبقى من الليل ، وفى الصباح الباكـر ، أريدك خلف مكتبك ، يا سيادة المدعى العام .

تبادلا نظرة صامتة ، بعد أن أنهى رئيس الوزراء حديثه ...

نظرة مفعمة بالكثير ...

الكثير جدًا ...

★ ★ ★

ألقى مدير المخابرات المصرية نظرة طويلة ، على ذلك الرسم ، الذى أرسله مندوب (باريس) ، عبر شبكة الإنترنت ، قبل أن يقول :

ـ إنه حتى لا يشبه (ن ـ ١) .

قال (حسام) فى خفوت :

ـ عندما يتنكر أدهم ، من المستحيل أن تجد فى تنكره لمحة منه .

بدا (قدرى) حاسمًا ، وهو يقول :

ـ إنه هو .

أدار المدير الرسم إليه ، قائلاً :

ـ لست أجد أى تشابه فى الواقع يا سيد (قدرى) .

أجاب (قدرى) فى سرعة :

ـ العينان .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يتابع :

ـ كل لمحة من لمحات الوجه يمكن تبديلها ، فيما عدا العينين .

غمغم (حسام) :

ـ عينا (أدهم) عسليتان ، أما هذا ، فهو أزرق العينين كما يبدو فى لونهما .

هزَّ (قدرى) رأسه فى قوة ، وهو يقول :

ـ عدسات لاصقة ملوَّنة . . . تنكر بسيط للغاية .

عاد الكل يلقى نظرة شك على الرسم ، فى حين تابع (قدرى) فى حزم :

ـ مع رجل مثلى ، مستحيل أن أخطئ عينى صديق عمرى .

أشار إليه المدير ، قائلاً :

ـ الأمر ليس بهذه البساطة يا سيد (قدرى) ؛ فالجزم بأن هذا الرجل ، الذى رسمت (كاثرين) ملامحه ، هو (ن - ١) ، يدفع الأمور للسير فى اتجاه مخالف تمامًا .

أضاف (حسام) :

ـ ولا يمكن الجزم ، دون دليل قاطع .

التقط (قدرى) ورقة كبيرة أمامه ، وهو يقول :

ـ ها هو ذا .

قلب الورقة ، ورفعها أمام الجميع ، فرأوا فيها نسخة طبق الأصل ، من الرسم الذى أرسلته (كاثرين) ، وهو يتابع :

ـ لقد نقلت الرسم ، حتى يمكننى إجراء التعديلات عليه .

أخرج من جيبه قلمًا من أقلام الفحم وممحاة ، وهو يضيف :

ـ سأبدأ بإضافة ظل خفيف إلى العينين ، حتى يبدوان بلون عينى (أدهم) ، ثم سأستبدل هذا الشعر الأشيب المجعَّد بشعر (أدهم) ، وسأزيل الأنف الكبير ، والتجاعيد على الوجه .

انتهى من عمله فى سرعة ، ثم قلب الورقة ليراها الجميع ، وهو يسأل فى انفعال :

ـ والآن ماذا ترون ؟!

ولم ينطق أحدهم بحرف واحد ...

فالرسم صار يحمل وجه (أدهم) ...

دون أدنى شك ...

★ ★ ★

ارتفع حاجبا (آلان) فى دهشة ، عندما فوجئ بمرءوسه (جان ميشيل) يعود وحده بالسيارة إلى القصر ، فأسرع إليه ، هاتفًا :

ـ ماذا حدث مسيو (ميشيل) ؟!... وأين (شارل) ؟!

تجاهل (جان) سؤاليه ، وهو يسرع إلى داخل القصر ، قائلاً بلهجة آمرة :

ـ أريد كل وثائق الحسابات البنكية ، خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة يا (آلان) .

بدت الدهشة واضحة ، فى ملامح (آلان) وصوته ، وهو يغمغم :

ـ فى هذه الساعة ؟!... ولكن موعد الطائرة ...

قاطعه (جان) بكل صرامة :

ـ نفذ الأمر .

أسرع (آلان) لتنفيذ الأمر ، والدهشة تتصاعد فى أعماقه ، فى حين توقف (جان) لحظات ، يدير عينيه فى المكان ، قبل أن يتجه إلى حجرة المكتب ، حيث لحق به (آلان) ، ووضع أمامه ملفًا كبيرًا ، وهو يغمغم :

ـ لو أخبرتنى عم تبحث ، يمكننى أن أتعاون معك مسيو (ميشيل) .

أجابه (جان) فى حزم :

ـ أريد كل التحويلات المالية ، إلى كل حساباتنا ، خلال الأشهر الثلاثة الماضية .

قال (آلان) ، وهو يفرز الأوراق فى سرعة :

ـ هذا ليس صعبًا ، فلقد جمعت كل التحويلات الواردة ، فى غلاف داخلى واحد .. ها هو ذا .

فرز (جان) الأوراق فى سرعة ، وتوقف عند تحويل ، بمبلغ أربعمائة ألف دولار ، وهو يغمغم :

ـ (تورجنيف للإنشاءات) ... هذه هى .

بدا (آلان) حائرًا ، وهو يقول :

ـ إنها أكبر تحويلات تلقيناها هذا العام ، على الرغم من أنه ليس لدينا أى ملف تعاملات ، مع (تورجنيف) للإنشاءات هذه .

تراجع (جان) فى مقعده ، مغمغمًا :

ـ هذا النوع من التعاملات ، لا تسجله الملفات .

تفجَّرت الدهشة أكثر ، فى وجه (آلان) ، وهمَّ بقول شىء ما ، عندما دخلت خادمة ، تقول فى ارتباك :

ـ معذرة مسيو (ميشيل) ، ولكن هناك رجلان ، يصرَّان على مقابلتك فورًا .

نظر (آلان) فى ساعته ، فى دهشة مستنكرة ، وهو يهتف :

ـ فى هذه الساعة ؟!

أما (جان) ، فقد بدا شديد الهدوء ، وهو يقول للخادمة :

ـ سألتقى بهما .

قال (آلان) محذرًا :

ـ ليست لديهم أية مواعيد سابقة ، و ...

قاطع بإشارة حاسمة من يده ، وهو يقول :

ـ سألتقى بهما .

مضت لحظات قليلة ، قبل أن يدخل الرجلان ، وسأل أحدهما فى صرامة :

ـ مسيو (جان ميشيل) ؟!

أشار (جان) بيده ، مجيبًا :

ـ هو أنا .

لم يكد ينطقها ، حتى سحب الرجلان مسدسيهما ، وأطلق (آلان) صرخة رعب قوية ...

ودوت الرصاصات ...

بمنتهى العنف .

* * *

٥ ـ الشيطان الابن . . .

« هربت ؟! »

هتف (لوجراند) بالكلمة ، فى انزعاج شديد ، قبل أن يطل الغضب من ملامحه وصوته ، وهو يستطرد :

ـ وكيف هذا ؟!... امرأة صدر ضدها الحكم النهائى بالإعدام ، ومحتجزة فى أكثر سجون (فرنسا) مناعة ، فكيف تفر منه هكذا ، بكل بساطة ؟!

أجابه (ريو) فى خفوت :

ـ بأمر مباشر من المدعى العام .

ارتفع حاجبا (لوجراند) بكل الدهشـة ، ثم لم يلبث أن خفضهما ، ويده تداعب كلبه الصغير فى عصبية ، شعر بها الكلب ، فـراح يصدر أصواتًا عصبية بدوره ، وسيده يغمغم ، وكأنه يحادث نفسه :

ـ أمر مباشر من المدعى العام !!... اثنان فقط كان باستطاعتهما تنفيذ هذا ... أبى ... وهى .

تساءل (ريو) فى حيرة :

ـ من هى ؟!

لم يحصل على جواب من (لوجراند) ، الذى التفت إليـه ، مواصلاً غمغمته :

ـ هنا يعنى أنها عادت للعمل .

كرر (ريو) سؤاله ، فى شىء من العصبية ، اختلط بحيرته وفضوله :

ـ من هى أيها الزعيم ؟!

استقبل (لوجراند) سؤاله بآخر ، أطلقه فى صرامة شديدة :

ـ ماذا عن (جان ميشيل) ؟!

لم يرق هذا لـ (ريو) ، ولكنه لوَّح بيده ، مجيبًا :

ـ أرسلت الرجال لتصفيته .

سأله مزمجرًا :

ـ ولماذا لم تذهب بنفسك ؟!

انحنى (ريو) ، على نحو مسرحى ، وهو يجيب :

ـ (ريو) لا يلوث يديه بالدم أبدًا .

اعتدل (لوجراند) ، وهو يقول :

ـ ولكن الآخرين يفعلون .

صمت لحظات مفكرًا ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ سيدور الصراع الآن حول ذلك الطفل .

تساءل (ريو) :

ـ (آدم) ؟!

التفت إليه (لوجراند) ، قائلاً بلهجة آمرة صارمة :

ـ قم بنقله إلى وكر (مارسيليا) .

غمغم (ريو) :

ـ وماذا عن منزل (كاليه) ؟!

صاح فيه فى غضب :

ـ نفذ الأمر دون مناقشة .

شعر (ريو) بالكثير من التمرد والغضب فى أعماقه ، إلا أنه كظم كل هذا ، وهو يغمغم :

ـ كما تأمر يا زعيم .

قال (لوجراند) فى صرامة :

ـ وتأكد من رجالك ، عما انتهى إليه أمر (جان ميشيل) .

قال (ريو) ، فى شىء من الزهو :

ـ الرجلان اللذان أرسلتهما ، لم يفشلا فى مهمة واحدة .

زمجر (لوجراند) ، مكررًا بكل صرامة :

ـ تأكَّد .

وهنا فقط ، تساءل (ريـو) فى أعماقه : هل نفذ الرجلان المهمة بنجاح ؟!...

هل ؟!..



لم يكن (آلان) قد توقف عن الارتجاف بعد ، عندما وصل رجـال الشرطة ، إلى قصر (جان ميشيل) ، واتجه إليه أحدهم يسأله :

ـ أنت (آلان) ، سكرتير مسيو (ميشيل) ... أليس كذلك ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، ولسانه يعجز عن النطق ، فسأله الشرطى :

ـ أخبرونا أن دوى رصاصات انطلق هنا ، فى الثانية صباحًا ، فماذا حدث ؟!

رفع (آلان) يده ، وهو يجيب مرتجفًا :

ـ رجلان حاولا اغتيال مسيو (ميشيل) .

ثم هزَّ رأسه فى قوة ، مستدركًا فى انفعال :

ـ أعنى ذلك الشخص ، الذى كان ينتحل هيئة مسيو (ميشيل) .

انعقد حاجبا الشرطى ، وهو يسأله :

ـ ماذا تعنى بهذا القول ؟!

حمل صوته وجسده كل انفعالاته ، وهو يقول :

ـ ذلك الشخص أتى إلى هنا ، فى هيئة وصوت مسيو (ميشيل) ، وطلب الاطلاع على بعض الأوراق المالية .

سأله الشرطى فى حذر :

ـ ولقد تعرَّفته ، باعتباره مسيو (ميشيل) ؟!

هتف :

ـ بالفعل ... لم أشك لحظة فى أنه هو ... لقد أدهشتنى عودته وحده بالسيارة ، بدون السائق (ميشيل) ، بعد أن كان فى طريقه إلى المطار ، ولكن تصرفاته لم تكن طبيعية ، فى الآونة الأخيرة ، ولهذا لم أعترض ، على الرغم من دهشتى .

تساءل الشرطى ، فى حذر أكبر :

ـ ومتى أدركت أنه ليس مخدومك ؟!

لوّح بيديه فى الهواء ، هاتفًا :

ـ عندما ظهر الرجلان ، اللذان أطلقا النار .

قال شرطى آخر من بعيد :

ـ هناك بالفعل آثار طلقات نار ، فى المكتب والمقعد والمكتبة ، وست من فوارغ الرصاصات ، من عيار تسعة ملليمترات ، عند باب الحجرة .

استمع إليه الشرطى الأوّل ، وهزّ رأسه متفهمًا ، قبل أن يسأل آلان :

ـ ماذا حدث عندئذ ؟!

حمل صوت (آلان) كل الانفعال ، وراح يلهث ، وكأنه يسترجع ذكرى تلك اللحظات العصيبة ، وهو يجيب :

ـ كل شىء حدث فى سرعة مذهلة ، فما أن أخرج الرجلان مسدسيهما ، حتى تحرّك ذلك ، الذى كان ينتحل هيئة مسيو (ميشيل) ، فى سرعة ،

لم أر فى حياتى من يتحرّك بمثلها ، فى عالم الواقع ... دفع مقعدى ، وأسقطنى أرضًا ، ثم قلب المكتب أمامه كما تريانه ، واستقبل عليه كل الرصاصات بالدفعة الأولى ، وبعدها دفع المكتب أمامه ، ووثب من خلفه ، قبل أن يطلق الرجلان دفعتهما الثانية هناك ...

أشار بسبّابته إلى السقف ، فرفع رجال الشرطة عيونهم إلى حيث يشير ، وبدت عليهم الدهشة ، مع رؤية آثار الرصاصات هناك ، وهتف الشرطى :

ـ ولماذا يطلقون رصاصاتهم نحو السقف ؟

هتف (آلان) فى انفعال :

ـ لم يكن هذا بإرادتهم ، ولكن ذلك الشيطان كال لهم ركلات ولكمات ، فى إيقاع بالغ السرعة والقوة ، وفى ثانيتين أو ثلاث ، كان قد حسم القتال لصالحه .

غمغم الشرطى الآخر فى دهشة :

ـ ودون أن يحمل سلاحًا ؟!

هزّ (آلان) رأسه فى قوة ، قبل أن يقول :

ـ مسيو (ميشيل) كان من المستحيل أن يفعل ربع هذا ... ثم إنه ، عندما أجبر الرجلين على النهوض ، بعد أن جردهما من أسلحتهما ، ألقى عليهما سؤاله ، بصوت يخالف صوت مسيو (ميشيل) تمامًا .

تساءل الشرطى فى اهتمام :

ـ وما الذى سألهما عنه ؟!

هزَّ (آلان) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ لست أدرى ... لم يسألهما بالفرنسية ، وإنما بالروسية على الأرجح .

تساءل الشرطى الآخر :

ـ وكيف عرفت أنها الروسية ؟!

هزَّ كتفيه ، مجيبًا :

ـ كانت لى فى صباى جارة روسية ، واللهجة بدت لى مشابهة .

تبادل الشرطيان نظرة صامتة ، قبل أن يقول الأوَّل :

ـ بقى سؤال واحد مسيو (آلان) .

ثم مال نحوه بشدة مستطردًا فى صرامة :

ـ أين ذهب الرجلان ؟!

رفع (آلان) عينيه إليه ، دون أن يحر جوابًا ...

أى جواب ...

★ ★ ★

« أتظن أنه بالفعل سيادة العميد ؟!.. »

تطلع مندوب المخابرات طويلاً ، إلى الرسم الذى أرسله (قدرى) ، قبل أن يغمغم :

ـ الرسم لسيادة العميد ، ولكن ما رسمته (كاثرين) يختلف .

تساءل رجل المخابرات الآخر :

ـ لماذا تصر (القاهرة) على أنه سيادة العميد إذن ؟!

صمت مندوب المخابرات لحظة ، قبل أن يغمغم ثانية :

ـ لديهم أسبابهم حتمًا .

مع آخر كلماته ، طرق أحد حراس السفارة الباب ، ثم فتحه قائلاً :

ـ معذرة يا سيادة المقدم ، ولكن هناك رجلان ، يصران على مقابلتك فورًا .

هتف رجل المخابرات الآخر فى دهشة :

ـ فى الثالثة والنصف صباحًا ؟!

قال الحارس :

ـ يقولان : إنه تم إرسالهما إلى هنا ، من قبل صديق .

تبادل رجلا المخابرات نظرة مفعمة بالانفعال ، قبل أن ينهض مندوب المخابرات ، قائلاً فى حزم :

ـ سأستقبلهما .

« مسيو (جان ميشيل) ؟!... »

هتف بها مندوب المخابرات فى دهشة ، وهو يلتقى (جان ميشيل) وسائقه (شارل) ، فى صالة استقبال السفارة ، فارتفع حاجبا (جان) ، وهو يتساءل فى توتر :

ـ سيدى ... هل تعرفنى ؟!

صافحهما مندوب المخابرات ، وجلس أمامهما ، وهو يقول فى حذر :

ـ أعرفك ، ولكننى لم أتوقع رؤيتك هنا مسيو (ميشيل) .. ولا رؤية ..

حملت كلماته الأخيرة لهجة التساؤل ، فغمغم (شارل) فى توتر :

ـ أنا (شارل) ... سائق مسيو (ميشيل) .

أومأ له مندوب المخابرات برأسه ، قبل أن يسأل (جان) فى اهتمام :

ـ من ذلك الصديق ، الذى قلت : إنه أرسلكما إلى هنا ؟!

أجاب (جان) فى انفعال :

ـ لست أدرى ماذا يدَّعى ... لقد انتحل هيئة (شارل) فى البداية ، وعندما أدركت أنه ليس (شارل) ، التفت إلىَّ ، فكاد قلبى يتوقف ، من فرط الذهول .

سأله مندوب المخابرات ، فى اهتمام أكثر :

ـ ولماذا ؟!

ازدرد (جان) لعابه فى صعوبة ، وهو يجيب بكل الانفعال :

ـ لقد كان أنا ... نسخة طبق الأصل منى . . . الصوت والهيئة ... كل شىء ... كل شىء .

شعر مندوب المخابرات بالانفعال يسرى فى جسده ، وهو يغمغم :

ـ نسخة طبق الأصل منك ؟!

تابع (جان) بنفس الانفعال :

ـ أخبرنى أنه يعلم أننى مستهدف للقتل ، وإذا أردت العيش ، علىَّ أن ألجأ إليكم .

غمغم (شارل) :

ـ وطلب هذا منى أيضًا .

تطلع إليهما مندوب المخابرات بضع لحظات فى صمت ، ثم نهض قائلاً فى حزم :

ـ ستجدان منا حسن الضيافة هنا ، ولكننا سنحتاج إلى إلقاء بضعة أسئلة عليكما أوَّلاً .

ثم شد قامته ، مضيفًا فى حزم أكبر :

ـ وعلىَّ الاتصال بـ (القاهرة) ... فورًا .

قالها ، وفى أعماقه يسرى الانفعال ...

كل الانفعال ...

★ ★ ★



امتلأت نفس رجل الشرطة الفرنسى بكل الدهشة ، وهو يحدق فى الرجلين ، المقيدين أرضًا ، إلى جوار سيارة الشرطة ، أمام قصر (جان ميشيل) ، فى حين هتف (آلان) بكل انفعاله ، فور رؤيتهما :

ـ إنهما هما ... هما اللذان أطلقا النار علينا .

غمغم رجل الشرطة الآخر فى دهشة مبهورة :

ـ هل أتى بهما ، أثناء وجودنا بالداخل ؟!

أضاف الشرطى الأوَّل ، الأعلى رتبة :

ـ وبكل الجرأة .

ثم مال نحو الرجلين المقيدين ، وسأل فى صرامة :

ـ ما الذى سألكما عنه ذلك الرجل ؟!

قال أحدهما فى غيظ :

ـ وهل تتصوَّر أننا سنخبرك ؟!

صمت لحظة ، قبل أن يسأل :

ـ ألم تخبراه ؟!

هتف الثانى :

ـ الأمر يختلف .

غمغم رجل الشرطة :

ـ حقًّا ؟!

ثم مال نحوهما أكثر ، قائلاً بأقصى قدر أمكنه من الصرامة :

ـ فى هذه الحالة ، سنصحبكما معنا إلى قسم الشرطة ، وهناك سنجبركما على رواية قصة حياتيكما ، منذ تم فطامكما ، وحتى هذه اللحظة ، ودون إغفال تفصيلة واحدة .

تبادل الرجلان نظرة مستهترة ، قبل أن يغمغم أحدهما :

ـ سنرى .

نهض الشرطى ، وهو يعقد حاجبيه فى شدة ، مكررًا كلمتهما :

ـ نعم ... سنرى .

السؤال الحقيقى كان : هل سيدرك حقيقة ما سيراه ، أم ... ماذا ؟! .. ماذا بحق ؟!

★ ★ ★

« (تورجنيف) للإنشاءات ... »

نطق (حسام) الاسم ، فبدا الاهتمام على مدير المخابرات ، وهو يسأله :

ـ ماذا لدينا عنها ؟!

أجابه ، وهو يضع تقريرًا أمامه :

ـ إنها واحدة من الشركات ، التى يمتلكها (أيجور زورين تورجنيف) ، الذى تعرفه ملفاتنا باسم ...

قاطعه المدير مكملاً :

ـ مستر (X) [1] .

أجاب (حسام) فى سرعة :

ـ بالضبط .

تساءل المدير فى اهتمام :

ـ وهل ظل محتفظًا بملكية لشركاته ، على الرغم من سقوطه ؟!

أومأ (حسام) برأسه ، مجيبًا :

ـ إنها شركات مساهمة ، والقوانين الدولية لا تبيح مصادرتها ، مع سقوط أكبر حملة أسهمها ، حتى ولو كان هذا بسبب جريمة جنائية .

تساءل المدير :

ـ ومن يديرها فى الوقت الحالى ؟!

أشار (حسام) إلى سطر فى التقرير ، مجيبًا :

ـ ابنه الوحيد ... (ليونيد تورجنيف) .

تساءل المدير :

ـ وماذا لدينا عنه أيضًا ؟!

« لا شىء ... »

(١) راجع قصة (الوداع) المغامرة رقم (١٦٠) ، من سلسلة رجل المستحيل .

قالها (لوجراند) فى ثقة ، قبل أن يضيف عبر الهاتف :

ـ لا يمكنك أن تتصوَّر كم أنفقت ، حتى يصبح ملفى ناصع البياض ، كما هو الآن ، فبخلاف رقم الهوية ، وحساب الأسهم فى البنك ، لا توجد أية معلومات أخرى ، يمكن أن تقود إلىَّ .

ثم لحظات ، ليستمع إلى محدثه ، قبل أن يضيف :

ـ حساباتى المالية الأخرى باسم آخر ، ولا توجد رخصة قيادة باسمى .. ولا رقم هاتف شخصى ، أو عنوان سكنى ... كل شىء تم إعداده بمنتهى الدقة ... اطمئن يا أبى ... سأثأر لك من الشخص ، الذى فعل بك هذا ، ولن يظفروا بى قط ... اطمئن .

أنهى المحادثة ، وهو يشعر بالارتياح ، وداعب كلبه الصغير ، وهو يحدِّثه فى مودة ، قائلاً :

ـ كل شىء يسير على ما يرام يا (وسكى) ... على الرغم من كل المعوقات ، سيربح (لوجراند) فى النهاية .

لم يكد يتم عبارته ، حتى ارتفع رنين هاتفه الخاص ، وحملت شاشته اسم (ريو) ، فانعقد حاجباه وهو يقول :

ـ ماذا يريد (ريو) الآن ؟!

ضغط زر الاتصال ، وهو يرفع الهاتف إلى أذنه ، متسائلاً :

ـ ما الجديد يا (ريو) ؟!

جاوبه صوت صارم ، لا يمت لصوت (ريو) بأية صلة ، يقول :

ـ إذن فأنت من يسمى نفسه (لوجراند) ... كنت أرغب فى سماع صوتك ، الذى لا يشبه صوت والدك مستر (X) .

سرت فى جسده قشعريرة غاضبة ، جعلت أصابعه تقبض على الهاتف فى قوة ، وهو يقول فى عصبية :

ـ مـن أنت ؟!... وكيف حصلت على هـذا الرقـم ؟!... وماذا فعلت بـ (ريو) ؟!

جاوبته ضحكة ساخرة ، قبل أن ينهى المتحدث الاتصال ، فصاح (لوجراند) فى عصبية شديدة :

ـ من أنت ؟!

قفز كلبه الصغير ، من فوق ساقيه مذعورًا ، ولم يبال هو بذلك ، وهو يقول لنفسه فى عصبية :

ـ إنه هو ... ولكن كيف ؟!... كيف ؟!

ارتفع رنين هاتفه مرة أخرى ، فانتفض فى قوة ، وأجاب فى سرعة :

ـ من هذه المرة ؟!

اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يستمع إلى محدثه ، الذى كان ينقل إليه أخبارًا رهيبة ...

رهيبة للغاية .

★ ★ ★

٦ ـ آدم ...

رفع (قدرى) عينيه الدامعتين عن منظاره المكبر ، وهو يغمغم فى مرارة :

ـ كيف ؟!... كيف يمكن لمثلى أن يخطئ فى هذا .

فوجئ بصوت حازم من خلفه ، يقول :

ـ حسبما أعرف ، فأنت لم تخطئ من قبل قط ، يا سيد (قدرى) .

التفت إليه (قدرى) ، وهو يمسح دموعه ، مغمغمًا :

ـ سيد (حسام) ... لم أتوقع رؤيتك الآن .

أجابه (حسام) ، وهو يتجه إليه :

ـ جئت للاطمئنان عليك ، فقد بدوت شديد الحزن ، عندما غادرت الاجتماع .

أشار (قدرى) إلى الورقة ، التى كان يفحصها ، وهو يغمغم :

ـ والمفترض أن يتزايد حزنى الآن ، بعد أن أدركت الخطأ الذى ارتكبته بكل حماقة .

تطلع (حسام) إلى الورقة ، متسائلاً :

ـ أهى تلك المذكرة ، التى أوصلها لك ذلك السائق الفرنسى ، مع سلة الطعام ؟!

أومأ (قدرى) برأسه إيجابًا فى أسى ، وهو يقول فى مرارة :

ـ رأيت فيها خط (أدهم) ، وخدعتنى فرحتى ؛ لتصورى أنه و(منى) على قيد الحياة ، ولم أنتبه إلا اليوم فقط ، إلى أنه تزوير لخط (أدهم) ... وتزوير لا يرقى حتى إلى ما كنت أفعله فى شبابى .

صمت (حسام) بضع لحظات ، قبل أن يربت عليه ، قائلاً :

ـ كان هذا رد فعل طبيعيًا يا رجل .

قال (قدرى) فى شىء من العصبية :

ـ أن أخطئ تحديد خط صديق عمرى .

ابتسم (حسام) مشفقًا ، وربَّت عليه ، قائلاً :

ـ بل أن يخدعك انفعالك ، فتختفى خبراتك خلف مشاعرك ... لقد كنت تتمنى أن يكون سيادة العميد والرائد (منى) على قيد الحياة ، ولهذا لم تحسن الحكم على الأمور .

ثم مال نحوه ، مضيفًا فى حنان ، يبدو عجيبًا ، عندما يصدر عن رجل مخابرات محترف :

ـ هل تذكر ما تلقيناه جميعًا ، فى تدريباتنا الأوَّلية ... الانفعال ، أيًا كان نوعه ، لا يقود إلا إلى الخطأ .

أومأ (قدرى) برأسه ، وهو يغمغم :

ـ أذكر هذا جيدًا .

ثم التفت إليه بعينين حزينتين ، مستطردًا :

ـ ولهذا أقول إننى أخطأت .

تنهَّد (حسام) فى عمق ، ثم اعتدل ، متسائلاً فى حزم ، وكأنما يسعى للخروج من حالة الحزن لدى (قدرى) :

ـ هل تثق فعلاً ، فى أن سيادة العميد ، هو من يقاتل هناك ، فى (باريس) ؟!

جفَّف (قدرى) دموعه ، وهو يقول :

ـ هل تعرف شخصًا آخر ، يمكنه أن يفعل كل هذا ؟!

ابتسم (حسام) ابتسامة خفيفة ، وهو يغمغم :

ـ ليس على حد علمى .

ثم استطرد فى اهتمام :

ـ ولكن لماذا يقاتل على هذا النحو ؟!... ما الذى دفعه للظهور مرة أخرى ، بعد كل هذا الاختفاء .

صمت (قدرى) لحظات ، قبل أن يسأل بدوره :

ـ لقد كشفتم أن المرأة ، التى اصطحبت (آدم) ابنه ، من تلك المدرسة الداخلية ، التى وضعته فيها (سونيا جراهام) ، لم تكن (منى) ... أليس كذلك ؟!

أجابه (حسام) فى اهتمام :

ـ بلى .

استدار إليه (قدرى) ، قائلاً :

ـ فى هذه الحالة ، يكون لدى (أدهم) أقوى دافع للقتال ... ابنـه ... (آدم) ...

وانعقد حاجبا (حسام) فى شدة ...

فلقد كان من الواضح أن قدرى على حق ...

تمامًا ...

★ ★ ★

« لسنا ندرى كيف اقتحم المكان أيها الزعيم ... »

قالها أحد رجال (لوجراند) له ، عبر هاتف خاص ، قبل أن يضيف :

ـ لقد عثرنا على الحراس الخمسة فاقدى الوعى ، وكان باب مكتبك الخاص محطمًا ، وبوسيلة ما ، فتـح ذلك المقتحم خزانتك السـرية ، واستولى على كل ما بها من ملفات .

سرى غضب هائل ، فى كيان (لوجراند) ، وهو يهتف :

ـ فعلها وخرج ، دون أن يتم كشفه ؟!

أجابه الرجل :

ـ من الواضح أنه محترف للغاية أيها الزعيم .

صاح فيه (لوجراند) :

ـ هل تدرك مدى أهمية وخطورة تلك الملفات ، التى استولى عليها ؟!... هل يمكنك أن تستوعب ، ما يمكن أن يفعله بها ؟!

غمغم الرجل فى توتر :

ـ ولكننى لست من يحرس الشركة أيها الزعيم .

صاح فيه (لوجراند) :

ـ وماذا عما صوَّرته كاميرات المراقبة ؟!... أريد كل ما صورته فورًا .

تنحنح الرجل فى توتر ، وهو يجيب :

ـ لم تصور شيئًا أيها الزعيم ... ذلك الدخيل عطلها كلها ، قبل أن يقتحم المكان .

تصاعد غضب (لوجراند) إلى الذروة ، وهو يردد :

ـ إنه هو ... أقسم أنه هو .

سأله الرجل عبر الهاتف ، فى حيرة :

ـ من تعنى أيها الزعيم ؟!

صاح به :

ـ ليس هـذا من شـأنك ... هيا ... اذهـب ، وأطلـق عيونك فـى كل مكان ... أريد أن أعرف من اقتحم مكتبى ، وسرق كل ملفاتى السرية ... وأريد هذا ، قبل أن تفتح أقسام الشرطة أبوابها .

صمت الرجل لحظات ، قبل أن يقول فى تردد :

ـ أيها الزعيم ... لو أن تلك الملفات ، التى حصل عليها ذلك المقتحم ، أيًا كان ، بكل هذه الأهمية والخطورة ، اللذين يوحى بهما انفعالك ، فأفضل ما تفعله الآن ، هو أن ترحل من هنا ... وبأقصى سرعة .

صرخ فيه (لوجراند) :

ـ أبدًا .

وأنهى المحادثة فى عنف ، وهو يلهث من فرط الانفعال ...

ويلهث ...

ويلهث ...

بلا توقف ...

★ ★ ★

ساد الظلام تلك الحجرة الصغيرة ، إلا من الضوء المنبعث من شاشة كمبيوتر محمول صغير ، والتى يجلس أمامها ذلك الرجل ، الذى تعمل أصابعه فى سرعة وبراعة ، على لوحة الأزرار ، وقد أوصل هاتفه بالكمبيوتر ؛ لينقل إليه بعض البرامج الخاصة جدًا ...

وعلى الشاشة أمامه ظهرت خريطة ، مع رقم هاتف (ريو بتشولى) فى ركنها ...

وفى سرعة ، راح الكمبيوتر يحدد موقع ذلك الرقم على الخريطة ...

استغرق الأمر بضع دقائق ، قبل أن ترتسم دائرة خضراء على الخريطة ، محددة موقع ذلك الهاتف ، فغمغم الرجل فى خفوت :

ـ (مارسيليا) ... رصيف الميناء السادس .

فصل الهاتف عن الكمبيوتر ، ثم استخدم برنامجًا خاصًا غير قانونى على الهاتف ، زوّده برقم هاتف (لوجراند) ، الذى حصل عليه ، من اختراق هاتف (ريو) ثم طلب عبره هاتف هذا الأخير ، الذى لم يكد يرى اسم (لوجراند) على شاشة هاتفه ، حتى ضغط زر الاتصال ، وهو يقول فى حماس :

ـ مرحبًا أيها الزعيم ... لقد وصلت إلى (مارسيليا) بالطفل .

تحدَّث إليه الرجل ، فى صوت يشبه صوت (لوجراند) بدقة :

ـ هل وضعته حيث أخبرتك ؟!

أجابه بنفس الحماس :

ـ بالطبع أيها الزعيم ، وستعنى به (مارسيل) جيدًا ... أنت تعرفها .

غمغم الرجل :

ـ بالتأكيد .

ثم أنهى الاتصال ، مغمغمًا :

ـ (مارسيليا) ... رصيف الميناء السادس ... (مارسيل) ... هذا يكفينى .

أعاد وصل الهاتف بالكمبيوتر ، وراحت أصابعه تجرى على لوحة الأزرار فى سرعة ، قبل أن يتمتم :

ـ أهم خطوة فى المعركة ... قطع خطوط اتصال العدو .

فصل الهاتف عن الكمبيوتر ، ودسه فى جيبه ، ثم غادر تلك الشقة الصغيرة ...

لقد بدأت الجولة الأخيرة من المعركة ...

معركة (آدم) ...

★ ★ ★

كانت الشمس قد أشرقت بالكاد ، عندما تلقى مندوب المخابرات المصرية ، فى سفارة (مصر) فى (باريس) ، ذلك الصندوق الصغير ، الذى سلمه ولد صغير لحارس السفارة مؤكدًا أنه من صديق ، والذى تم فحصه بجهاز للأشعة ، أثبت أنه يحوى فقط الكثير من الملفات ...

وعلى الرغم من تأكيدات أمن السفارة ، فتح مندوب المخابرات الصندوق ، فى حذر قلق ، ثم تطلّع إلى الملفات داخله ، مغمغمًا :

ـ تحمل كلها شعار (تورجنيف للإنشاءات) .

قال رجل المخابرات الآخر فى اهتمام :

ـ تُرى لماذا تم إرسالها إلينا ؟!

غمغم مندوب المخابرات ، وهو يلتقط أحد الملفات :

ـ السؤال الصحيح يبدو لى : من أرسلها إلينا ؟!

ارتفع حاجباه فى دهشة ، وهو يقرأ ما حواه الملف ، قبل أن يهتف :

ـ يا إلهى ... هذه الملفات تحوى أمورًا بالغة الخطورة .

سأله رجل المخابرات ، فى اهتمام شديد :

ـ من أية ناحية ؟!

أجابه فى حماس ، وهو يطالع باقى الملف :

ـ ما يكفى لتدمير (تورجنيف للإنشاءات) ، وصاحبها تمامًا .

عقد رجل المخابرات الآخر حاجبيه ، وهو يقول :

ـ هذا يعيدنا إلى السؤال الأهم : من أرسلها إلينا ؟!

ابتسم مندوب المخابرات ، وهو يلتفت إليه :

ـ من برأيك ؟!

لم يحصل على جواب لسؤاله ، ولكن الفكرة نفسها سرت فى كيانهما ، فى آن واحد ...

إنه هو ...

★ ★ ★

كل شىء كان يسير على ما يرام ...

خدعة القرن كانت مكتملة ...



ومتقنة ...

وناجحة ...

الكل قنع بأن (أدهم صبرى) مازال على قيد الحياة ، وأنه يقيم فى مكان ما هنا ... فى (باريس) ...

وكان هذا كفيلاً بإيقاف عملية البحث عنه رسميًا ، من قبل المخابرات المصرية ...

وبدء رحلة بحثه هو ..

منذ دمَّر (أدهم) والده ، وهو يسعى للانتقام منه بكل وسيلة ...

واشتراك المخابرات المصرية ، فى رحلة البحث عنه ، كان كفيلاً بإفساد كل الأمور ...

ولهذا كان لابد من ترتيب تلك الخدعة ...

خدعة القرن ...

« كل شىء على ما يرام أيها الزعيم ... »

قالها (بلوموندو) ، أشهر أصحاب صالونات التجميل فى (باريس) ، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ، مستطردًا :

ـ الآن أنت نسخة طبق الأصل ، مـن تلك الصـورة ، التى أعطيتنى إياها ..

وضع الصورة إلى جوار وجه (لوجراند) الجديد ، فبدا نسخة طبق الأصل منها ، مما جعله يغمغم :

ـ أحسنت يا (بلوموندو) ... أحسنت .

نهض يتطلع إلى هيئته الجديدة ، فى المرآة التى أحضرها (بلوموندو) معه ، قبل أن يقول :

ـ أنت تستحق حقًّا كل يورو ، مما اتفقنا عليه .

فرك (بلوموندو) كفيه ، وهو يقول :

ـ وعد الحر دين عليه (لوجراند) .

ابتسم (لوجراند) ابتسامة باهتة ، وهو يغمغم :

ـ بالتأكيد .

ثم أشار بيده ، مستطردًا :

ـ انتظرنى هنا حتى أعود ، وستحصل على ضعف ما اتفقنا عليه .

تهللت أسارير (بلوموندو) ، وهو يهتف :

ـ رائع (لوجراند) ... رائع .

انتقل (لوجراند) إلى مكتبه ، وحاول عبثًا الاتصال بـ (ريو) للمرة الثلاثين ، قبل أن يغمغم فى غضب :

ـ ماذا أصاب هاتف ذلك المعتوه ؟!

ألقى الهاتف جانبًا ، وهو يضيف :

ـ و(مارسيل) لا تجيب أرقامًا تجهلها .

اتجه نحو مكتبه ، وأخرج منه جواز سفر بريطانيًا ، ألقى نظرة على الصورة داخله ، والتى بدت بهيئته الحالية ، ثم أغلقه ، ودسَّه فى جيبه ، مغمغمًا :

ـ تمامًا كما علمتنى يا أبى ... خطة احتياطية لكل خطوة .

ثم أخرج قنبلة زمنية كبيرة ، أوصلها ببطارية صغيرة ، وهو يستطرد :

ـ وألا أترك أى أثر خلفى .

اعتدل و شد قامته ، والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ معذرة أيها السادة ... كل منكم لديه معرفة بأمور ، قادرة على كشف ما أسعى لأخفيه .

ضبط توقيت القنبلة ، ثم اتجه إلى جزء من الجدار ، ضغط زرًا خفيًا إلى جواره ، فدار ذلك الجزء حول نفسه ، كاشفًا ممرًا طويلاً ، دلف إليه ، وهو يتمتم :

ـ أنفاق الثعالب ... من الواضح أنك قد علمتنى الكثير يا أبى .

أغلق ذلك الجزء من الجدار خلفه ، فى حين راحت لوحة التوقيت فى القنبلة الزمنية تتخذ عدًا عكسيًا سريعًا ، و ...

ودوى الانفجار ...

أعنف انفجار ...

★ ★ ★

« لا يمكننى الاتصال بـ (لوجراند) !!!... »

هتف بها (ريو) فى غيظ ، قبل أن يعيد هاتفه إلى جيبه ، مستطردًا فى حدة :

ـ كيف يمكن أن يغلق هاتفه ، فى موقف كهذا ؟!

أجابته (مارسيل) ، وهى تداعب رأس (آدم) :

ـ كف عن عصبيتك هذه ... إنك تخيف الصغير .

التفت (ريو) إلى (آدم) بنظرة صارمة ، وهو يقول فى شراسة :

ـ ربما كان من الأفضل له أن يخاف .

ضمت (مارسيل) (آدم) إليها ، وهى تقول فى صرامة :

ـ هل نسيت أنه ابن (لوجراند) ؟!

هتف (ريو) فى غضب :

ـ هل صدقت أنت أيضًا هذه الخدعة ؟!

صاحت به :

ـ احترس ... الصبى يفهم الفرنسية .

زمجر ، قائلاً :

ـ إنه لا يجيد سوى العبرية .

قالت فى غضب :



ـ من الواضح أنه كان يدرس الفرنسية ، كلغة ثانية .

رمق (آدم) بنظرة ، جعلت الصغير ينكمش بين ذراعى (مارسيل) ، وهو يقول فى خوف :

ـ هذا الرجل شرير .

ضمته إليها ، قائلة :

ـ نعم ... إنه كذلك .

رمقها (ريو) بنظرة مخيفة ، وهو يقول :

ـ (مارسيل) ... أريد التحدث معك ... وحدنا .

تبعته إلى حجرة مجاورة ، لم يكد يغلقها خلفهما ، حتى التفت إليها ، قائلاً بكل شراسة وصرامة :

ـ (مارسيل) ... إياك أن تمنعك عواطفك ، من طاعة أوامر (لوجراند) ... أنت تعلمين ما يمكن أن يصيبك لو فعلت .

ارتجفت ، قائلة :

ـ لن أفعل يا (ريو) ... ثق أننى لن أفعل .

مال نحوها ، حتى ضربت أنفاسه وجهها ، وهو يقول ، فى شراسة أكبر :

ـ هناك من يمكن أن يأتى ، بحثًا عن ذلك الصغير ... هل تذكرين أوامر (لوجراند) ، لو حدث هذا ؟!

ارتجفت ، مجيبة :

ـ أعلم يا (ريو) ... أعلم ... ولكنه مجرَّد طفل صغير ، و ...

قاطعها فى ثورة :

ـ حذرتك من عدم طاعة أوامر (لوجراند) .

هزت رأسها فى قوة ، قائلة :

ـ سأفعل يا (ريو) ... لو جاء أحدهم يطلبه ، سأفعل .

ناولها مسدسًا صغيرًا ، وهو يقول فى شراسة :

ـ رصاصة مباشرة فى رأسه .

غمغمت ، وهى تقبض على المسدس .

يا إلهى !!... يا إلهى !!

زمجر ، قائلاً :

ـ أوامر (لوجراند) صريحة واضحة ... إما أن يكون هذا الطفل له ، أو لا يحصل عليه آخر ... هل فهمت ؟!

أومأت برأسها فى قوة ، غير قادرة على النطق ، ففتح الباب فى عنف ، قائلاً :

ـ عودى إليه .



خرجا معًا من الحجرة ، وما أن صارا فى ردهة ذلك المنزل الصغير ، المطل مباشرة على الميناء ، حتى طرق الباب فى قوة ، فسحب (ريو) مسدسه ، وهو يهتف :

ـ من بالباب ؟!

أتاه صوت (لوجراند) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ إنه أنا يا (ريو) .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يخفض مسدسه ، ويتجه نحو الباب ، مغمغمًا بكل توتره :

ـ (لوجراند) ؟!... ولكن كيف ؟!

كانت تفصله عن الباب ثلاث خطوات فحسب ، عندما سمع صوت تحطم زجاج النافذة فى عنف ، وصوت جسد يقفز داخل المنزل ، فاستدار على عقبيه فى سرعة ، وشهر مسدسه ، و ...

وانتفض جسده بمنتهى القوة ...

فما يراه أمامه ، مستحيلاً ...

وبكل المقاييس .

★ ★ ★

٧ ـ ختـــام ...

راجع مدير المخابرات المصرية ذلك التقرير ، الذى أرسله قسم المعلومات الدولية ، وهو يجلس على رأس مائدة الاجتماعات ، قبل أن يقول للجالسين :

ـ الانفجار الرهيب ، الذى حدث فى قلب (باريس) ، دمَّر بناية ، تعود ملكيتها إلى (تورجنيف للإنشاءات) ، وهذ يقودنا إلى أنه ليس عملاً إرهابيًا ، كما افترضت وكالات الأنباء الفرنسية ، ولكنها عملية تخص من يعرف باسم (لوجراند) .

قال (حسام) فى اهتمام ، وهو يراجع التقرير نفسه :

ـ يبدو لى هذا كجزء من عملية إخفاء ، لكل ما يمكن أن يقود إلى من خلف خدعة القرن .

قال المدير :

ـ لابد وأن تكتمل معلوماتنا أوَّلاً ، قبل القفز إلى النتائج .

غمغم أحد الرجال :

ـ مكتبنا فى (باريس) يتابع كل التفاصيل يا سيادة الوزير .

أومأ المدير برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ فلنعد إلى عملية (ن – ١) ... ما افترضه السيد (قدرى) ، يبدو لى منطقيًا ، ويتفق مع كافة التفاصيل ... (ن – ١) يسعى لاستعادة ابنه بالفعل .

تساءل أحد الرجال :

- وأين ابنه هذا بالضبط ؟!

تمتم آخر فى قلق :

- أخشى أن يكون داخل ذلك المبنى ، الذى تم تفجيره .

هتف (قدرى) :

- كلا .

التفت إليه الكل ، فتابع محاولاً كبح انفعاله :

- الذى أعدَّ خدعة متقنة كهذه ، مع كل تعقيداتها ، لن يحتفظ بابن غريمه ، فى أوَّل مكان يمكن أن يصل إليه ، لو تتبَّع كل الخيوط .

سأله (حسام) فى اهتمام :

- وأين يمكن أن يحتفظ به ؟!

صمت (قدرى) لحظات ، قبل أن يندفع مجيبًا فى حماس :

- (ريو) .

بدا الاهتمام على وجوه الجميع ، فتابع بنفس الحماس :

- (ريو) هو الذى رافقنى طوال الوقت ، وهو أوَّل من تحدث عن (لوجراند) ... والأهم هو الذى أحضر لى سلة الطعام ، مع الرسالة الزائفة ... ولو وضعنا كل هذا جنبًا إلى جنب ، سندرك أن (ريو بتشولى) ،

ملك سائقى التاكسى فى (باريس) ، كما يطلق على نفسه ، وعميل المخابرات الروسية السابق ، والذى جعلته تدريباته قادرًا ، على انتحال شخصية (أدهم) وقدراته ، هو اليد اليمنى ، لذلك المدعو (لوجراند) .

ساد الصمت لحظات ، قبل أن يقول المدير فى حزم :

- تحليل رائع يا سيد (قدرى) .

ثم التفت إلى (حسام) ، قائلاً :

- هل ما زلنا نتابع (ريو) هذا ؟!

أجابه (حسام) فى حسم :

- لدينا فريق يتابع كل تحركاته .

سأله المدير :

- وما آخر ما وصلنا ، من ذلك الفريق ؟!

راجع (حسام) الأوراق أمامه ، والتقط منها ورقة ، قرأها فى سرعة ، قبل أن يجيب فى انفعال :

- (ريو بتشولى) وصل إلى (مارسيليا) ، بصحبة طفل صغير .

هتف (قدرى) بكل انفعاله :

- (آدم) .

قال المدير فى حزم :

- إذن فهناك سيظهر (ن - ١) ، من أجل ابنه

ثم التفت إلى (حسام) ، مستطردًا بلهجة آمرة :

ـ اطلب من كل رجالنا فى (مارسيليا) ، الانطلاق إلى ذلك العنوان فورًا ، وأبلغوا السلطات الفرنسية عن حالة اختطاف .

هب (حسام) لتنفيذ الأمر فورًا ، فى حين راح (قدرى) يغمغم :

ـ لست وحدك يا صديقى ... لست وحدك .

وكان هذا إيذانًا ببدء جولة جديدة ...

الجولة الأخيرة ...

★ ★ ★

تراجع (ريو) بكل ذهول الدنيا ، وهو يحدق فى ذلك الشخص ، الذى اقتحم نافذة الشقة ، قبل أن يهتف ، بقدر هائل من التوتر :

ـ مستحيل !!... مستحيل !!... إنك ... إنك ...

شحب وجهه وصوته ، وهو يسحب مسدسه ، مكملاً :

ـ أنا .

أما (مارسيل) ، فقد اتسعت عيناها عن آخرهما ، وهى تنقل بصرها بين رجلين ، هما صورة طبق الأصل ، من بعضهما البعض ، فى حين غمغم (آدم) فى حيرة خائفة :

ـ ما هذا ؟!

ضمته (مارسيل) إليها ، مغمغمة فى ذهول :

ـ لست أدرى ؟!... لست أدرى !!!

أما ذلك القادم ، فقد تقدَّم فى هدوء نحو (ريو) ، وهو ينزع قناعًا مطاطيًا رقيقًا عن وجهه ، قائلاً فى هدوء مدهش ، لا يتناسب أبدًا مع الموقف :

ـ كانت أفضل وسيلة ، لدفع كل من تعرفهم إلى التعاون معى ، فى الوصول إلى منزل (مارسيل) .

غمغم (ريو) ، وهو يتراجع نحو الباب ، مصوِّبًا مسدسه إلى القادم :

ـ أنت هو .

قال الرجل ، وهو يواصل تقدمه الهادئ نحو (ريو) :

ـ هذا يتوقف عمن تقصده بكلمة (هو) هذه .

هتف (ريو) ، وقد التصق بالباب :

ـ ولكننى سمعت صوت (لوجراند) عند الباب .

أشار الرجل بيده ، وهو يواصل تقدمه .

جهاز تسجيل بسيط ، بعد طرق الباب ؛ جذب انتباه حواسك كلها نحو الباب ، ومنحنى أسبقية الهجوم من النافذة .

هزَّ (ريو) رأسه فى قوة ، وهو يهتف فى عصبية :

ـ ولكنك لم تحسن استغلال هذا ... ها أنتذا تقف أمامى أعزل ، والمسدس بيدى أنا .

لم يكد يتم عبارته ، حتى تحرك الرجل فى سرعة خرافية ، فوثب إلى الأمام ، وركل المسدس من يد (ريو) ، قبل أن يهبط أرضًا ، ويقول بنفس الهدوء :

ـ ماذا كنت تقول بشأن المسدس ؟!

ضمَّ (ريو) قبضتيه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ولكننى مازلت (ريو) ... أقوى وأبرع مقاتل ، عرفته المخابرات الروسية ، فى تاريخها كله .

أجابه الرجل فى هدوء شديد ، حمل لمحة من السخرية :

ـ حقًّا .

صرخ (ريو) ، وهو ينقض عليه :

ـ (مارسيل) ... نفذى الأمر .

وفى اللحظة التى اشتبك فيها الرجلان ، دوت من خلفهما رصاصة ...

فأوامر (لوجراند) واجبة التنفيذ ...

مهما كان الثمن ...

مهما كان ...

★ ★ ★

عدة سيارات توقَّفت ، أمام ذلك المنزل الصغير ، عند الرصيف السادس ، من ميناء (مارسيليا) ، واندفع منها عدد من الرجال ، بعضهم يرتدى ثياب الشرطة الرسمية ، والبعض الآخر فى ثياب مدنية ، فى حين حمل أحدهم مكبرًا صوتيًا ، هتف عبره ، ورجال الشرطة يحاصرون المنزل :

ـ (ريو بتشولى) ... الشرطة تحاصر المكان ... أنت متهم باختطاف طفل ... قم بتسليم نفسك ؛ حتى لا تجبرنا على استخدام القوة .

مضت لحظات دون استجابة ، فغمغم أحد رجال الشرطة ، متحدثًا إلى مدنى ، لا توحى ملامحه بأنه فرنسى الجنسية :

ـ هل نقتحم المكان ؟!

أجابه ذلك المدنى ، بفرنسية سليمة للغاية :

ـ أجل .

أصدر رجل الشرطة أوامره بالاقتحام ، فانطلق رجال الشرطة يقتحمون ذلك المنزل ، الذى أبلغ البعض عن سماع صوت رصاصة تنطلق داخله ...

وعندما وصل ذلك المدنى إلى المنزل ، لم يكن به سوى (مارسيل) ، و(ريو بتشولى) الفاقد الوعى ، والمقيد معصمه الأيمن إلى قدم مقعد ثقيل ، فاتجه المدنى مباشرة إلى (مارسيل) ، التى تغرق الدموع عينيها ، وسألها فى صرامة :

ـ أين الطفل ؟!

أجابته من وسط دموعها .

ـ لقد أخذه ... لم أستطع تنفيذ الأوامر ... من المستحيل أن أطلق النار على طفل .

سألها فى صرامة أكثر :

ـ من الذى أخذه ؟!

لوَّحت بكفيها فى انفعال ، وهى تهتف :

ـ ذلك الشيطان ... بديل (ريو) .

سألها فى اهتمام فاق صرامته :

ـ من هذا ؟!

تصاعد انفعالها ، وهى تجيب :

ـ ليس شخصًا طبيعيًا بالتأكيد ... (ريو) مقاتل رهيب ، لم أر من يقاتل مثله قط ، وعلى الرغم من هذا ، فقد هزمه ذلك الرجل فى سهولة ، كما لو كان يقاتل طفلاً صغيرًا .

سألها ، وقد تضاعف اهتمامه :

ـ ولكنك لا تعرفين من هو ؟!

أجابته ، وهى توشك على الانهيار :

ـ عندما وصل كان وجهه صورة طبق الأصل ، من وجـه (ريـو) وارتفع صوتها ، وهى تردف :

ـ قاتل كالأسود ، وعلى الرغم من هذا ، فقد كان فى غاية الرقة ، وهو يأخذ الطفل من بين ذراعىَّ ، وشكرنى ، على أننى أطلقت رصاصتى فى الهواء ، ثم اقتاده خارجًا بكل حنان الدنيا .

واتسعت عيناها ، وهى تهتف فى انفعال :

ـ كيف يجمع رجل واحد بين هذا وذاك ؟!... كيف ؟!

أدهشها أن ابتسم الرجل ، وهو يغمغم :

ـ هذه سمته .

ثم نهض ، والتقط هاتفه الخاص من جيبه ، وطلب رقمًا دوليًا ؛ ليقول كلمة واحدة ، فى ارتياح واضح :

ـ إنه هو .

وأنهى المحادثة ، وقد تضاعف ارتياحه ...

ألف مرة ...

★ ★ ★

لم يستطع (قدرى) كبح دموعه ، على الرغم من جلوسه حول مائدة الاجتماعات الرسمية ، ومدير المخابرات يقول فى ارتياح :

ـ ما حدث يؤكد لنا أنه (ن - ١) ، وأنه مازال على قيد الحياة ، ويتمتع بكامل لياقته وقدراته .

مسح (قدرى) دموعه ، وهو يسأل :

ـ وماذا عن (منى) ؟!

أجابه (حسام) :

ـ ربما نتوصل إلى مصيرها أيضًا .

تساءل أحد الرجال فى اهتمام :

ـ لو أن سيادة العميد على قيد الحياة ، فلماذا لا يعود ؟!

صمت الكل لحظات ، ثم قال المدير فى هدوء :

ـ سيعود بإذن الله .

أضاف (قدرى) فى سرعة :

ـ عندما يقرر هو هذا .

قال أحدهم معترضًا :

ـ ولكن هذا يخالف كل قواعد المخابرات ... سيادة العميد ليس مجرد مغامر ، يعمل لحساب نفسه ... إنه عميد فى المخابرات المصرية ، يحمل رتبة رسمية ، ومسئوليات ترتبط برتبته ، ولا يصح أن يفرض قواعده الخاصة على الجهاز ...

قال المدير فى هدوء :

ـ أهو اقتراح جديد بعزل (ن - ١) ؟!

قال الرجل فى حزم :

ـ بل هو اقتراح بتطبيق قوانين الجهاز ، على عضو يرفض الالتزام بها .

سحب (حسام) ورقة من أمامه ، قائلاً :

ـ قبيل حفل زفاف (أدهم) و(منى) ، تقدَّم سيادة العميد (أدهم) بطلب إجازة رسمية ، وبعدها حدث ما حدث ، فوضع سيادة المدير تأشيرته على الطلب ، باعتبارها إجازة مفتوحة .

تبادل الكل نظرة صامتة ، جعلت المدير يقول :

ـ هذا يعنى أنه من الناحية الرسمية ، فوضع (ن - ١) قانونى للغاية ... والآن من يرى أن عزله مفيد للجهاز ؟!

لم يرفع أحدهم يده ، فابتسم المدير ، وغمغم (قدرى) ، وهو يمسح دموعه :

ـ ألم أقل لك يا صديقى ... لست وحدك .

وكان هذا يغلق الملف ...

هذه المرة على الأقل ...

★ ★ ★

سقطت أشعة الشمس ، على وجه الصغير (آدم) ، فأيقظته من سباته ، مما جعله يعتدل ، متسائلاً فى فضول حائر :

ـ أين نحن ؟!



أجابه الرجل ، الذى يقود السيارة إلى جواره :

ـ لقد غادرنا (باريس) .

كان يتحدث إليه بعبرية صحيحة ، جعلت (آدم) يسأله فى دهشة :

ـ من أنت ؟!

داعب الرجل رأسه فى حنان ، وهو يقول :

ـ شخص مستعد للتضحية بحياته من أجلك .

بدا الحزن فى ملامح (آدم) وصوته ، وهو يغمغم :

ـ علمت أن (لوجراند) ليس أبى .

سأله الرجل فى قلق :

ـ وهل يحزنك هذا ؟!

هزَّ الصغير رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ ليس تمامًا ، فأنا لم أشعر بالارتياح معه أبدًا ، على الرغم من أنه كان يعاملنى بلطف ... الشىء الذى يحزننى بحق ، هو أننى لم أعرف أبى الحقيقى أبدًا .

داعب رأسه فى حنان ، وهو يقول :

ـ ستعرف كل شىء عنه ، قريبًا جدًّا .

سأله الطفل فى شغف :

ـ هل تعرفه ؟!

أجابه مبتسمًا :

ـ عشت معه طيلة عمرى .

هتف الصغير فى سعادة :

ـ أهو قريب من هنا ؟!

ربَّت عليه فى حنان ، مجيبًا :

ـ أقرب مما يمكنك أن تتصوَّر .

تطلع إليه الصغير لحظات ، ثم مال عليه ، يحتضنه فى قوة ، فضمه الرجل إليه ، بكل حنان الدنيا ، والسيارة تنطلق بهما ، إلى حيث تستقر بهما الأمور ...

وتنطلق ...

وتنطلق ...

وتنطلق .

★ ★ ★



روايات مصـرية





سلسلة الأعداد الخاصة

(ملف المستقبل .. رجل المستحيل)

صدر من هذه السلسلة :

العنوان	السلسلة
١ ـ المعركة الكبرى .	(رجل المستحيل)
٢ ـ بلا حدود .	(ملف المستقبل)
٣ ـ العميل .	(رجل المستحيل)
٤ ـ الحلقة الجهنمية .	(رجل المستحيل)
٥ ـ الزهرة السوداء .	(ملف المستقبل)
٦ ـ أسير الثلوج .	(رجل المستحيل)
٧ ـ سرية للغاية .	(رجل المستحيل)
٨ ـ الموت لا يأتي مرتين .	(رجل المستحيل)
٩ ـ المواجهة الأولى .	(رجل المستحيل)
١٠ ـ ساعات الخطر .	(رجل المستحيل)
١١ ـ عملية عنق الزجاجة .	(رجل المستحيل)
١٢ ـ الحصار .	(رجل المستحيل)
١٣ ـ الطيف .	(ملف المستقبل)
١٤ ـ تحت علم مصر .	(رجل المستحيل)
١٥ ـ (س ـ ١٨) .	(ملف المستقبل)
١٦ ـ البداية .	(رجل المستحيل)
١٧ ـ كائنات .	(ملف المستقبل)
١٨ ـ أنياب الأسد .	(رجل المستحيل)
١٩ ـ الجيل الثالث .	(ملف المستقبل)
٢٠ ـ الجحيم .	(رجل المستحيل)
٢١ ـ البارون الأحمر .	(رجل المستحيل)
٢٢ ـ الشمس الباردة .	(رجل المستحيل)
٢٣ ـ أدهم .	(ملف المستقبل)
٢٤ ـ الفجوة .	(رجل المستحيل)
٢٥ ـ الموت فى قطرة .	(ملف المستقبل)
٢٦ ـ خدعة القرن .	(عدد خاص جدًا)

رقم الإيداع : ٢٣٧٧٣
٩٧٧-٣٧٨-٤٢٩-٢

روايات مصرية

26 سلسلة الأعداد الخاصة

عدد خاص جدًا

خدعة القرن



د. نبيل فاروق

29 / 12 / 015

www.rewayatmasreya.com

facebook.com/rewayatmasreya





